العرفان الإسلامي

العلامة آية الله
الشيخ حسن زادة آملي

ترجمة
كمال السيد

دار أحياء التراث العربي

مكتبة
هؤمن قريش

العرفان الإسلامي

العرفان الإسلامي

تأليف
سماحة آية الله الشيخ حسين انصاريان

ترجمة
محمد باقر فاضلي

الجزء الثالث

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

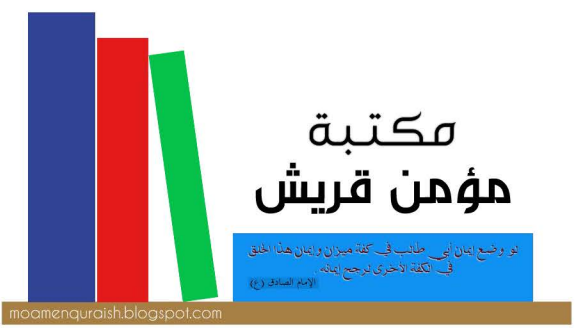

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing &Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد

دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ طريق المطار ـ خلف أوتيل الغولدن بلازا ص.ب: ١١/٧٩٥٧
الرمز البريدي: ١١/٠٧٢٢٥٠ ـ هاتف : ٠٠٩٦١١٤٥٥٥٥٩/ ٠٠٩٦١١٤٥٢٤٦٩ / فاكس: ٠٠٩٦١١٨٥٠٧١٧
Beyrouth –Lebanon—Airport Road –Behind Golden Plaza—P.O:11/7957—Postal Code:-11/072250 Tel:009611455559 – 009611452469 -- Fax : 009611/850717
Email:darturath2012@hotmail.com www.dartourath.com

الباب

(٤)

في بيان النية

«قالَ الصَّادِقُ عليه السلام: صاحِبُ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ صاحِبُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ لِأَنَّ سَلامَةَ الْقَلْبِ مِنْ هَواجِسِ الْمَحْذُوراتِ تُخَلِّصُ النِّيَّةَ لِلّهِ تَعالى فِى الأُمُورِ كُلِّها.

قالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ اِلاّ مَنْ اَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وَقالَ النَّبِىُّ صلى الله عليه وآله: نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ. وَقالَ: اَلْأَعْمالُ بِالنِّيّاتِ.

وَلِكُلِّ امْرِءٍ ما نَوى.

وَلابُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ خالِصِ النِّيَّةِ فى كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ ؛ اِذْ لَوْ لَمْ تَكُنْ بِهذَا الْمَعْنى تَكُونُ غافِلاً.

وَالْغافِلُونَ قَدْ وَصَفَهُمُ اللّهُ بِقَوْلِهِ: اِنْ هُمْ اِلاّ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ سَبِيلاً.

ثُمَّ النِّيَّةُ تَبْدو مِنَ الْقَلْبِ عَلى قَدْرِ صَفاءِ الْمَعْرِفَةِ، وَتَخْتَلِفُ عَلى حَسَبِ اخْتِلافِ الأَوْقاتِ فى مَعْنى قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ.

وَصاحِبُ النِّيَّةِ الْخالِصَةِ نَفْسُهُ وَهَواهُ مَعَهُ مَقْهُورَتانِ تَحْتَ سُلْطانِ تَعْظيمِ اللّهِ تَعالى.

وَالْحَياءُ مِنْهُ وَهُوَ مِنْ طَبْعِهِ وَشَهْوَتِهِ وَمُنْيَتِهِ، نَفْسُهُ مِنْهُ فى نَصَبٍ وَالنّاسُ مِنْهُ فى راحَةٍ.»

«قالَ الصَّادِقُ عليه السلام: صاحِبُ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ صاحِبُ الْقَلْبِ السَّليمِ»

النية:

النية تعني لغوياً القصد والعزم، والإرادة بمعنى أن تقرّر.

كل حركات وسكنات الإنسان وما تؤديه أعضاء وجوارح الآدمي، تتجذر في نية وقصد الإنسان.

ما لم يلحظ الإنسان مقصداً ويعزم فلن يتحرك نحوه، وليس ثمة من دافع غير النية، لحركة الأعضاء والجوارح نحو الهدف.

وجود النية محرّك لها، وعدمها فهو يصد الإنسان.

لو نوى الإنسان وقرر شأن أمر معين، فسوف يتحرك صوبه وينشط بكل كيانه وصولاً إليه وما لم يكن لديه قصد وعزم، فلن يحركه سوى عامل الجبر، ومع الجبر، فإن حركات الإنسان وحتى الهدف الذي يؤدي عامل الجبر، بالإنسان إليه، لن يكون لها أدنى قدر واعتبار؛ إذن بانهدام النية وابتعاد عامل الجبر، فلن يتحرك الإنسان نحو ما لم ينوه. كلما كبرت قيمة الهدف، فبالتناسب يرتفع قدر القيمة، وحين تكسب النية القيمة من الهدف، فلا شك إن العمل الذي يؤدى وفق تلك النية، يكتسب قيمته النية تلك.

في الحقيقة إن قيمة الهدف والنية والعمل تستند إلى بعضها وبين الحقائق الثلاثة هذه، علاقة مباشرة.

الهدف ينتج دوماً النية، والنية ـ عند توفّر الأرضية ـ تنتج العمل.

بدون هدف ومقصود لن تحدث نية في القلب وبغير النية، فلن يصدر عن الإنسان عمل.

نظراً لهذه المقدمة ـ والتي توضح أن الهدف روح النية وأن النية روح العمل ـ فالإسلام وهو مدرسة السعادة ومنتج الإنسان ومنهج التربية هذان، يولي الهدف والنية موقعاً هاماً جداً.

يريد الإسلام، أن يختار الناس في كل مجالات الحياة، أقدس وأرفع وأعلى هدف، لكي يهبهم الهدف المتعالي ذاك، نية أرفع وبالنتيجة يكون عمل الناس في كل أبعاد الحياة هو أفضل عمل.

إن أطاع الناس جميعاً الإسلام في تخيّر الهدف، فسيفدون جميعاً ذوي نية طاهرة خالصة وتنظم كل أعمالهم وأخلاقهم وفق تلك النية الرفيعة وإذن ستزول كثير من المشاكل الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والأخلاقية والاقتصادية وباختصار سوف تُحل جميع مشاكلهم المادية والمعنوية وسيصلون في هذه الدنيا إلى الحياة الطيبة التي وعدها القرآن المجيد، كما سينالون سعادة الأبد أخروياً:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

نعم، إن الإيمان وهو خليط من المعرفة والعشق الحقيقي لدى الإنسان بالنسبة إلى الله وشؤونه تعالى، يؤدّي بالإنسان أن يلاحظ الله في النية بشأن أي عمل، ويختار الله تعالى كمقصد، ويكون مراده من اتيان العمل، نيل رضى الله ولقائه وقربه، عندئذٍ فما ينجزه من عمل وبتلك النية، هو عمل صالح وثمرة ذلك العمل الصالح، هي الحياة الطيبة وثمرة الحياة الطيبة تلك، هي السعادة الأبدية في عالم الآخرة.

تعالوا نطلب من حضرة الحبيب بكمال الإخلاص أن يذيقنا نحن أيضاً من شراب العشق والإيمان والمعرفة والمحبة، كما أذاق أولياءه وعشاقه، كي نسكر بذلك فنطأ راقصين عالم القدس والمعنى ونضحي بكل الوجود في سبيل تراب تلك العتبة المقدسة.

نحن الذين وإلى الآن لم نستهدف سوى الدنيا والبطن والشهوة وكانت كل

١- النحل ١٦: ٩٧.

حركاتنا ونشاطات أعضائنا وجوارحنا تبعاً للهدف ذلك، ماذا ربحنا وأي نموّ وكمال نلناه وبما بذلناه من نقد العمر واللحظات التي لا عودة لها، ماذا كسبنا؟!

في الغد القريب حيث يزاح الستار، سيتضح أنه ليس ثمة دخل من بذل العمر العزيز، سوى الحسرة والغم والندامة والظلمة والمأساة، ولم نكسب عدا ذلك شيء!

تعالوا وكالحكيم الكبير، الإلهي القمشه اي الذي كان من حسنات الدهر وأنا الفقير إلى الله أعدّ ما وفقت إليه من ساعات في الحضور لديه، من أثرى وأثمن ساعات عمري، نرفع يد الحاجة نحو الغني تعالى، قائلين:

إلهي من ذلك الشراب الطهر الألستي ... إلهي أسر المصحّي لدى السكر

ذلك السكر الذي يوقظ القلب ... يجعلني مخموراً تجاه عين الحبيب

اجعلني أسكر من صهباء عشقك ... مجنوناً من الهيام بعشقك

بحيث لا ترى باصرة عقلي من السكر ... سواك في عالم الوجود

إلهي ما أردت فافعل بنفسي ... لا تدع شمع روحي بلا نورك

لمشتعل صدري من نار العشق ... أحرق كياني بشعاع العشق

اجعل قلبي كشمعة بيت النار ... صيّر بشمعي عالماً كالفراشة يدور

الإسلام الذي لا يرتضي للإنسان سوى الهدف الأرفع والنية الطاهرة الخالصة، ويعتبر أنّ ذلك سبيل نيل الكمال الحقيقي ليس إلا، يرى أن طريق إصلاح النية وهو جذر الأعمال، في أن يتمسك الآدمي بالأنبياء والأئمة عليهم السلام وهم العرفاء والحكماء الحقيقيون فيستغرق قلبه في المعرفة بالحقائق الأصيلة الصحيحة، كي ببركة تلك المعرفة، يصل إلى حقيقة أنّ المقصد الحق والهدف الأصيل ليس سوى الله سبحانه وتعالى وما كان سواه من غيب وشهود في متناول الإنسان، فلا يعد وكونه أداة وسبباً، ليس إلا.

لكي يدرك ببركة هذه المعرفة، أنه لو اختار غير الله هدفاً، ورتّب نيته وصولاً إلى ذلك الهدف واستعمل أعضاءه وجوارحه وفق تلك النية، فقد وقع في النية والضلالة ولن يقطف ختاماً من مزرعة الحياة سوى الشقاء والمأساة والعذاب الأليم.

كي يستنتج ببركة هذه المعرفة، أن ما قد سيستهدفه سوى الله سراب ليس إلا وكلّما سعى ومهما اجتهد وما بذل من عمر، لن ينال شيءً ولن يكون نصيبه غير خسران مقوّمات الحياة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾.[1]

نعم، فأنّ هؤلاء أيضاً سيدركون في نهاية العمر، أنهم قد ضحوا بكل شيء في سبيل الهباء والخواء!

المالك الحقيقي هو الله تعالى:

الإسلام ومن خلال محكمات الآيات القرآنية والبراهين التي هي أجلى واوضح من الشمس، يعتبر الله تعالى مالك كل شيء، مقرّراً أصالة ملكية ومالكية حضرة الحق تعالى، واعتبارية ووهمية مالكية غيره. عندما تدققون في ذلك، أنّ الحق هو ذلك أنه ليس لأحد في هذا العالم ملكية أصلية، الإنسان وهو المؤهل لأشرفية المخلوقات، يولد عرياناً فقيراً معدماً ويوم الارتحال عن الدنيا أيضاً يسافر إلى عالم الآخرة بيد مصفرة خالية من الماديات؛ حينما لا يكون الإنسان مع كل عظمته وموقعه في الخليقة ليس سوى أميناً بشأن الأمور المادية وغير المادية، فانظر إلى ما يكون حال سائر الكائنات؟!

الأنبياء وكانوا في المنبع لأهل المعرفة، وكما ينقل القرآن الكريم كان يسلبون عن أنفسهم في جميع لحظات العمر، وفي كل مجالات الحياة ـ سواء المادية أو المعنوية ـ

١- النور ٢٤: ٣٩.

المالكية وحصروا المالكية الحقيقية في الله العظيم وحده ولذا استهدفوه تعالى حقاً، وأستفادوا من جميع الأسباب والأدوات المتاحة لنيل مقام لقائه وقربه ورضاه؛ ينقل القرآن الكريم، كما أدناه الأمر الحقيقي من قبل الأنبياء بمالكية الله الحقيقية في جميع العالم، في آيات كما يلي ليفهم الجميع على لسانهم أنّه تعالى المالك الحقيقي ومن عداه مملوكون، والمملوك عديم الخيار؛ فليس يليق بكم أن تستهدفوا المملوك مهما بلغ من مقام وتبذلوا نيتكم وعملكم توصلاً لذلك المملوك الذي لا يقدر لكم على شيء.

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين﴾[١].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[٢].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣].

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين﴾[٤].

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٥].

١- الأعراف ٧: ٢٣.

٢- نوح ٧١: ٢٦ ـ ٢٧.

٣- البقرة ٢: ١٢٧ ـ ١٢٩.

٤- الأعراف ٧: ١٠٤.

٥- القصص ٢٨: ٢٤.

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾[١].

﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[٢].

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ وَأَكُن مِنَ الْجَاهِلِين﴾[٤].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَ يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب﴾[٥].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾[٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم﴾[٧].

١- هود ١١: ٥٦.

٢- هود ١١: ٦١.

٣- يوسف ١٢: ٦.

٤- يوسف ١٢: ٣٣.

٥- ص ٣٨: ٣٥.

٦- آل عمران ٣: ٣٨.

٧- آل عمران ٣: ٥١.

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[١].

﴿قُلْ مَن رَبُّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[٢].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّآتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٣].

وردت لفظة «رب» المباركة ومشتقاتها وهي تعني المالك نحو تسعمائة وخمسين مرة في القرآن المجيد، عسى أن يكفّ المستعلين والغافلين عن لجاجهم وجهلهم، فييأسوا من أرباب الباطل ويتوجهوا إلى رب العالم الحق.

إنّما تكرّر هذا اللفظ في القرآن الكريم والروايات الشريفة والأدعية الإسلامية، ليتذكر الإنسان دائماً هذه الحقيقة ولا ينحرف عن الصراط الإلهي المستقيم.

نعم، لا تختاروا أي شيء هدفاً، عدا مالك العالم الحقيقي، وإلا فستخسرون مائة بالمائة، الأدوات والأسباب، هي أدوات وأسباب وليس هدفاً، أعرفوا ماذا تفعلون،

١- المؤمنون ٢٣: ١١٨.

٢- المؤمنون ٢٣: ٨٦ ـ ٨٧.

٣- آل عمران ٣: ١٩١ ـ ١٩٤.

اعلموا أين ولمن تبذلون أنفسكم!

ما أجمل ما أنشده المرحوم «إلهي القمشهاي» ذلك المهذب الكامل والهائم العاشق:

يا قلب دع هواك في هوى الحبيب

تجافد طلباتك لرضا الحبيب

تفضل القمر وتتعدى الفلك

تلثم ليلة بالمسكنة تراب قدم الحبيب

أحسن إلى الخلق لا لطلب أجر الآخرة

لا أجر لما لم يكن لأجل الحبيب

إن أردت المشي في ساحة الجنة

أطرق ليلة بالتوبة باب عظمة الحبيب

ليسنحي «الإلهي» من هذا النصح الذي بلا إخلاص

مثلي ضال كيف أصبح مرشد الصديق

مرجع الأمور جميعاً إلى الله:

حينما تسجل آيات القرآن الشريفة، بدلائل وبراهين واضحة، الملكية الحقيقية والمالكية الحقّة بشأن جميع العالم إلى الله، فينبغي أن يكون أمر رجوع جميع العالم إليه تعالى، جلياً لدى ذوي الألباب؛ ذلك أن العالم والعالمين سيهدفون بطبيعتهم وذاتياً شيءً ما في تحركاتهم، وليس ثمة في عالم الكون وكائناته هدف غير الله.

أنظم أن سبّاحات الأفلاك لم تدور حول مركز التراب

ماذا يبغون من حمل هذا المحمل ماذا يجثون في هذا الترك للمنزل

من قال هذا ثابت وذاك اسمه المنقلب من قال لهذا تحرك ولذا استقرّ

في المحراب هذا من مقصود هـم وماذا يريدون من هذا المجيء والرواح

الكـل فـي دوران كالفرجـار يطلبـون موجـدهم

إن لم يكن مردّ ضيوف الكون إلى صاحب البيت، فينبغي القول: إن وجود أصغر جزء حتى أعظم الأحياء هو باطل وعبث، بينما لم يقل أو يقول ذلك أي متدبّر، كما أنّ واقع كائنات العالم ذاتها، يأبى أيضاً عن تقبل ذلك.

إن التدقيق في وضع أي كائن يدلّل أن الكائن محاط بالعلم والعلم والحكمة والهدف وبتعبير سيد الموحدين ونور العارفين، أمير المؤمنين عليه السلام، يمكن وبكل وضوح رؤية الله سبحانه وتعالى بعين القلب في مرآة وجود الكون، حينما يكون المحرك مستجمعاً لكل صفات الكمال، ينبغي أن يكون في المتحرك أيضاً أثر من تلك الصفات، حينما تكون إرادة المحرك حقّة فحركة المتحرك أيضاً حقّة وللحق ونحو الحق. يقرر القرآن الكريم أن خاتمة كل الحركات هو الله، مصرحاً في آياته أن مردّ جميع الأمور إلى الله:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[1].

﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُور﴾[2].

﴿... لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[3].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[1].

١- البقرة ٢: ٢١٠.

٢- آل عمران ٣: ١٠٩.

٣- الأنفال ٨: ٤٤.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[٢].

﴿لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[٣].

﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٥].

﴿... وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرِ﴾[٦].

﴿ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[٧].

﴿لَهُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[٨].

دققوا في هذه الآيات القرآنية، وتلمّسوا حقيقة أنّ مردّ الجميع إليه وهو ختام ومنتهى كل عمل، ثم ادرسوا نياتكم، انظروا في ذلك اليوم الذي قد عاد كل شيء إليه ورجعت نياتكم لكل الأشياء إليه تعالى ماذا يفعل بنياتكم، إن كان هو النية في كل الأمور، فسيشتري ذلك بأغلى الثمن، إن كانت غيره يردّ ذلك إلى الغير الذي لم يكن

١- الحج ٢٢: ٧٦.

٢- فاطر ٣٥: ٤.

٣- الحديد ٥٧: ٥.

٤- الروم ٣٠: ١١.

٥- هود ١١: ١٢٣.

٦- المائدة ٥: ١٨.

٧- غافر ٤٠: ٣.

٨- الشورى ٤٢: ٥٣

له في الدنيا من الأمر شيء فضلاً عن خاتمة الأمور، نظراً لهذه الحقيقة، فلمَ وعلى أي معادلة ينوي الإنسان في أعماله غير الله سبحانه وتعالى، مستهدفاً غير حضرة الحبيب؟

النية لغيره تعالى، تفتقد إلى القدر والثمن وما يؤدي من عمل وفقاً لتلك النية، هو أيضاً غير ذي ثمن.

تعالوا نسيطر على أنفسنا فننقذ نياتنا من التفرّق، ونؤاطرها بالوحدة، فلا تكون لنا في أي أمورنا نية غيره تعالى، عندئذٍ تنتمي نيتنا وعملنا وسنغدو مؤمنين حقيقيين.

كل ما سوى الحق تعالى فهو فقير وذليل ومسكين ومستجير وحقير ومملوك وصغير وعبد وضعيف وعاجز وجعل النية هكذا للغير هو عين الجهالة وإنّ الإسلام عبر توجيه الناس إلى هذه الآيات، فهو يثبت لهم أن لا حقيقة في دار التحقق، لغير حقيقة الله، فلا يمكن لشيء غيره أن يكون هدفاً ومقصداً ومصيراً، ما سوى الحق تعالى لا يعدو كونه شجاً وظلاً، وإن أمكنه أن يَتعنون، فعنوانه السبب والأداة، تعالوا استهدفوا الله في كل أعمالكم، كي تتبلور نيتكم من ذلك الهدف وتصبح نيتكم إلهية، ثم قوموا بانجاز العمل، إذ ما نشأ عن تلك النية من عمل فهو إلهي والعمل الإلهي يستتبع الخير والبركة والثواب والقيمة، واتخذوا غير الله تعالى كأداة وسبب لتحقيق النية، كما يدلّ ـ ويرشد ـ القرآن الكريم الإنسان على هذا الصراط المستقيم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[2].

١- المائدة ٥: ٣٥.

٢- الإسراء ١٧: ٥٧.

نعم، فجميع الأنبياء والأئمةعليهم السلام والعرفاء الحقيقيون والأبرار والأولياء والعشاق الإلهيين، هم سُبل وأسباب تعرفنا على حضرة الحبيب تعالى، ومواد الدنيا وما فيها من أشياء كأعضائنا وجوارحنا هي أدوات مساعدة لنا للوصول إلى الله تعالى.

ليس ثمة من هدف أو مقصد غيره تعالى، لا تتوقفوا إلى شيء لا تفارقوا الأولياء ولا تخطوا في سبيل السلوك، بلا «خضر» للطريق ومرشد حكيم وإلهي مائة بالمائة وعالم رباني، إذ ما أكثر المخاطر في هذا الدرب وأكبر الأخطار اشتباه الوسيلة بالهدف وإذن الانحراف في النية وختاماً سقوط قيمة الجهاد والعمل!!

ينشد «الإلهي» ذلك العارف الهائم، كما يلي:

يا من حسنك شمس تشرف على العالم ... ويا من عشقك نار تحرق الكون

يا من حبّك سر الخلق ... نورك مصباح أهل البصيرة

يا من عتبتك ملجأ العالم ... مسكينك ملك العالم

يا بديع نقش العقل والأنفس ... ويا من السماوات باختراعك

يا من جزت سماء الأفكار ... اندهشت بك عين عقل الفطن

يا أيها السر العيان والعين المستور ... عن كل العالم والبعيد عن الجميع

يا من ظل السماوات السبع ... قائمة بإشراق شمس حبّك

يا محرم سر المتعشّقين ... كذا سر المستغنين

يا من ذكرك وحي سماوي ... وهو حياة الأبد

يا من اسمك نقش خاطري ... ذكرك جنّتي وكوثري

تكرّم عليّ فأني ذليـل مهـين تلطّف علي فحـالي كاسـد [١]

النية في القرآن الكريم:

أشار القرآن الكريم إلى مسألة النية خلال أربعة أقسام، في مرحلة يدعوا إلى أن يكون الله هو المقصود في جميع البرامج وأن لا تتخذوا مراداً غيره وأن تراقبوا لتكون كل أموركم في سبيل الله وقربة إليه.

في قسم آخر يتحدّث عن النية الصافية والنقية والمراد والمقصود الإلهي للعباد الحقيقيين ويكشف بمرآة آياته عن حصيلة ذات قلبهم الفطيم وأنه ليس سوى النية الخالصة.

يشير في مسألة أخرى إلى نكتة أنّ ما يخطر بقلبكم وصدركم وفؤادكم، فإن الله عالم به وأنه تعالى حاضر ناظر، وأن عليكم التنبه إلى أنكم بمحضر من الله فلا تنووا سواه.

وفي قسم آخر يشير إلى النيات غير الإلهية والمقاصد غير النقية الملوّثة، معتبراً أصحابها ظالمين ضالين وأن عاقبتهم جهنم ليس غيرها.

أما الآيات القرآنية التي تحدثت بالتقريب عن المسائل الأربعة:

النية، لله فقط:

﴿وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾[٢].

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[٣].

﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ

١- الهي قمشه اى.

٢- الحج ٢٢: ٧٨.

٣- الليل ٩٢: ١٩ ـ ٢٠.

يُحِبُّ الْمُعْتَدِي﴾[١].
﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[٢].

نية العباد الحقيقيين الخالصة المخلصة:

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين﴾[٣].
﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٤].
﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥].
﴿..وَما آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[٦].
﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾[٧].

١- البقرة ٢: ١٩٠.
٢- النجم ٥٣: ٦٢.
٣- الأنعام ٦: ٧٩.
٤- الرعد ١٣: ٢٢.
٥- الروم ٣٠: ٣٨.
٦- الروم ٣٠: ٣٨.
٧- الأنعام ٦: ٥٢.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾[١].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾[٢].

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[٣].

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

الله تعالى عالم بالبينات جميعاً:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٥].

﴿...وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٦].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا

١- الإنسان ٧٦: ٩.

٢- الكهف ١٨: ٢٨.

٣- النمل ٢٧: ١٩.

٤- الأحقاف ٤٦: ١٥.

٥- آل عمران ٢: ١١٩.

٦- آل عمران ٢: ١٥٤.

وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١].

﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَستَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢].

﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾[٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٤].

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٥].

النيات اللا طاهرة والملوّثة:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّماواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٧].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ

١- المائدة ٥: ٧.

٢- هود ١١: ٥.

٣- العنكبوت ٢٩: ١٠.

٤- فاطر ٣٥: ٣٨.

٥- الملك ٦٧: ١٣.

٦- آل عمران ٣: ٢٩.

٧- البقرة ٢: ١٠٧.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[١].

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾[٢].

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣].

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَيَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا...﴾[٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥].

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[٦].

﴿ذلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٧].

لا تدعوا غيره، لا تقصدوا أو تستهدفوا سواه، لا يملك من سواه نفعاً ولا ضراً، ما تتخيّرونه عداه أو تدعونه فذاك الباطل المحض. ليست عبادة غيره سوى الشرك وظلم الذات، ونظراً إلى هكذا آيات التي تنفي بالكلية عن غير الله تعالى القدرة والمالكية

١- البقرة ٢: ١٦٥.

٢- النساء ٤: ١٢٣.

٣- المائدة ٥: ٧٦.

٤- الأنعام ٦: ٧١.

٥- الأعراف ٧: ١٩٤.

٦- الأنبياء ٢١: ٦٧.

٧- الحج ٢٢: ٦٢.

والحكومة، والتمكّن من النفع أو الإضرار، فلا مجال لكي يستهدف الإنسان غيره تعالى وينوي في أعماله قرب غيره.

الفيضي الكاشاني، ذلك الفاني الباقي، هكذا كان ترنّمه في هذه المرحله:

يا ربّ لا تخل من خمرة العشق روحنا

صبّ من المعرفة شراباً في فمنا

يا من وقعنا في الدنيا لعبارتك

يا من عبوديتنا لك الحبوب ودنياك شبكة صيدنا

ما لم تكن عبودية فما الجدوى من الحياة

ما دام قدحنا خلواً من الخمرة فما حصيلة ذلك

معك حلال ومن دونك حرام التنعّمات

يا ربّ حلّل بلطفك حرامنا

ألق من صدق العبودية لك حبة في القلب

عسى أن يقع في مصيدتنا العشق والمعرفة

بدون صدق العبودية لن تنال المعرفة حقاً

دون ذوق المعرفة فلن ينقاد لنا العشق

من العبودية إلى المعرفة والمعرفة إلى العشق

خذ بالقلب كي تنطبخ نيّتنا

من نسج خيوط العلم والعمل لو حكنا مصيدة

«فيض» سيقع في مصيدتنا طائر السعادة[1]

١- فيض الكاشاني.

النية في الروايات:

الروايات الإسلامية وكآيات القرآن الكريم، تخصّ مسألة النية بمساحة واسعة، وينبغي أولاً الإشارة إلى ما ورد من روايات في «غرر الحكم» عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«اَلاَعْمالُ ثَمارُ النِّيّاتِ»[١].

«اَلنِّيَّةُ أساسُ الْعَمَلِ»[٢].

«إحْسانُ النِّيَّةِ يُوجِبُ الْمَثُوبَة»[٣].

«اَلنِّيَّةُ الصّالِحَةُ اَحَدُ الْعَمَلَيْن»[٤].

«إسْتَعِنْ عَلَى الْعَدْلِ بِحُسْنِ النِّيَّةِ فِى الرَّعِيَّةِ وَقِلَّةِ الطَّمَعِ وَكَثْرَةِ الْوَرَع»[٥].

«إيّاكَ وَخُبْثَ الطَّوِيَّةِ وَاِفْسادَ النِّيَّةِ وَرُكُوبَ الدَّنِيَّةِ وَغُرُورَ الاَمْنِيَّة»[٦].

«أَفْضَلُ الذَّخائِرِ حُسْنُ الضَّمائِر»[٧].

«أَقْرَبُ النِّيّاتِ بِالنَّجاحِ أَعْوَدُها بِالصَّلاحِ»[٨].

«إنَّ اللّهَ تَعالى يُدْخِلُ بِحُسْنِ النِّيَّةِ وَصالِحِ السَّريرَةِ مَنْ يَشاءُ مِنْ

١- غرر الحكم: ٩٣، حديث ١٦٢٢.

٢- غرر الحكم: ٩٣، حديث ١٦٢٤.

٣- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٥٩٥.

٤- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٥٩٦.

٥- غرر الحكم: ٣٤١، حديث، ٧٧٩٥.

٦- غرر الحكم: ٣٢٣، حديث ٧٥٢١.

٧- غرر الحكم: ٢٥٤، حديث ٥٣٣٧.

٨- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٥٩٧.

عِبادِهِ الْجَنَّة»[١].

«إنَّ تخليصَ النِّيَّةِ مِنَ الْفَسادِ أَشَدُّ عَلَى الْعامِلينَ مِنْ طُولِ الإجْتِهاد»[٢].

«إذا فَسَدَتِ النِّيَّةُ وَقَعَتِ الْبَلِيَّة»[٣].

«بِحُسْنِ النِّيّاتِ تَنْجَحُ الْمَطالِب»[٤].

«جَميلُ النِّيَّةِ، سَبَبٌ لِبُلُوغِ الأَمْنِية»[٥].

«حُسْنُ النِّيَّةِ جَمالُ السَّرائِر»[٦].

«رُبَّ عَمَلٍ أَفْسَدَتْهُ النِّيَّة»[٧].

«رُبَّ نِيَّةٍ أَنْفَعُ مِنْ عَمَل»[٨].

«رِزْقُ الْمَرْءِ عَلى قَدْرِ نِيَّتِه»[٩].

«سُوءُ النِّيَّةِ داءٌ دَفين»[١٠].

«صَلاحُ الْعَمَلِ بِصَلاحِ النِّيَّة»[١١].

١- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٥٩٨.

٢- غرر الحكم: ٩٣، حديث ١٦١٦.

٣- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٦٠٨.

٤- غرر الحكم: ٢٥٣، حديث ٥٣٢١.

٥- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٥٩٩.

٦- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٦٠٠.

٧- غرر الحكم: ٩٣، حديث ١٦٢٩.

٨- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٥٩١.

٩- غرر الحكم: ٣٩٩، حديث ٩٢٦٨.

١٠- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٦٠٩.

١١- غرر الحكم: ٩٣، حديث ١٦٢٥.

«عَلى قَدْرِ النِّيَّةِ تَكُونُ مِنَ اللّهِ الْعَطِيَّة»[١].

«عِنْدَ فَسادِ النِّيَّةِ تَرْتَفِعُ الْبَرَكَةُ»[٢].

«مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ اِخْلاصَ النِّيَّةِ فِي الطّاعاتِ لَمْ يَظْفَرْ بِالْمَثُوباتِ»[٣].

«مَنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ كَثُرَتْ مَثُوبَتُهُ وَطابَتْ عيشَتُهُ وَوَجَبَتْ مَوَدَّتُهُ»[٤].

«لا عَمَلَ لِمَنْ لا نِيَّةَ لَه»[٥].

«لا نِيَّةَ لِمَنْ لا عِلْمَ لَه»[٦].

حقاً، ما لم يعرف المرء الله تعالى والأنبياء والأئمة عليهم السلام وما يجري في يوم القيامة والقرآن الكريم، فكيف تحصل له النية الحقيقية؟

عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قالَ: «لا عَمَلَ إلاّ بِنية»[٧].

عَنْ أَميرِالْمُؤْمِنينَ عليه السلام قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله:

«لا قَوْلَ إلاّ بِعَمَلٍ، وَلا قَوْلَ وَلا عَمَلَ إلاّ بِنِيَّةٍ وَلا قَوْلَ وَلا عَمَلَ وَلا نِيَّةَ إلاّ بِإصابَةِ السُّنَّةِ»[٨].

عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قالَ:

١- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٥٩٤.

٢- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٦١٠.

٣- غرر الحكم: ٩٣، حديث ١٦١٤.

٤- غرر الحكم: ٩٢، حديث ١٦٠٤.

٥- غرر الحكم: ٩٣، حديث ١٦٣١.

٦- غرر الحكم: ٦٤، حديث ٨٠٧

٧- الكافي: ٢، ص ٨٤، باب النية، الحديث ١؛ وسائل الشيعة: ١، ص٤٦، باب وجود النية، الحديث ٨٣.

٨- الكافي: ١، ص ٧٠، باب الآخذ بالسنة، الحديث٩؛ وسائل الشيعة: ج١، ص٤٧، باب وجود النية، الحديث ٨٤

«لا حَسَبَ لِقُرَشِيٍّ وَلا عَرَبِيٍّ إلاّ بِتَواضُعٍ، وَلا كَرَمَ إلاّ بِتَقْوى وَلا عَمَلَ إلاّ بِنِيَّةٍ وَلا عِبادَةَ إلاّ بِتَفَقُّهٍ»[١].

عَنْ أَبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ:

«إنَّ اللّهَ يَحْشُرُ النّاسَ عَلى نِيّاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ»[٢].

قالَ صلى الله عليه وآله: «إنَّما الْأَعْمالُ بِالنِّيّاتِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوى، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ اِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيا يُصيبُها أَوْ إمْرَءَةٍ يَتَزَوَّجُها فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيْهِ»[٣].

وَقالَ صلى الله عليه وآله:

«إنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَاَعْمالِكُمْ»[٤].

وقال عليه السلام: «إنّ العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة فتلقى بين يدي اللّه عزّ و جلّ فيقول: ألقوا هذه الصحيفة فإنّه لم يرد بما فيها وجهي، ثمّ ينادي الملائكة اكتبوا له كذا و كذا فتقولون يا ربّنا إنّه لم يعمل شيئا من ذلك، فيقول: إنّه نواه إنّه نواه».[٥]

«عَنْ أَبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ

١- الكافي: ج٨، ص٣٤، الحديث ٣١٢؛ وسائل الشيعة: ج١، ص٤٧، باب وجوب النية، الحديث ٨٥

٢- وسائل الشيعة: ج١، ص٤٨، باب وجوب النية، الحديث ٨٧؛ المحاسن: ج١، ص٦٢، باب النية، الحديث ٣٢٥.

٣- مستدرك الوسائل: ج١، ص٩٠، باب وجوب النية في العبادات...، الحديث ٥.

٤- مستدرك الوسائل: ج١١، ص٦٤، باب وجوب تقوى الله، الحديث ١٢٩٥؛ المحجة البيضاء: ج٨، ص١٠٣، كتاب النية والصدق.

٥- المحجة البيضاء: ١٠٣/٨، كتاب النية والصدق.

مِنْ عَمَلِهِ وَنِيَّةُ الْكافِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ وَكُلٌّ عامِلٍ يَعْمَلُ عَلى نِيَّتِهِ»[١].

كلام العلامة المجلسي رحمه الله في شرح حديث النية:

يقول العلامة المجلسي في شرح هذا الحديث:[٢]

هذا الحديث من الاخبار المشهورة بين الخاصة والعامة، وقد قيل فيه وجوه: الاول أن المراد بنية المؤمن اعتقاده الحق ولا ريب أنه خير من أعماله إذ ثمرته الخلود في الجنة، وعدمه يوجب الخلود في النار، بخلاف العمل. الثاني أن المراد أن النية بدون العمل خير من العمل بدون النية، ورد بأن العمل بدون نية لا خير فيه أصلا، وحقيقة التفضيل تقتضي المشاركة، ولو في الجملة. الثالث ما نقل عن ابن دريد وهو أن المؤمن ينوي خيرات كثيرة لا يساعده الزمان على عملها، فكان الثواب المترتب على نياته أكثر من الثواب المترتب على أعماله. الرابع ما ذكره بعض المحققين وهو أن المؤمن ينوي أن يوقع عباداته على أحسن الوجوه لان إيمانه يقتضي ذلك، ثم إذا كان يشتغل بها لا يتيسر له ذلك، ولا يتأتى كما يريد، فلا يأتي بها كما ينبغي، فالذي ينوي دائما خير من الذي يعمل في كل عبادة، وهذا قريب من المعنى الاول ويمكن الجمع بينهما ويؤيدهما الخبر الثالث والخامس وما رواه الصدوق – رحمه الله – في علل الشرائع بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنه كان يقول نية المؤمن خير من عمله، وذلك لانه ينوي من الخير مالا يدركه، ونية الكافر شر من عمله، وذلك لان الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه، وباسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال له زيد الشحام: إني سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خيرا من العمل؟ قال: لان العمل إنما كان رئاء المخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطي عزوجل على النية

١- المحجة البيضاء: ج٨، ص١٠٣، كتاب النية والصدق.

٢- بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٨٩ ـ ١٩٦، الباب ٥٣، الحديث ٢.

ما لا يعطي على العمل، قال أبو عبد الله عليه السلام: إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل، فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحا ويجعل نومه صدقة[1].

الخامس أن طبيعة النية خير من طبيعة العمل، لانه لا يترتب عليها عقاب أصلا بل إن كانت خيرا اثيب عليها، وإن كان شرا كان وجودها كعدمها بخلاف العمل فان من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فصح أن النية بهذا الاعتبار خير من العمل. وأقول: يمكن أن يقال هذا في الشر أيضا بناء على أن الكافر يعاقب على نيات الشر، وإنما العفو عن المؤمنين. السادس أن النية من أعمال القلب، وهو أفضل من الجوارح، فعمله أفضل من عملها، ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿أقم الصلوة لذكري﴾[2].

جعل سبحانه الصلاة وسيلة إلى الذكر، والمقصود أشرف من الوسيلة، وأيضا فأعمال القلب مستورة عن الخلق، لا يتطرق إليها الرئاء وغيره، بخلاف أعمال الجوارح.

السابع أن المراد أن نية بعض الاعمال الشاقة كالحج والجهاد خير من بعض الاعمال الخفية كتلاوة آية من القرآن والصدقة بدرهم مثلا. الثامن ما ذكره السيد المرتضى رضي الله عنه في الغرر أن لفظة خير ليست اسم تفضيل، بل المراد أن نية المؤمن عمل خير من جملة أعماله ومن تبعيضية وبه دفع التنافي بين هذا الحديث، وبين ما يروى عنه صلى الله عليه وآله أفضل الاعمال أحمزها، ويجري هذا الوجه في قوله: ونية الكافر شر من عمله، فان المعنى فيه أيضا ليس معنى التفضيل، بل المعنى شر من جملة عمله. فان قيل: كيف يصح هذا مع ما ورد في الحديث من أن ابن آدم إذا هم بالحسنة

١- علل الشرايع: ٥٢٤/٢، باب ٣٠١، حديث ١.

٢- طه ٢٠: ١٤.

كتبت له حسنة، وإذا هم بالسيئة لم يكتب عليه شئ، حتى يعمل؟ قلنا قد ذكرنا سابقا أن ظاهر بعض الاخبار أن ذلك مخصوص بالمؤمنين.

التاسع أن المراد بالنية تأثر القلب عند العمل، وانقياده إلى الطاعة، وإقباله على الآخرة، وانصرافه عن الدنيا، وذلك يشتد بشغل الجوارح في الطاعات وكفها عن المعاصي، فان بين الجوارح والقلب علاقة شديدة يتأثر كل منهما بالآخر، كما إذا حصل للاعضاء آفة سرى أثرها إلى القلب فاضطرب وإذا تألم القلب بخوف مثلا سرى أثره إلى الجوارح فارتعدت، والقلب هو الامير المتبوع والجوارح كالرعايا والاتباع، والمقصود من أعمالها حصول ثمرة القلب. فلا تظن أن في وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والارض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فان من يجد في نفسه تواضعا فإذا استعان بأعضائه وصورها بصورة التواضع، تأكد بذلك تواضعه، وأما من يسجد غافلا عن التواضع، وهو مشغول القلب بأغراض الدنيا فلا يصل من وضع جبهته على الارض أثر على قلبه، بل سجوده كعدمه نظرا إلى الغرض المطلوب منه، فكانت النية روح العمل وثمرته، والمقصد الاصلي من التكليف به، فكانت أفضل. وهذا الوجه قريب مما ذكره الغزالي في إحيائه، وهو أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، وكل منهما من جملة الخيرات إلا أن النية من الطاعتين خير من العمل، لان أثر النية في المقصود أكثر من أثر العمل، لان صلاح القلب هو المقصود من التكليف، والاعضاء آلات موصلة إلى المقصود، والغرض من حركات الجوارح أن يعتاد القلب إرادة الخير، ويؤكد الميل إليه، ليتفرغ عن شهوات الدنيا، ويقبل على الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة إلى الغرض قال الله تعالى: " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم " والتقوى صفة القلب وفي الحديث إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد.

العاشر أن نية المؤمن هي الباعثة له على عمل الخير، فهي أصل العمل وعلته والعمل فرعها، لانه لا يحصل العمل ولا يوجد إلا بتصور المقصود الحقيقي والتصديق بحصوله، وانبعاث النفس إليه، حتى يشتد العزم، ويوجد الفعل فبهذه الجهة هي أشرف، وكذا نية الكافر سبب لعمله الخبيث فهي شر منه.

الحادي عشر أن النية روح العمل، والعمل بمثابة البدن لها، فخيريته وشريته تابعتان لخيرية النية وشريتها، كما أن شرافة البدن وخبائته تابعتان لشرافة الروح وخبائته، فبهذا الاعتبار نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله.

الثاني عشر أن نية المؤمن وقصده أولا هو الله، وثانيا العمل، لانه يوصل إليه، ونية الكافر وقصده غيره تعالى، وعمله يوصله إليه، وبهذا الاعتبار صح ما ذكر. وهذا الوجه وما تقدمه مستفادان من كلام المحقق الطوسي قدس سره والوجوه المذكورة ربما يرجع بعضها إلى بعض، وبعد ما أحطت خبرا بما ذكرناه نذكر ما هو أقوى عندنا بعد الاعراض عن الفضول، وهو الحق الحقيق بالقبول. فاعلم أن الاشكالات الناشئة من هذا الخبر إنما هو لعدم تحقيق معنى النية وتوهم أنها تصور الغرض والغاية، وإخطارها بالبال، وإذا حققتها كما أومأنا إليه سابقا، عرفت أن تصحيح النية من أشق الاعمال وأحمزها، وأنها تابعة للحالة التي النفس متصفة بها، وكمال الاعمال وقبولها و فضلها منطو بها، ولا يتيسر تصحيحها إلا باخراج حب الدنيا، وفخرها وعزها من القلب، برياضات شاقة، وتفكرات صحيحة، ومجاهدات كثيرة، فان القلب سلطان البدن، وكلما استولى عليه يتبعه سائر الجوارح، بل هو الحصن الذي كل حب استولى عليه وتصرف فيه، يستخدم سائر الجوارح والقوى، ويحكم عليها، ولا تستقر فيه محبتان غالبتان، كما قال الله عزوجل: يا عيسى لا يصلح لسانان في فم واحد ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الاذهان وقال سبحانه: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾. فالدنيا والآخرة ضرتان لا يجتمع حبهما في قلب، فمن استولى على قلبه حب المال لا يذهب فكره وخياله وقواه وجوارحه إلا إليه، ولا يعمل عملا إلا ومقصوده الحقيقي

فيه تحصيله، وإن ادعى غيره، كان كاذبا، ولذا يطلب الاعمال التي وعد فيها كثرة المال ولا يتوجه إلى الطاعات التي وعد فيها قرب ذي الجلال، وكذا من استولى عليه حب الجاه ليس مقصوده في أعماله إلا ما يوجب حصوله، وكذا سائر الاغراض الباطلة الدنيوية، فلا يخلص العمل لله سبحانه وللآخرة إلا باخراج حب هذه الامور من القلب، وتصفيته عما يوجب البعد عن الحق.

منازل ودرجات النية:

فللناس في نياتهم مراتب شتى بل غير متناهية بحسب حالاتهم، فمنها ما يوجب فساد العمل وبطلانه، ومنها ما يوجب صحته، ومنها ما يوجب كماله، ومراتب كماله أيضا كثيرة فأما ما يوجب بطلانه فلا ريب في أنه إذا قصد الرئاء المحض أو الغالب، بحيث لو لم يكن رؤية الغير له لا يعمل هذا العمل، إنه باطل لا يستحق الثواب عليه، بل يستحق العقاب، كما دلت عليه الآيات والاخبار الكثيرة، وأما إذا ضم إلى القربة غيرها بحيث كان الغالب القربة، ولو لم تكن الضميمة يأتي بها ففيه إشكال، ولا تبعد الصحة، ولو تعلق الرئاء ببعض صفاته المندوبة كاسباغ الوضوء، وتطويل الصلاة، فأشد إشكالا. ولو ضم إليها غير الرئاء كالتبريد ففيه أقوال ثالثها التفصيل بالصحة، مع كون القربة مقصودة بالذات والبطلان مع العكس، قال في الذكرى: لو ضم إلى النية منافيا فالاقرب البطلان، كالرئاء، والندب في الواجب لان تنافي المرادات يستلزم تنافي الارادات، وظاهر المرتضى الصحة بمعنى عدم الاعادة، لا بمعنى حصول الثواب، ذكر ذلك في الصلاة المنوي بها الرئاء، وهو يستلزم الصحة فيها وفي غيرها مع ضم الرئاء إلى التقرب، ولو ضم اللازم كالتبرد قطع الشيخ وصاحب المعتبر بالصحة، لانه فعل الواجب وزيادة غير منافية، ويمكن البطلان لعدم الاخلاص الذي هو شرط الصحة، وكذا التسخن والنظافة انتهى.

وأقول: لو ضم إلى القربة بعض المطالب المباحة الدنيوية فهل تبطل عبادته؟ ظاهر جماعة من الاصحاب البطلان، ويشكل بأن صلوات الحاجة والاستخارة وتلاوة القرآن والاذكار والدعوات المأثورة للمقاصد الدنيوية عبادات بلا ريب، مع أن تكليف خلو القصد عنها تكليف بالمحال والجمع بين الضدين، كأن يقول أحد: ائت الموضع الفلاني لرؤية الاسد من غير أن يكون غرضك رؤيته، أو اذهب إلى السوق واشتر المتاع من غير أن تقصد شراء المتاع، وقد ورد في الاخبار الكثيرة منافع دنيوية للطاعات ككون صلاة الليل سببا لوسعة الرزق، وكون الحج موجبا للغنا وأمثال ذلك كثيرة، فلو كانت هذه مخلة بالقربة لكان ذكرها إغراء بالقبيح، إذ بعد السماع ربما يمتنع تخلية القصد عنها. نعم يمكن أن تؤول هذه المقاصد بالآخرة إلى القربة، كأن يكون غرض طالب الرزق صرفه في وجوه البر والتقوى به على الطاعة، ومن يكون مقصوده من طول العمر تحصيل رضا الرب تعالى لكن هذا القصد لا يتحقق واقعا وحقيقة إلا لآحاد المقربين، ولا يتيسر لاكثر الناس هذه النية وهذا الغرض، إلا بالانتحال والدعاوي الكاذبة، وتوهم أن الاخطار بالبال نية واقعية، وبينهما بعد المشرقين. فالظاهر أنه يكفي لكونه طاعة وقربة كونه بأمره سبحانه وموافقا لرضاه ومتضمنا لذكره والتوسل إليه وإن كان المقصود تحصيل بعض الامور المباحة لنيل اللذات المحللة وأما النيات الكاملة والاغراض العرية عن المطالب الدنية الدنيوية فهي تختلف بحسب الاشخاص والاحوال، ولكل منهم نية تابعة لشاكلته وطريقته وحالته بل لكل شخص في كل حالة نية تتبع تلك الحالة ولنذكر بعض منازلها ودرجاتها.

فالاولى نية من تنبه وتفكر في شديد عذاب الله وأليم عقابه، فصار ذلك موجبا لحط الدنيا ولذاتها عن نظره، فهو يعمل كل ما أراد من الاعمال الحسنة ويترك ما ينتهي عنه من الاعمال السيئة، خوفا من عذابه.

الثانية نية من غلب عليه الشوق إلى ما أعد الله للمحسنين في الجنة، من نعيمها وحورها وقصورها، فهو يعبد الله لتحصيل تلك الامور، وهاتان نيتان صحيحتان على الاظهر، وإن توهم الاكثر بطلان العبادة بهما لغفلتم عن معنى النية كما عرفت، والعجب أن العلامة رحمه الله ادعى اتفاق العدلية على أن من فعل فعلا لطلب الثواب أو خوف العقاب، فانه لا يستحق بذلك ثوابا. وأقول: لهاتين النيتين أيضا مراتب شتى بحسب اختلاف أحوال الناس فان من الناس من يطلب الجنة لحصول مشتهياته الجسمانية فيه، ومنهم من يطلبها لكونها دار كرامة الله ومحل قرب الله، وكذا منهم من يهرب من النار لالمها ومنهم من يهرب منها لكونها دار البعد والهجران والحرمان ومحل سخط الله كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في الدعاء الذي علمه كميل بن زياد النخعي:

«فلئن صيرتني في العقوبات مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أهل بلائك، وفرقت بيني وبين أحبائك وأوليائك، فهبني يا إلهي وسيدي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك؟ وهبني صبرت على حر نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟»[1]

إلى آخر ما ذكر في هذا الدعاء المشتمل على جميع منازل المحبين، ودرجات العارفين، فظهر أن هاتين الغايتين وطلبهما لا تنافيان درجات المقربين.

يقول «فيض» الكاشاني ذلك الوله الثمل:

لا استطيع العيش دون خيالك دون جمالك لا استطيع العيش
ظمآن خمره وصالك دون وصالك لا استطيع العيش
دون جمالك لا قرار لي مع جمالك لا استطيع العيش

١- مفاتيح الجنان: دعاء كميل.

كل ما تفعله بالعبد حسن دون فعالك لا استطيع العيش
من ذلك الغم مرّ ومالح وحلو دون مقالك لا أستطيع العيش
أريد من شفتك ماء الحياء دون زلالك لا أستطيع العيش
أحل إليّ شربة من شفتك دون نوالك لا أستطيع العيش
ليس محل تجوالك ساحة القلب دون مجالك لا أستطيع العيش
شدّ قدم القلب بطرّتك دون عقالك لا أستطيع العيش
غم عشقه كما لك يا «فيض» دون كمالك لا أستطيع العيش[1]

الثالثة: نية من يعبد الله تعالى شكرا له، فانه يتفكر في نعم الله التي لا تحصى عليه فيحكم عقله بأن شكر المنعم واجب، فيعبده لذلك كما هو طريقة المتكلمين وقد قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار[2].

الرابعة: نية من يعبده حياء فانه يحكم عقله بحسن الحسنات وقبح السيئات ويتذكر أن الرب الجليل مطلع عليه في جميع أحواله، فيعبده ويترك معاصيه لذلك، وإليه يشير قول النبي صلى الله عليه وآله:

«الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك»[3].

الخامسة: نية من يعبده تقربا إليه تعالى تشبيها للقرب المعنوي بالقرب المكاني،

١- فيض الكاشاني.

٢- نهج البلاغة: الحكمة ٢٣٧.

٣- بحار الأنوار: ١٩٦/٦٧، باب ٥٣.

وهذا هو الذي ذكره أكثر الفقهاء، ولم أر في كلامهم تحقيق القرب المعنوي، فالمراد إما القرب بحسب الدرجة والكمال، إذ العبد لمكانه في غاية النقص، عار عن جميع الكمالات، والرب سبحانه متصف بجميع الصفات الكمالية فبينهما غاية البعد، فكلما رفع عن نفسه شيئا من النقائص، واتصف بشئ من الكمالات، حصل له قرب ما بذلك الجناب، أو القرب بحسب التذكر والمصاحبة المعنوية، فان من كان دائما في ذكر أحد ومشغولا بخدماته فكأنه معه، وإن كان بينهما غاية البعد بحسب المكان، وفي قوة هذه النية إيقاع الفعل امتثالا لامره تعالى أو موافقة لارادته أو انقيادا وإجابة لدعوته أو ابتغاء لمرضاته. فهذه النيات التي ذكرها أكثر الاصحاب وقالوا: لو قصد الله مجردا عن جميع ذلك كان مجزيا، فانه تعالى غاية كل مقصد، وإن كان يرجع إلى بعض الامور السالفة.

السادسة: نية من عبد الله لكونه أهلا للعبادة، وهذه النية الصديقين، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

«ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك»[1].

ولا تسمع هذه الدعوى من غيرهم، وإنما يقبل ممن يعلم منه أنه لو لم يكن لله جنة ولا نار، بل لو كان على الفرض المحال يدخل العاصي الجنة والمطيع النار، لاختار العبادة لكونه تعالى أهلا لها، كما أنهم في الدنيا اختاروا النار لذلك، فجعلها الله عليهم بردا وسلاما، وعقوبة الاشرار فجعلها الله عندهم لذة وراحة ونعيما.

السابعة: نية من عبد الله حبا له ودرجة المحبة أعلى درجات المقربين، والمحب يختار رضا محبوبه، ولا ينظر إلى ثواب ولا يحذر من عقاب، وحبه تعالى إذا استولى على القلب يطهره عن حب ما سواه، ولا يختار في شئ من الامور إلا رضا مولاه.

١- بحار الأنوار: ١٨٦/٦٧، باب ٥٣.

يقول الفيض الكاشاني ذلك العشق اليقظ وذلك الهائم البصير:

يا إلهي لا تشف هذا الألم ... لا تبعثر أمر العشّاق

ألم عشقك دواء روحنا ... لا تداو ألمنا بغير ألمنا لك

جدّد روحنا بالغمّ لك ... لا تسرّ قلوبنا بغير الغم

النية الطاهرة في مرآة فضل الحق:

يريد الدين الإسلامي المنزه أن يطهر الإنسان كل نواياه ويجعلها لله. يريد الإسلام أن يجعل الإنسان نيّته لله في كل برامجه سواء البرامج المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية، الفردية والاجتماعية وحتى فيما يخص النوم والمآكل، وحتى بشأن تأدية كل الحسنات والخيرات أن ينويها لله، حتى لو لم يوفّق لا نجازها عملياً.

ورد في روايات كثيرة أنه تعالى من باب فضله وإحسانه يعطي الأجر والثواب على نية فعل الخير حتى لو لم يوفّق صاحب النية وإلى آخر عمره، إلى إتيان ذلك. ولو نوى شخص والعياذ بالله شراً، فما لم تتحقق عملياً فإن الله تعالى لا يعاقب العبد بمجرد تلك النية.

عَنْ أبی عَبْدِ اللّهِ عليه السلام قالَ: «إنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقیرِ لَيَقُولُ: يا رَبِّ ارْزُقْنی حَتّی اَفْعَلَ كَذا وَكَذا مِنَ الْبِرِّ وَوُجُوهِ الْخَيْرِ فَإذا عَلِمَ اللّهُ ذلِكَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِيَّةٍ كَتَبَ اللّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ ما يَكْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ إنَّ اللّهَ واسِعٌ كَريمٌ»[1].

١- الكافي: ص٢، ص٨٥، باب النية، الحديث ٣، وسائل الشيعة: ج١، ص٤٩، باب استحباب نية الخير، الحديث ٩٣.

وقال عليه السلام: «الناس أربعة: رجل آتاه اللّه تعالى علما و مالا فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني اللّه تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء و رجل آتاه اللّه تعالى مالا و لم يؤته علما و هو يتخبّط بجهله في ماله فيقول رجل: لو آتاني اللّه مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء»[١].

وقال عليه السلام: «إذا التقى الصفّان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدّنيا، فلان يقاتل للحمية، فلان يقاتل للعصبيّة ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل اللّه فمن قاتل ليكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه»[٢].

وقال عليه السلام: «من تطيّب للّه تعالى جاء يوم القيامة و ريحه أطيب من المسك الأذفر، و من تطيّب لغير اللّه جاء يوم القيامة و ريحه أنتن من الجيفة»[٣].

و روي في الإسرائيليّات أنّ رجلا مرّ بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه:

لو كان هذا الرّمل طعاما لقسّمته بين الناس فأوحى اللّه تعالى إلى نبيّهم أن قل له: إنّ اللّه قد قبل صدقتك و شكر حسن نيّتك و أعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدّقت به وقد ورد في أخبار كثيرة «**من همّ بحسنة و لم يعملها كتبت له حسنة**»[٤].

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام:

«إِنَّما خُلِّدَ أَهْلُ النَّارِ فِى النَّارِ لِأَنَّ نِيّاتِهِمْ كانَتْ فِى الدُّنيا أَنْ لَوْ خُلِّدُوا فيها أَنْ يَعْصُوَ اللّهَ تَعالى أَبَدا وَإِنَّما خُلِّدَ أَهْلُ الجَنَّةِ فِى

١- المحجة البيضاء: ١٠٣/٨، كتاب النية والصدق والإخلاص.

٢- المحجة البيضاء: ١٠٥/٨، كتاب النية والصدق والإخلاص.

٣- المحجة البيضاء: ١٠٥/٨، كتاب النية والصدق والإخلاص.

٤- المحجة البيضاء: ١٠٤/٨، كتاب النية والصدق والإخلاص.

الجَنَّةِ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كانَتْ فِي الدُّنيا أَنْ لَوْ بَقَوْا فيها أَنْ يُطيعُوا اللّهَ أَبَدا فَبالنِّيّاتِ خُلِّدَ هؤلاء وَهؤلاء ثُمَّ تَلا قَوْلَهُ تَعالى: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ»[1]، قالَ: «يَعْنى عَلى نِيَّتِه»[2].

عَنْ أَحَدِهِماعليهما السلام قالَ: «إِنَّ اللّهَ تَبارَكَ وَتَعالى جَعَلَ لِآدَمَ فى ذُرِّيَّتِهِ أَنَّ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَعَمِلَها كُتِبَتْ لَهُ عَشْرا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ وَمَنْ هَمَّ بِها وَعَمِلَها كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَة»[3].

عَنْ أَبى الحسن مُوسى عليه السلام ـ فى حَديثٍ ـ أَنَّهُ قالَ:

«رَحِمَ اللّهُ فُلانا، يا عَلِيُّ، لَمْ تَشْهَدْ جِنازَتَهُ؟ قُلْتُ: لا، قَدْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ أَشْهَدَ جِنازَةَ مِثْلِهِ فَقالَ: قَدْ كُتِبَ لَكَ ثَوابُ ذلِكَ بِما نَوَيْتَ»[4].

سأل عبد الله بن موسى بن جعفر أباه عليه السلام: «عن الملكين هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله أو الحسنة؟»، فقال: «ريح الكنيف وريح الطيب سواء؟»، قلت: «لا»، قال: «إنّ العبد إذا همّ بالحسنة خرج نفسه طيّب الريح، فقال صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنه قد همّ بالحسنة فإذا فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده فأثبتها له وإذا

١- الإسراء ١٧: ٨٤

٢- الكافي: ج٢، ص٨٥، باب النية، الحديث ٥؛ المحاسن: ج٢، ص٣٣٠، كتاب العلل، الحديث ٩٤.

٣- وسائل الشيعة: ج١، ص٥١، الباب ٦، الحديث ٩٨؛ بحار الأنوار: ج٦٨، ص٥٢، الباب ٧١.

٤- وسائل الشيعة: ج١، ص٥٢، باب استحباب نية الخير، الحديث ١٠١.

همّ بالسيئة خرج نفسه منتن الريح فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين: قف فإنه قد همّ بالسيئة فإذا فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده وأثبتها عليه»[١].

عن ابي الحسن الرضا عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة اوقف المؤمن بين يديه فيكون هو الذي يتولى حسابه فيعرض عليه عمله فينظر في صحيفته، فأول ما يرى سيئاته فيتغير لذلك لونه وترتعش فرائصه وتفزع نفسه، ثم يرى حسناته فتقر عينه وتسر نفسه وتفرح روحه، ثم ينظر إلى ما أعطاه الله من الثواب فيشتد فرحه ثم يقول الله للملائكة هلموا الصحف التي فيها الاعمال التي لم يعملوها، قال: فيقرؤنها ثم يقولون وعزتك انك لتعلم أنا لم نعمل منها شيئا، فيقول :«صدقتم نويتموها فكتبناها لكم ثم يثابون عليها»[٢].

كما قال الإمام الرضا عليه السلام: «لريان بن شبيب أنّه إن أحبّ أن يشارك شهداء كربلاء في ثوابهم فاليقل: «يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً»[٣].

يقول جابر مخاطباً شهداء كربلاء في زيارته للحسين عليه السلام يوم الأربعين:

السلام عليكم أيّتها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين ، وأناخت برحله ، وأشهد أنكم أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأمرتم بالمعروف ، ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين ، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين ، والذي بعث محمداً بالحقّ نبياً لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه قال عطية: فقلت له: يا جابر ، كيف ولم نهبط وادياً ولم نعلُ جبلا ولم نضرب بسيف ، والقوم قد فُرِّق بين رؤوسهم وأبدانهم ، وأوتمت أولادهم ، وأرملت أزواجهم؟ فقال لي: يا عطية ، سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله

١- الكافي: ج٢، ص٤٢٩، باب من يهم بالحسنة أو السيئة، الحديث ٣؛ بحار الأنوار: ج٥، ص٣٢٥، الباب ٨، الحديث ١٦.

٢- تفسير القمي: ج١، ص٤١٦، الآية «قل كل يعمل على شاكلته»، الإسراء: ٨٤.

٣- أمالي الصدوق: ١٩٣.

يقول: من أحبَّ قوماً حُشر معهم، ومن أحبَّ عمل قوم أشرك في عملهم، والذي بعث محمداً بالحق نبياً، إن نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين عليه السلام وأصحابه[1].

يقول الإمام زين العابدين في الدعاء السابع والأربعين من الصحيفة:

«وأعنّي على صالح النية ومرضي القول ومستحسن العمل».

وورد في دعاء مكارم الأخلاق:

«وأنته نيّتي إلى أحسن النيات وبعملي إلى أحسن الأعمال اللهم وفّر بلطفك نيّتي».

يجب على القلب ان يتحلى بهكذا نيات صافية وطاهرة، وحسب الروايات السابقة فإن المرء إن وفق لعملها، فإنه يُكتب له جزيل ثوابها، وإن لم يوفق لإتيانها فإنه سيحظى بعظيم أجرها.

يقول أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله:

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله خطبة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فكان مما ضبطت منها: أيها الناس إن أفضل الناس عبدا من تواضع عن رفعة، وزهد عن رغبة، وأنصف عن قوة، وحلم عن قدرة. ألا وإن أفضل الناس عبد أخذ في الدنيا الكفاف، وصاحب فيها العفاف، وتزود للرحيل، وتأهب للمسير، ألا وإن أعقل الناس عبد عرف ربه فأطاعه، وعرف عدوه فعصاه، وعرف دار إقامته فأصلحها، وعرف سرعة رحيله فتزود لها. ألا وإن خير الزاد ما صحبه التقوى، وخير العمل ما تقدمته النية، وأعلى الناس منزلة عند الله أخوفهم منه[2].

١- زيارة الأربعين.

٢- بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ١٨١، الباب ٧، الحديث ١٥؛ إعلام الدين: ٣٣٧، الحديث ١٥.

المواكبة مع أهل البيت عليهم السلام:

حقاً إنّ رجال درب الحبيب، ليس قلبهم الظاهر غير طهارة النية وحسنها ولتلك النية الحقّة كانت أعمالهم عين طاعة الحق تعالى ومحض الإنقياد للباري عزّ وجل. إنهم على أي حال يتحلّون بالنية الإلهية، إن وفّقوا لتنفيذ ما ينوونه، فيسعملون أفضل ما يمكن وإن لم يتوفروا على تحقق منوياتهم، فقد كسبوا أجر العمل بالنية تلك.

بعد انتصار الإمام علي عليه السلام في حرب الجمل، قال أحد أصحابه: وددت أن أخي كان معنا في هذه المعركة. قال عليه السلام: «هل إن هوى أخيك قلبياً معنا؟» قال: نعم، قال الإمام عليه السلام: «إنه حاضر معنا حقاً وأولئك الذين لا زالوا في أصلاب الرجال وأصلاب الأمهات ولم يولدوا بعد، فهم معنا أيضاً، سيبدي بهم الزمان قريباً، يقوي بهم الإيمان ويهلك بهم الطغاة».

بعد معركة الجمل أو حرب أخرى، بادر الإمام علي عليه السلام إلى تقسيم الغنائم، كلّ من مرّ عليه، أعطاه حفنة دراهم، حينما يعدّ آخذ الغنيمة دراهمه فهي ست مائة درهم، حصل كل المقاتلين على ست مائة درهم وبقي له عليه السلام أيضاً ست مائة درهم. فجأة تأوّه أحد المقاتلين، فاستفسر منه عليه السلام عن شأنه، أجاب: حينما حزمت على الالتحاق بكم. ذهبت إلى أخي، وجدته سقيماً، سمعته قال حين ودّعته: ليتني كنت معافى، كي أقاتل مع علي عليه السلام أعداء الحق. بادر عليٌّ عليه السلام فوراً إلى إعطاءه الست مائة درهماً قائلاً له: لما تلقى أخاك أعطه هذه الست مائة درهماً وقل له لأجل نيتك فكأنك قد كنت معنا حقاً وهذا سهمك.

ينقل معلم الأخلاق، الشهيد دستغيب في أحد كتبه، عن الجزء الثالث عشر من «بحار الأنوار» وهو عن كتاب «كشف الغمة» للأربلي، فيقول:

جئت إلى حضرة الوالد يوماً من الأيام، وكان عنده رجل قد استراح ونام لتوه. كانت عمامته قد سقطت على الارض وبان محل جرح على رأسه.

فسأل والدي منه علة ذلك الجرح، فقال: قد جرحت هذا الجرح في معركة صفين!!. فقيل له: اين انت من معركة صفين!!

فقال: عندما ذهبت إلى مصر، رافقني رجل من أهل غزة، وفي أثناء الطريق دار الحديث حول معركة صفين، فقال رفيقي: إن كنت حاضراً في معركة صفين لأشبعت سيفي من دماء علي وأصحابه، فقلت: إن كنت حاضراً في معركة صفين لأشبعت سيفي من دماء معاوية وأصحابه، وها انا وانت من اصحاب علي ومعاوية اللعين، تعال كي نتبارز، فتصارعنا مدة ورأيت أني افقد الوعي اثر خروج الدم الكثير من رأسي، في هذه الاثناء رأيت رجلاً يوقظني برأس رمحه، ففتحت عيني ورأيته قد نزل من جواده ومسح بيده على اثر جرح رأسي، فطاب في الحال وقال لي: ابق هنا ثم توارى في الحال، وبعد مدة ظهر وبيده رأس رفيقي مقطوعاً وقال: هذا رأس عدوك، لقد عاونتنا وها نحن قد أدركناك ومن ينصر الله ينصره، فسألته عن اسمه، فقال: صاحب الأمر عليه السلام ثم أردف قائلاً: كل من سألك عن الجرح فقل له قد جرحت في معركة صفين!!

قال أستاذي الذي كنت اتتلمذ على يديه بعضاً من مكاسب الشيخ الأنصاري وكفاية المحقق الخراساني،: ذهب أحد طلاب العلوم الدينية من إيران إلى سامراء وأقام في إحدى مدارس تلك المدينة وبعد فترة بلغه نبأ وفاة والده، سأل رفاق المدرسة: من هو الرجل الإلهي في هذه المدرسة؟ فقالوا له: ذلك الرجل الذي يأخذ الآن الماء من الحوض هو الرجل الإلهي. جاءه وكان الرجل مشتغلاً بملأ الإبريق. فقال له: توفّي أبي، ألتمسكم أن تدعوا الله له لطلب المغفرة؛ قال ذلك الرجل الإلهي: لست على وضوء، لكني سأنوي لله هذا الذهاب إلى المستراح وما أخطوه في ذلك وأهدي ثوابه إلى أبيك!!

تألّم كثيراً ذلك الطالب، لكنه رأي أباه في تلك الليلة في الرؤيا، يقول له: بني! ببركة ما خطاه الرجل الإلهي ذاك لله في طريقه إلى المستراح، فإني انتفعت بثواب تلك الخطوات في عالم البرزخ.

حقيقة النية:

حينما يتحلّى الإنسان بمعونة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وعلوّ همة العشاق وإرشاد شيوخ الدرب، بنور المعرفة ليستفيد من ذلك النور حقيقة أن لا حول ولا قوة إلا لله وأن ليس ثمة في كل الكون مؤثر إلا هو تعالى ولا مالك ولا رازق أو عالم أو قادر أو مراد غيره وانكشف لديه معنى أن «**ليس في الدار غيره ديّار**» سيقطع علاقة بما سوى الله ولا يبقى له سوى اسم وذكر الرفيق ولا يرى كل ما في العالم من أشياء سوى أنها أدوات ووسائل للوصول إلى الرفيق ويتساوى لديه وجود وعدم الأشياء، حينئذٍ يرى قلبه مرآة تجلّي عشق الحبيب و وجوده ظرف انعكاس صفات الرفيق.

يلاحظ عندئذٍ أن كل طلباته وإراداته وتدابيره، أصبحت طلبة وإرادة وتدبير الحبيب وإنّما بأمل الإنسان أن يستجلب رضى الرفيق في كل شؤون الحياة، رضى الرفيق وهذا الودّ الذي استحصله بالمعرفة بحضرة الحبيب حقيقة النية وروح الإرادة والقصد. بهذه النية تتحقق العبادة بمفهومها الواقعي وفي ضوء هذه النية وهذا العشق، يعشق الرفيق الإنسان ويتحقق بين العاشق والمعشوق تجارب بحيث لو أراد جميع كائنات العالم صد العاشق عن الحركة نحو المعشوق، لن يتمكنوا.

النية، إذ كانت غير ذلك، فأي ثمن لها وأي تحرك بإمكانها إحداثه داخل وخارج الإنسان وكيف يمكنها إيصال الآدمي من حضيض الصفة إلى ذروة الواقعية وقمة الحقيقة؟

هل عدا هكذا نية، يمكن تسمية سائر خطورات القلب نية؟ هل بغير النية هذه، يمكن السير نحو المعشوق الرفيع الدرجات، بدون نية رفيعة، لا تشكوا في عدم إمكان الوصول إلى رفيع الدرجات!!

بقول عطاء ذلك المنبهر بدرب الحبيب:

المركب أعـرج والفريـق بعيـد	ماذا أفعل مع القلب وهو لا صبر له
قطعـي لهـذا الطريـق خيـال	واتخاذي هذه الطريقـة غـرور
لـو أسـير مائـة قـرن كـالريح	كان ذلك كالريح إذ الرفيق بعيد
مـع ذلـك كلـه لـو اسـترحت	بدونه فكل ذلك فسق أو فجـور
تعلـم مـا هـو سـر الكفـر	حينمـا لا يكـون الحضـور
لا تتـنفس بدونـه إذ فجـأة	يضربك بسيفه فهو جد غيـور
تعـدّ الرجـاء والخـوف إذ هنـا	أي محل للخيال والنار والنـور

حضور القلب:

هذا الحضور القلبي الذي ينبغي تحلّي الإنسان به في كل العبادات ولعله لم يؤتى في المسائل العبادية بشيء، كما أوصي به، لهو مرتبط بوضع النية وكيفية قصد وعزم الإنسان.

لم يريدوا منا أن نحضر في العبادة مجرد البدن، أي قدر لمجرد حضور البدن؟ لو اقتصر الحضور على البدن، وغاب القلب والروح، فذلك النفاق ذاته.

مثل أن يحضر شخص لدى عظيم ويمدحه، بينما قلبه لم يشهد الامتداح والحمد، يمدح ذلك العظيم لسانه ويغفل عنه تماماً بقلبه وفؤاده!!

انظروا الآن! فلو وقف الإنسان أمام مولى عالم بكل شيء، وعليم بذات الصدور، فيمدحه ويمجّده ويحمده، بيد أنّ قلبه في محل آخر، هل أنّ حضور البدن وغيبة القلب مُرضٍ لدى المولى؟!

الأصل حضور القلب بمشعر الحبيب ليس في العبادات فقط بل في جميع أنات الحياة ينبغي المبادرة إلى تصحيح النية؛ فإذا توفرت النية بمعناها الحقيقي، تحققت

مسألة الحضور بتمام الكيان تجاه الحبيب، عندئذٍ يؤدي الإنسان العبادة بأفضل نحو ويكون في غير العبادة أيضاً، متعبّداً.

لو وطأنا عالم المعرفة ذا الصفاء، ننال بعين القلب لقاء جمال الحبيب ونوفق لاحتساء شراب الحياة، العشق. هذا العشق ينطلق من المعرفة مما يجعلنا في العبادة وغير العبادة حاضرين بكل كياننا بمشعر الحبيب، ويحافظنا من ذنب الغيبة الخطر ـ وهو المبرز على الذنوب كلها ـ حقاً كم هي عجيبة المعجزة الناشئة عن العشق المعرفي!!

بقول «الإلهي» ذلك الشيخ البصير القلب:

مرحباً بصفاء عالم العشق — أحسنت لروح إنسان العشق
بارك الله لدفتر التوحيد — مما هو نقش سرّ خاتم العشق
سواء كأس إرادة العالم، الشهود — لا تناله يد أحدٍ إلا بالعشق
لو صارت الروح قدسية، لم يكن — لينجلّى فيها بقلب مريم غير العشق
لن يعطي الحق تعالى الوحوش وذوات الأربع — رتبة الإنسان المكرم، العشق
كل من بات جريح القلب للفراق — يصل بلطف الحق تعالى إلى مرهم العشق[1]

بقول الإمام الخميني رحمه الله بشأن حضور القلب:

العبادات والمناسك والأذكار والأوراد، إنّما تكتمل الثمرة لها حينما تصبح صورة القلب الباطنة ويختمر بها باطن ذات الإنسان ويتشكل قلب الإنسان بصورة العبودية ويخرج عن التلفّت والتمرّد.

وأيضاً إن إحدى أسرار وفوائد العبادات أن تتقوى إرادة النفس وتسيطر النفس على الطبيعة وتكون قوى الطبيعة مسخّرة تحت قدرة وسلطنة النفس وتصبح الإرادة

١- إلهي القمشه أي.

الملكوتية نافذة في ملك البدن، بحيث أن القوى تغدوا كملائكة الله بالنسبة إلى الحق تعالى إذ هم لا يعصونه ولا يتخلّفون عن إرادته لمحة ويمتثلون ما يصد إليهم من أمر.

والآن نقول أن أحد أسرار العبادات وفوائده الهامة التي الجميع كان مقدمة لها، هو أن تصبح كل مملكة الباطن والظاهر مسخرة تحت إرادة الله ومتحركة بتحريك الله وتكون قوى النفس، الملكوتية والملكية من جنود الله فيكون جميعها، نسبة إلى الله تعالى بمنزلة ملائكته تعالى وهذا أحد المراتب النازلة لفناء القوى والإرادات والنية في إرادة الحق تعالى وتتبدّى شيءً فشيئاً النتائج الكبرى لهذه المرحلة ويصبح الإنسان الطبيعي إلهياً وترتاض النفس بعبادة الله وتنكسر جنود إبليس بالمرة وتنقرض ويستسلم القلب وقواه إلى الحق تعالى ويبرز فيه الإسلام ببعض مراتبه الباطنية وكنتيجة أخروية لهذا الاستسلام لإرادة الحق تعالى، أن يجعل الله تعالى إرادته نافذة في عوالم الغيب ويجعله كمثله الأعلى وكما أنّ الذات المقدسة الالوهية كلما أرادت إيجاده أنوجد بمجرد الإرادة، هكذا يجعل إرادة هذا العبد!!

كما روى بعض أهل المعرفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن أهل الجنة، أنّه قال:

يأتيهم ملك، بعد الاستئذان يدخل ويسلّمهم رسالة من الله، بعد أن يبلغهم تحية تعالى وفي تلك الرسالة:

«مِنَ الْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذى لا يَمُوتُ إِلَى الْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذى لا يَمُوتُ أَمَّا بَعدُ فَإِنّى أَقُولُ لِلشَّيئِ كُنْ فَيَكُونُ وَقَدْ جَعَلْتُكَ تَقُولُ لِلشَّئِ كُنْ فَيَكُونُ فَقَالَ صلى الله عليه وآله فَلا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلشَّيْئِ كُنْ إلاّ وَيَكُونُ»[1].

١- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ج٩، ص ١٤٠؛ الفتوحات الملكية: ج٣، ص٢٩٥.

وهذه سلطنة الهية توهب للعبد، لماذا؟ لأن العبد ترك إرادته الذاتية وترك تسلّك الأهواء النفسانية وطاعة إبليس وجنوده ولا يحصل أي من هذه النتائج المذكورة إلا بكمال حضور القلب ولو كان القلب حين العبادة غافلاً ساهيا، لم تكن لعبادته حقيقة، وكانت شبه اللهو واللعب.

وطبعاً ليس لهكذا عبادة أي تأثير في النفس مطلقاً ولا ترتفع العبادة عن الصورة والظاهر إلى الباطن والملكوت، كما أشير إلى ذلك في الأخبار ولن تستسلم قوى النفس بهكذا عبادة للنفس ولا تبرز سلطنة النفس على تلك القوى كذلك لن تستسلم القوى الظاهرة والباطنة إلى إرادة الحق تعالى ولا ينقهر مملكة وجود الإنسان تحت كبرياء الإله تعالى!!

لذا فإنكم ترون أن ليس فينا أثر بعد أربعين أو خمسين عاماً من العبادة بل ويزداد القلب ظلمة يوماً بعد آخر ويتصاعد عصيان القوى ويتكاثر آناً فآناً شوقنا إلى الطبيعة وطاعتنا للأهواء النفسانية والوسواس الشيطانية؛ هذه ليست سوى أنّ عباداتنا بغير مغزى ولا تتفعل شرائطها الباطنية وآدابها القلبية وإلا فوفق نص الآية المباركة الإلهية فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وطبعاً ليس هذا النهي نهياً صورياً ظاهرياً، لابدّ أن يستنير في القلب مصباح وينير في الباطن فيهدي الإنسان إلى عالم الغيب ويحصل الزاجر الإلهي الذي يصّد الآدمي عن العصيان والتمرد.

نعدّ أنفسنا من المصلّين ونحن مشتغلون لسنين متطاولة بممارسة هذه العبادة الكبرى ولم نر في أنفسنا هكذا نوراً ولم يبرز لدينا هكذا زاجر وصادّ باطني، فالويل لنا في يوم تسلّم إلينا صور أعمالنا وصحيفة أفعالنا في العالم الآخر، ويقال لنا: أنت حاسب نفسك وانظر أن هكذا أعمال هل هي مما يقبل بالمحضر الألوهي وهل هكذا صلاة مع هذه الصورة الظلمانية مقربة من بساط المحضر الكبريائي؟! هل هكذا

ينبغي السلوك مع هذه الأمانة الإلهية ووصية الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والسماح هكذا ليد تطاول خيانة الشيطان الرجيم عدو الله؟

وهل الصلاة التي هي معراج المؤمن وقربان المتقين، لماذا تصبح نافية لنا عن ساحة قدسه وتبعدنا عن عتبة قربه؟!

هل يومئذٍ لنا نصيباً سوى الحسرة والندامة والبؤس والمسكنة حسرة لا يمكن تصورها في الحياة ومما لا نتصور له نظيراً.

فمهما كانت حسرات هذا العالم، فهي مشوبة بآلاف الآمال، و خجل هذا العالم سريعة الزوال، خلافاً لما هنالك حيث يوماً فيوماً ليس إلا الحسرة والندامة، كما يقول المولى تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾[1].

لا مجال هناك للتعويض عن الماضي ولا نستطيع إعادة ما مضى من عمر.

عزيزي! اليوم يوم الإمهال والعمل، جاء الأنبياء عليهم السلام وجاءوا معهم بالكتب وقاموا بالدعوات، مع كل تلك الجهود وكل ما تكبدوه من مشاق وأتعاب، كل ذلك ليوقظنا من نوم الغفلة ويوعونا من سكر الطبيعة ويوصلونا إلى عالم النور ونشأة البهجة والسرور ويواصلوننا بحياة الأبد وتنعّم السرمد بلذائذ الخلود وينقذونا من الهلكة والشقاء والنار والظلمة والحسرة والندامة. كل هذه من أجلنا، تلك الذوات المقدسة لم تكن بحاجة إلى إيماننا وأعمالنا مع ذلك لم نتأثر، والشيطان أخذ بمسامعنا وتسلّط على باطلنا وظاهرنا بنحو لم يعد أي تأثير لمواعظهم فينا، بل لا تصل أي من الآيات والروايات إلى أُذن قلبنا ولا تتعدى ظاهر الأذن الحيوانية. ارحم حالك واخرج من عمرك بنتيجة؛ دقق في حال الأنبياء والأولياء عليهم السلام وأدر ظهرك للمشتهيات الكاذبة

١- مريم ١٩: ٣٩.

والمواعيد الشيطانية؛ لا يغرّك الشيطان ولا تتورط في حبال النفس الأمارة بالسوء، فإنه ليس هؤلاء غاية في الدقة ويبدون للإنسان كل باطل في صورة الحق، فيغروا الإنسان.

حيناً يشقون الآدمي بأمل التوبة في آخر العمر، مع أن التوبة آخر العمر وفي تراكم ظلمات المعاصي وكثرة مظالم العباد وحقوق الله، أمر صعب جداً ومتعسّر. اليوم حيث قوة إرادة الإنسان تماثل قوى الشباب ولم تتمتن شجرة المعصية ولم تستحكم بعد سلطنة الشيطان في النفس، والنفس حديثة العهد بالملكوت وقريبة الأفق بفطرة الله وشرائط الحصول والقبول متيسّرة، فإنهم لا يدعون الإنسان يبادر إلى التوبة فيقلع هذه الشجرة الضعيفة وليقرض السلطنة اللامستقلة، يعدون أيام الشيخوخة التي وعلى خلاف عهد الشباب، وقت ضعف الإرادة وعجز القوى وقدمة وقوة شجرة أنحاء المعاصي وحيث استقلت واستقرت سلطنة إبليس في الظاهر والباطن وكانت الألفة بالطبيعة شديدة والبعد عن الملكوت كبيراً ونور الفطرة منطفئاً وقد تعسّرت واستندت شرائط النبوية.

ليس هذا سوى الغرور وحيناً آخر يبعدون الإنسان بوعد شفاعة الشافعين عن ساحة قدسهم ويتأدون به إلى النأي عن منال شفاعتهم؛ إذ الانغمار في الذنوب يوجب اسوداد القلب تدريجياً وأن يصبح منكوساً والتأدي بالإنسان مآلاً إلى عاقبة السوء. طلب الشيطان ومطمعه هو أن يسرق إيمان الإنسان، إذن فهو يجعل ارتكاب الذنوب مقدمة ذلك، وصولاً إلى المطلوب.

إن كان الإنسان يأمل في الشفاعة، فعليه في هذا العالم أن يحافظ على علاقة بشفعائه ويفكر قدراً ما في وضع شفعاء المحشر، ان وضعهم إلى أين بلغ في العبادة والارتياض، لنفرض أنا خرجنا من الدنيا بإيمان، لكن كان حمل الذنوب والمظالم ثقيلاً، فمن الممكن أن لا تنالنا الشفاعة في البرزخ والقبر!

لا تقاس عذابات البرزخ بعذابات ما هنا ولا يعلم طول مدة البرزخ غير الله تعالى؛ قد يطول ملايين السنين ومن الممكن أيضاً أنه في القيامة أيضاً لا تنالنا الشفاعة إلا بعد فترات طويلة وبعد شتى عذابات مضنية، كما أشير إلى هذه الحقيقة في الروايات.

غرور الشيطان، هو من يصد الإنسان عن العمل، ويخرجه عن الدنيا بلا إيمان، أو محّملاً بالأثقال ويورده الشقاء والبؤس.

و ربما يعده رحمة أرحم الراحمين الواسعة، فيحرم الإنسان من الرحمة الإلهية، غافلاً أن بعث الرسل وإرسال الكتب وإنزال الملائكة والوحي والإلهام والأنبياء والإرشاد إلى سبيل الحق هو من رحمة أرحم الراحمين، قد أحاطت العالم رحمة الحق تعالى الواسعة ونحن نهلك عطاشى على حافة عين الحياة.

القرآن الكريم أكبر رحمة إلهية، إن كنت تطمع في رحمة أرحم الراحمين وتأمل الرحمة الواسعة، فأستفد من هذه الرحمة إذ الحق تعالى قد فتح سبيل الوصول إلى السعادة وميّز لنا البئر عن الدرب السالك، أنت نفسك تقع في البئر وتنحرف عن الصراط، أي نقص في الرحمة؟ إن كان ممكناً بيان طريق الخير والسعادة للناس بنحو آخر، كانوا قد أروهم وإن كان ممكناً الإيصال إلى السعادة بالإجبار، كانوا أوصلوهم، لكن هيهات إذ طريق الآخرة طريق ليس في الإمكان سلوكه إلا بقدم الاختيار، لا تحصل السعادة بالقهر، ليست الفضيلة والعمل الصالح، فضيلة وعملاً صالحاً إن كان بدون اختيار، ولعل ذلك هو معنى الآية الشريفة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِى الدّين﴾[1].

ينقل الشيخ الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«يَابْنَ آدَمُ تَفَرَّغْ لِعِبادَتى أَمْلَأْ قَلْبَكَ غِنا»[2].

١- البقرة ٢: ٢٥٦.

٢- الكافي: ج٢، ص٨٣، باب العبادةأ الحديث ١، بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٥٢، الباب ٥٥، الحديث ٨.

اعلم أن التفرّغ للعبادة يحصل بفراغ الوقت والقلب وذلك من الأمور الهامة، في باب العبادات حيث لا يتحقق حضور القلب بدونه ولن تكون العبادة مقبولة في الحضرة الإلهية دون حضور القلب، كما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام.

والعلاج الوحيد لكسب حضور القلب أمران: أحدهما الفراغ في الوقت والقلب والآخر إفهام القلب أهمية العبادة.

المراد من فراغ الوقت أن يعيّن الإنسان في كل يوم وقتاً يلزم فيه نفسه بالعبادة ولا يشتغل حينئذٍ بأمر آخر.

إن أدرك الإنسان أهمية وعظم أهمية العبادة، فطبيعي أنه سيحافظ على وقتها وبعين لها فرصة زمنية، كما يخصّص وقتاً لكسب المال والمنال وباقي برامجه، سيخصّص أيضاً وقتاً للعبادة، يكون حينئذٍ متفرغاً لها عما سواها، كي يتيسّر له حضور القلب وهو مغزى ولبّ العبادة، لكن لو أقام الصلاة بتكلّف، ورأي القيام بالعبودية للمعبود من الأمور الزائدة، فطبيعي أنه سيؤخّر ذلك إلى آخر الوقت ولدى إتيانها أيضاً ولأجل ما يظنّه من مزاحمة مشاغل هامة له، فإنه يؤديها لا كما ينبغي، طبعاً فلا نورانية لهكذا عبادة وبل هي مغضوبة لله وهكذا شخص مستخف بالصلاة ومتهاون بشأنها.

عَنْ أَبى جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «لا تَتَهاوَنْ بِصَلاتِكَ فَإِنَّ النَّبِىَّ صلى الله عليه وآله قَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ لَيْسَ مِنّى مَنِ اسْتَخَفَّ بِصَلاتِهِ لَيْسَ مِنّى مَنْ شَرِبَ مُسْكِرا لا يَرِدُ عَلَىَّ الْحَوْضَ لا وَاللّهِ»[1].

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَوَّل عليه السلام: «لَمَّا حَضَرَ أَبى الْوَفاةُ قَالَ لِى: يَا بُنَىَّ لا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مَنِ اسْتَخَفَّ بِالصَلاة»[2].

١- الكافي: ج٣، ص٢٦٩، باب من حافظ على صلاته، الحديث ٧؛ وسائل الشيعة: ج٤، ص٢٣، الباب ٦، الحديث ٤٤١٣.

٢- الكافي: ج٣، ص٢٧٠، باب من حافظ على صلاته، الحديث ١٥؛ بحار الأنوار: ج٤٧، ص٧، الباب ١، الحديث ٢٣.

الله وحده يعلم كم هي مصيبة عظمى الانقطاع عن الرسول الأكرم ﷺ والخروج عن تحت حمايته وان الحرمان من شفاعة ذلك المولى وأهل بيته الأبرار أيّ خذلان كبير! لا تظنّ أنه بدون شفاعة أولئك السادة وفضلهم يستطيع أحد مشاهدة رحمة الحق تعالى وجنة الوعد.

أنظر الآن هل أن تقديم أي أمر جزئي على الصلاة ـ التي هي قرّة عين الرسول ﷺ وأكبر وسيلة لرحمة الحق تعالى ـ والإهمال بشأنها وتأخير وقتها دون عذر وعدم حفظ حدودها، هل هو استخفاف أو لا؟! إن كان كذلك اعلم أنّك وبشهادة رسول الله ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام فهو خارج من ولايتهم ولا ينال شفاعتهم.

إن كنت بحاجة إلى شفاعتهم وترغب أن تكون من أمة رسول الله ﷺ، فأكبر هذه الوديعة الإلهية واهتم بها؛ إن الله تعالى وأولياءه في غنىً عن عملي أنا وأنت واعلم أنك إن لم تهتم بالعبادة، فيخشى أن يتأدى بك الأمر إلى تركها ويتفاقم الترك إلى الجحود، فيختم عليك ويكون نصيبك شقاء الأبد وهلاك الخلد.

إن من فراغ الوقت هو تفرغ القلب؛ بل إن فراغ الوقت مقدمة لهذا التفرّغ وذلك في الحقيقة بحيث أنّ الإنسان حين الاشتغال بالعبادة، يفرّغ قلبه من مشاغل الدنيا وهمومها ويصرف القلب عمّا يتشتّت به من أمور وخواطر ويخلي قلبه تماماً ويخلصه للتوجه في العبادات والمناجاة مع الحق تعالى وما لم يتوفّر تفرّغ القلب عن الأمور تلك فلن يكون التفرّغ له تعالى ولعبادته.

لكن المأساة أننا نذخر كل الأفكار والخواطر لوقت العبادة، ما إن نكبّر تكبيرة الإحرام، فكأنّنا قد فتحنا باب الحانوت، أو أبرزنا سجلّ الحسابات، أو ورّقنا كتاب المطالعة، نرسل القلب نحو الاشتغال بالأمور الأخرى غافلين بالكل عن أصل العمل، حسب العادة إنّما نشعر بنفسنا وقد بلغنا تسليم الصلاة، هذه العبادة فضيحة حقاً وهذه المناجاة مدعاة للاستحياء.

عزيزي: لا تعدّ مناجاة الحق مثل تكليم أحد العباد الضئيلين، ما السبب أنك حين تحدّث أحد الأصدقاء أو الأجانب، تغفل عن الغير ما دمت تكلّمه، وتنشغل به بكل انتباهك بينما لدى تكليمك ومناجاتك وليّ النّعم ورب العالمين فأنت منصرف عنه كلياً مغفل إياه، متوجه لسائر الأمور؟! هل إنّ منزلة العباد أكبر من الذات الإلوهية المقدسة أو أن قيمة تكليم أولئك تكبر مناجاة قاضي الحاجات؟

نعم، أنا وأنت لا نعرف حقيقة مناجاة الحق؛ نرى الواجبات الإلهية تحميلاً على الأمور، وما كان مفروضاً وتحميلاً وكَلّاً على الحياة فلا أهمية له؛ ينبغي إصلاح المنبع والإيمان بالله وأقوال الأنبياءﷺ كي يصلح الأمر، كل المآسي من ضعف الإيمان وخور اليقين.

إيمان السيد ابن طاووس يبلغ حدّ أن يتخذ أوّل يوم تكلّفه «الشرعي» عيداً، إذ قد أذن له الحق تعالى ولوج مناجاته وخلع عليه خلعة التكليف. تصوّر حقيقةً أي قلب هذا، الذي يمتاز بالنورانية والصفاء إلى هذا الحد.

إن لم يكن عمل هذا السيد الجليل لديك حجة، فإنّ عمل سيد الموحّدين وأولاده المعصومين حجة عليك أليس كذلك؟ أنظر في حالات أولئك السادة وكيفية عبادتهم ومناجاتهم، بعضهم كان يتغير لونه حين الصلاة ويرتجف كيانهم، لخوف الزلل لدى الائتمار لله، مع أنهم معصومين بكل معنى الكلمة.

على أي حال، فإن فراغ القلب من غير الحق تعالى يعتبر من الأمور الهامة التي على الإنسان أن يكتسبها وطريق تحصيلها أيضاً ممكن وسهل بشيء من المراقبة والمراعاة، على الإنسان أن يأخذ فترة بزمام طائر الخيال ويحفظه كلّما أراد القفز من غصن إلى آخر، بعد فترة من المراقبة، سينقاد ويستقر، وينصرف انتباهه عن الأمور المتشتتة ويعتاد الخير والصلاح وينشغل بفراغ بالٍ بالتوجه إلى الحق تعالى والعبادة. حضور القلب روح وحقيقة العبادة وبدونه لا قيمة إطلاقاً للعبادات وان قبول العبادات لدى الله

تعالى يرتبط بحضور القلب.

عَنْ أبى جَعْفَر وَأبى عَبْدِ اللّهِ ﷺ: «أَنَّهُما قالا إنَّما لَكَ مِنْ صَلاتِكَ ما أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ مِنْها فَإنْ أَوْهَمَها كُلَّها أَوْ غَفَلَ عَنْ آدابها لُفَّتْ فَضُرِبَ بها وَجْهُ صاحِبِها»[1].

يقول ابو حمزة الثمالي:

كان علي ابن الحسين عليه السلام يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، كما كان يفعل أمير المؤمنين عليه السلام كانت له خمسمائة نخلة، فكان يصلي عند كل نخلة ركعتين، وكان إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر، وكان قيامه في صلاته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله عز وجل، وكان يصلي صلاة مودع يرى أنه لا يصلي بعدها أبدا، ولقد صلى ذات يوم فسقط الرداء عن أحد منكبيه فلم يسوه حتى فرغ من صلاته، فسأله بعض أصحابه عن ذلك، فقال: ويحك أتدري بين يدي من كنت؟ إن العبد لا تقبل من صلاته إلا ما أقبل عليه منها بقلبه، فقال الرجل: هلكنا، فقال: كلا إن الله عزوجل متمم ذلك بالنوافل.[2]

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ عليه السلام: «لا يَقُومَنَّ أَحَدُكُمْ فِى الصَّلاةِ مُتَكاسِلاً وَلا ناعِسا وَلا يُفَكِّرْنَ فى نَفْسِهِ فَإنَّهُ بَيْنَ يَدَىْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ إنَّما لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ ما أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْها بِقَلْبِه»[3].

يا ليتنا كنا أولاً نعرف قدر أنفسنا وندرك أننا من أين وفي أين وإلى أين نحن ذاهبون ولمن نحن، ثم كنّا نعرف قدر العبادات والمناجاة، فنتحرّر من كل قيد لنتقيد بعشق الحق تعالى.

١- الكافي: ج٣، ص٣٦٣، باب ما يقبل من صلاة الساهي، الحديث ٤؛ وسائل الشيعة: ج٥، ص٤٧٦، الباب ٣، الحديث ١٧٠٤.

٢- بحار الانوار: ٦١/٤٦.

٣- الخصال: ج٢، ٦١٢، الحديث ١٠، وسائل الشيعة: ج٥، ص٤٧٧، الباب ٣، الحديث ٧١٠٧.

ليتنا كنا نكفّ عن هذه الظواهر ونبرم مع الحبيب، من جديد عهد يوم «ألست»، ننفلت من إطار المادية الضيق هذا، فنحلّق في لا نهاية عالم المعنى.

ليت وبقوة التنبّه والمعرفة، كنا نتحرر من أسر شيطان الباطن والخارج، فنرد ساحة الحبيب الحقيقي والمعشوق الأصلي.

يقول الأستاذ الكبير، المرحوم الشيخ البهائي في مقام النصح للجاهلين والتائهين:

يـا مركـز دائـرة الإمكـان ... ويا زبدة عالم الكـون والمكـان
أنت ملك جواهر الناسوت ... شـمس مظـاهر اللاهـوت
حتى متى لأجل التعلّقات الجسمانية ... تبقـى فـي بئـر طبيعـة البـدن
حتى متى بمعزل عن المعارف العقلية ... مغرور بزخـارف عـالم الحـس
لا تتـذكر المـوطن الأصـلي ... مسـرور دومـاً بـاللهو واللعـب
لا يجري دمعك ولا يصفرّ لونك ... الله الله كم أنت بلا تحـرّق وهـمّ
استشعر نفسك أنامًا وانظر من أنت ... بماذا أنت متعلق ومع من تسعى
ارفع الرأس من هذا النوم الثقيل ... خـذ عـن العـالم الأول خبـراً

يقول ذلك العارف الكبير في كتاب «سر الصلاة»، أيضاً:[1]

النية عند العامة هي العزم على الاطاعة خوفاً او طمعاً:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[2].

ولدى أهل المعرفة يكون العزم على الطاعة هيبةً وتعظيماً:

«أُعْبُدِ اللّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ»[3].

١- سر الصلاة: ١١٩.

٢- السجدة: ١٦.

٣- بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٤، الباب ٦.

ولدى أهل الإنجذاب والحب، العزم على الطاعة شوقاً وحباً:

قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «اَفْضَلُ النّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبادَةَ فَعانَقَها وَأَحَبَّها بِقَلْبِهِ»...[1].

قالَ الصادق عليه السلام: «وَلـكِنّى أَعْبُدُهُ حُبّا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَتِلْكَ عِبادَةُ الْكِرامِ»[2].

على كل حال فالمعرفة الحاصلة من خلال الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هي البنية التحتية للنية والنية هذه، بنية تحتية لحضور القلب وحضور القلب هذا، مدعاة حركة الإنسان في كل شؤون حياته نحو العمل الصالح. أيها الأعزة؛ تعالوا نسع أن لا نخصّ العبادات بالنية، بل ننوي الله في كل سكناتنا وحركاتنا وفي جميع علاقاتنا مع الخلق وفي سلوكنا وأخلاقنا كلها، كي نستفيد أكبر إستفادة من كل لحظات عمرنا.

ليس للدنيا وما فيها ثمن أن نعاملها بلحظة واحدة من عمرنا، ينبغي أن تكون الدنيا وما فيها أداة ووسيلة لنا للتجارة مع الحبيب تعالى وبتعبير «سعدي» ذلك العالم ذي النكات الدقيقة:

ليس للدنيا قدر أن يتحاسد عليها

أو أن يغتم عبثاً لوجودها وعدمها

أولئك الذين لم يلتفتوا إلى حفنة التراب هذه

الحق أنهم ذو الآراء

العرفاء كل ما لا ثبات وبقاء له

١- الكافي: ج٢، ص٨٣، باب العبادة، الحديث ٣؛ مشكاة الأنوار: ١١٢، الفصل ٢.

٢- الأمالي، الشيخ الصدوق: ٣٨، المجلس ١٠، الحديث ٤؛ بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٩٧، الباب ٥٣.

*. في البيت الفارسي خطأ يبدو أنه مطبعي، أصلحناه. المترجم.

لو كان كل ملك العالم لم يشتروه بشيء

لكـــــي لا تتطـــــاول ولا تتكبّـــــر

فللـه مثلـك فـي الملـك أحيـاء كثـر

مع مـن سـمعت أن العـالم أدام صـداقته

الحق مكشوف للعيان لكن البعض لا يبصـرون

يا من على ظهر الأرض ليست دومـاً لـك

آخـرون فـي بطـن الأم وظهـر الأب*

لن تتـوفر فـي البسـتان وردة دون شـوك

الورد بلا شوك هم الناس الطيّوا السيرة

يا «سعدي» لن يموت أبداً الرجل الحسن ذو السمعة الطيبة

الميـــت مـــن لا يذكرونـــه بالطيـــب

القلب السليم:

الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«إنّ صاحب النية الصادقة هو صاحب القلب السليم».

نعم، القلب بيت الله الحقيقي. تدل على ذلك الآيات والروايات. سألوا عارفاً: ما كان أول عضو تشكل في رحم الأم حين تكوّن الإنسان؟ قال: القلب. قالوا: ما دليلك على ذلك من المعارف الإلهية؟ قال: الآية الشريفة:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾[1].

١- آل عمران ٢: ٩٦.

فالدليل هي هذه الحقيقة، فالبيت بني لعبادة الناس، لما كان أول بيت هو الكعبة وكان لأجل عبادة الله الحق، فينبغي القول أيضاً أن أول عضو صنع في الكون، هو القلب الذي هو بيت العشق والحب، وفي الحقيقة أو ما بُني في مملكة وجود الإنسان البيت الذي يخصّه هو؛ واعتبار وقيمة وأهمية وقدر القلب أيضاً، لذلك[1].

لا شك أن هذه القيمة والأهمية، قيمة إستعدادية وبالقوة ـ لا بالفعل ـ وهذا غير كافٍ للإنسان، على الإنسان ونظراً إلى المعارف الإلهية وعملاً بالحدود والأوامر الإلهية أن يسعى إلى اكتساب صفة السلامة للقلب ويجتهد حدّ أن تتحد السلامة بالقلب ويصبح قلب الآدمي قلباً سليماً.

لاحظوا تعبير القرآن الكريم أنه لم يقل: قلب سالم، لم يستعمل صيغة السلامة بصيغة الفاعل، بل استخدم الصفة المشبهة ويريد بذلك بيان: إن السلامة ينبغي أن تصدق على واحد هي والقلب وتتحدان كالصفة والموصوف؛ ذلك أن هكذا قلب قد تمّ استحصاله من خلال المعرفة والعمل، هذا القلب سبب تجلّي النية الصادقة في كل الموارد والشؤون.

تيقّنوا بغير شك، أن النية الصادقة، لا تنتج عن القلب المريض والفؤاد السقيم؛ القلب للنية كالجذر، إن ضعف وعجز الجذر، إن فسد الجذر، كيف سيثمر نتاجاً سالماً؟!

النية الصادقة، حصيلة ونتاج القلب السليم والسعي لاكتساب القلب السليم أعلى وأفضل ارتياض.

حقاً ينبغي الاهتمام بالجذر، إن كان الجذر يتحلى بالصلاح والسداد، فستصبح كل محاصيله إلهية، لكن لو لم يعتن بالقلب وتظاهرات العوارض والمفاسد فيه على الباب

١- من عجايب الخلق أن القلب والدماغ هما العضوان الأولان اللذان ينشآن في هذا الكائن الجديد، بنحو بسيط. «أسرار عالم الخلقة: ٣٩».

والجدران كظلام الليل، فكيف يتاح لكم توقّع النور والإضاءة من هكذا بيت مظلم وثم النور الإلهي أي النية الصادقة؟

ينبغي أن يتنزه القلب عن كثير من العوارض بل وجميع الرذائل وأن يتحلّى بالفضائل بأكملها، كي يوصف بالسليم وتتجلى النية الصادقة من هكذا قلب ويتظاهر من تلك النية أفضل العمل ونتيجة ذلك أن يتصنّع من الإنسان الطبيعي، إنسان إلهي رباني وينتج عن هذا الكائن المساوي للحيوان، كائن أفضل وأعلى من جميع الملائكة!!

يقول الشيخ محمد حسين الغروي الأصفهاني، ذلك الحكيم المهذّب:

تجاور الذات، أطلب الحبيب ثم أطلب من الحبيب، الروح
اطلب الإسلام بالقلب السليم ثم أطلب مرتبة سلمان
إذ أمنت من فتنة الشرك الخفي والجلي عندئذٍ أطلب الإيمان
أخط بعض الشيء بوادي العشق ثم أطلب غنى اللانهاية
إن كنت تطلب كنز الحقائق أطلبه من مزوى القلب الخرب
عماذا تبحث في مغنى الورد الضاحك أطلب عيناً تبكي حزناً عليه
إن كانت خمرة السكر بغيتك كنت قلباً أطلب قلباً متحرقاً
إن كانت لك همة الخضر أطلب ماء عين الخلود
حرقة الم مدعاة الأقوال الطلب ذلك من «المفتقر» الأنّان

الإنسان أهم مجاميع الخلقة:

لا شك في أن الإنسان هو النسخة الإلهية الجامعة، هذا الكائن أغرب عنصر وكائن بعالم الخلقة.

الإنسان، بتعبير القرآن المجيد، ظرف علم الأسماء، الهداية، الكرامة والأمانة الإلهية:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّهَا﴾[١].

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٣].

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٤].

الإلهي القمشه أي، ذلك المدهوش بجمال الغني تعالى، يقول بشأن عظمته وشخصيته وجلال وكبر الإنسان:

أنا ذاك طائر الوكّر ... طير مغنى اللا مكان

سر حجب السماء التسع ... عارف بسر غيب العالم

ذرة أنا تحت هذه السماوات السبع ... قلبي مشرق كالقمر والشمس

رباني الرفيق الذي وجهه الشمس ... كي أزين هذه القصة

رضيع ثدي العشق أنا ... طفل بمدرسة العشق

كهل العقل أنا شاء العشق ... قائد فكر الشيخ والشاب

١- البقرة ٢: ٣١.

٢- البقرة ٢: ٣٨.

٣- الإسراء ١٧: ٧٠.

٤- الأحزاب ٣٣: ٧٢.

وإن قالوا أني صرف الوجود أنا فوق الجوهر، وراء الحدود
كنت معدوماً أنت وهبتني ظهوراً كي أدلّ على ذلك اللا دلالة عليه[1]

العناصر الأربع في وجود الإنسان:

الإنسان هو في الحقيقة أعلا كائن في العالم، وبمقدوره أن يفوق شرفاً كل ضيوف عالم الكون، وجوده مركب من أربعة عناصر هامة جداً سيجد وفقها السبيل إلى التفوق على كل كائنات العالم:

١ـ الجسم. ٢ـ النفس. ٣ـ العقل. ٤ـ القلب.

جسم الإنسان مركز التحركات والنشاطات العملية؛ الحسم وجميع الأعضاء التي ترتبط به، كاسب للعمل ومن اللازم في هذه المرحلة، أن يطلع الإنسان على الحدود والقوانين الإلهية ويقف على حلال الله وحرامه، كي يطبق كل حركاته ونشاطات جسمه على الحدود الإلهية ويحصل بتعبير القرآن على العمل الصالح.

نفس الإنسان، كمال صرح القرآن الكريم به، هو مركز النشاطات الأخلاقية وكاسبة الحقائق المعنوية ويتحتم أن يتعرف الإنسان على صفات الطهر والحسنات الأخلاقية مما يتاح الإنسان عبر الوحي، كي يهذب النفس ويزكّيها ويصون الحقيقة هذه عن التلوّث بالرذائل وينال الفلاح والسعادة باكتساب الحسنات.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[2].

عقل الإنسان هو مركز الإدراك وساحة النشاطات العلمية، العقل في وجود الإنسان كاسب علم وإدراك ومعارف ومعلومات وقد أكثر الإسلام في تأكيد طلب العلم

١- إلهي القمشه أي.

٢- الشمس ٩١: ٩.

وعلى الإنسان غاية المراقبة لكسب العقل، حذراً من أن يصبح هذا الظرف الإلهي العظيم مركزاً للتعاليم الشيطانية، إذ أنّ العقل إذا وفّق لكسب المعارف الإلهية، فهو أقوى رواعي الإنسان لعبادة الحق تعالى وسيكون أهم مكاسبه، كما يعبر المعصوم ذلك بـ «الجنة».

قلب الإنسان، هذا العضو المتحسس، هذا العنصر ذو العظمة، هذا الوعاء الذي لا يتوفّر فيي العالم أوسع منه، هو كاسب المحبة، العشق، الود، العاطفة، الرقّة، الإيمان، اليقين وأمثال هذه الحقائق، طبعاً لو كان الإنسان قلبه متيقظاً في كل أنات عمره، فسيبادر القلب إلى اكتساب هذه الحقائق وهي رواعي خير الإنسان في الدنيا والآخرة بينما لو أغفل الإنسان هذا الجزء الهام في الكون، فإنّما يستيقظ، حين يكون القلب قد تلوث باكتساب الرياء، النفاق، الشرك، الكفر،الجحد، الإنكار،الغرور و... وعندئذٍ سيصعب جداً تنقية عنصر القلب هذا، الذي إنّما خلق لخصوص تجلّى نور الحبيب ويندم الآدمي وقد فات ولم يبق له سوى الضرر والخسران!!

القرآن الكريم يرى أن القلب هو مركز كثير من النشاطات، معتبراً الإنسان مسئولاً عن أفعال القلب طالباً من الآدمي لزوماً اتخاذ سبيل يؤول إلى تحقق السلامة بذات القلب ويكون ممكناً توفير قلب سليم لمحضر حضرة الحبيب.

المحكمة الإلهية للبتّ بشأن القلب:

يعتر القرآن الكريم في كثير من الآيات الشريفة، أن بعضاً من يوم القيامة، هو محكمة عدل إلهية للبتّ بشأن مكسب القلب:

﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1].

﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[2].

١- البقرة ٢: ٢٢٥.

٢- البقرة ٢: ٢٨٣.

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

أخطار مرض القلب:

إن لاكتساب القلب الرذائل مقدمات، يوفرها الإنسان مختاراً وما يكتسبه القلب من ذنوب، هو مرض للقلب وخطر هذا الداء على الإنسان، يعادل أحياناً هلاكه وبلوغه الشقاء والبؤس وخزي الدنيا والآخرة وبتعبير القرآن الكريم:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٣].

ينبغي ومنذ أول سنّ التكليف، صيانة القلب عمّا يرتبط به من أمراض، ولو كان مريضاً فينبغي المبادرة فوراً لعلاجه.

كم هي ثقيلة وخطيرة مسؤوليات الآباء، الأمهات، المعلمين، أساتذة الدولة والمجتمع، تجاه الأفراد ومن جانب فإن للإنسان نفسه مسؤولية ثقيلة بمحضر ذي الجلال.

كلّنا مكلّفون بتوفير الأرضية لإيجاد سلامة القلب بالمحافظة على طهارة بيئة القلب من أي نحو ذنب وخطوط شيطانية وإبقاء سلامة المدرسة ومحيط البلد، من أجل الأبناء والأطفال. أنتم أيضاً أيها الأشبال! وأيها الشباب على عاتقكم مسؤولية ورسالة ثقيلة لاستلهام بواعث سلامة القلب.

١- الإسراء ١٧: ٣٦.

٢- النور ٢٤: ١٩.

٣- البقرة٢: ١٠.

أنتم أيها الآباء والأمهات ويا معلّموا ورجال دولة، إن قصّرتم في قضية إيجاد بيئة سالمة، فسينالكم في القيامة عذاب أليم.

أنتم أيها البشر: إن لم تتغذوا من سلامة البيئات، سيصيبكم بمحضر الله العذاب الشديد.

إن قصّر الآباء والأمهات والمعلمون ورجال الدولة في قضية إيجاد جو سالم، من أجل سلامة قلوبكم، فاليوم وأنتم تمتعون بموهبة الإدراك والفكر، فكّروا في أمركم وأنشطوا لتوفير سلامة القلب.

إن تهيأت لكم دواعي سلامة الفؤاد منذ أول، فاسعوا اليوم للحفاظ على سلامة القلب وان استشعرتم أنكم مصابون بالأمراض المعنوية للقلب، فانهضوا لعلاج قلبكم بالتمسك بعالم رباني وشيخ روحاني ورجل إلهي، وأزيلوا هذه الأمراض الشيطانية من البيت الحيّ للحق تعالى، نظفوا البيت وبعد معالجة القلب وتطهير هذا المنزل، ألزموا القلب اكتساب الحسنات والحقائق.

حصّلوا تقوى القلب، إذ ليس ثمة رأس مال لليوم وغد أغلى وأثمن وأعود نفعاً من تقوى القلب.

أمراض القلب تسبب تداعي مشاكل وتظاهر شتى العذابات في الدنيا والآخرة.

سلامة القلب تتسبب في ظهور الحقائق وقوام وصواب وراحة الدنيا وظهور النعم الإلهية بأنحائها وسعادة الأبد بعالم القيامة.

القلب المريض، القلب المذنب يؤثر سلباً على كل شؤون العقل، النفس، الروح؛ ويتوجّه إلى ثلاثة نواحي عظمة الوجود الإنساني بالأخطار الدنيوية، الأخروية الشديدة، القلب رئيس وحاكم كيان الآدمي، سلامة كل الوجود وسقم مجموع كيان الإنسان ترتبط بسلامة ومرض القلب.

يقول العالم الواعي والعارف النبه، «مولوي»:

ويل لذلك القلب الذي لا تبلغه دلالة منك

ميت ذلك البدن الذي لا تأتيه بشارة الروح

أسود ذلك اليوم الذي يمرّ بلا نـور جمالـك

لا يأتي من مطبخك أي كاسـة أو مائـدة

وبل لذلك القلب الذي لا يذهب إلى النار من عشـقك

يستهلك «يبذل» كالذهب لا يبلغ المعـدن

حديث العشق إن كان دون ألم فلن يثمـر

لن يبلغ سوى إذن الهوى وعـدا اللسـان

لن تصبح مريم القلب حاملاً أنوار المسيح

كي تصل الأمانة من باطن إلى باطن

الحس حيث كان متيقظاً لن يرى إطلاقاً رؤيا

ما لم يذهب القلب عن العالم، لن يصل إلى عالم

اجتهد الحين كي تتحرر من الزمان

قبل حين أن لا يصل زمان إلى زمان

فليظلم ذلك الصبح الذي لا تبلغي منك فيه تحية

مرّ ذلك اليوم الذي لا يصل فيه من شهدك بيان

أمراض القلب:

١ـ الكفر:

يصاب القلب أحياناً بالكفر أثر إغفال الإنسان، الحقائق ومجانبة الفكر الصحيح. الإنكار عن عناد، الإنكار بعد المعرفة والإيمان، استهلاك النعمة في مسـار الشيطان

هي من مصاديق الكفر؛ للقرآن الكريم آيات متعددة في هذا المجال، كنموذج، نقرأ ما يلي:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[٣].

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٤].

انتبهوا أن الكفر ليس خصوص إنكار الحق أو بذل النعمة في سبيل غير الله، أو الإنكار بعد الإيمان، بل أنّ إنكار المعاد والنبوة وضروريات الدين والحكم بغير ما أنزل الله كل ذلك في رتبة الكفر.

هذا الداء الخطر، حين يصيب القلب يجعل الإنسان في عالم الخلقة أسوأ من الحيوانات ويغلق منافذ النور بوجه الإنسان ويجفف أغصان وأوراق الإنسانية ويدع من الإنسان وحشاً خطراً فاتكاً وشيطاناً مريداً.

٢ـ النفاق:

من أمراض القلب الأخرى، النفاق. المنافق يعني ذو الوجهين، الملوّن وطبق الآيات والروايات فإن النفاق من أسوأ الذنوب، والمنافق يواجه في الآخرة أشد عذاب.

١- آل عمران ٣: ٥٦.

٢- آل عمران ٣: ٩٠.

٣- إبراهيم ١٤: ٢٨.

٤- النمل ٢٧: ٤٠.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[١].

المنافقون رجال ونساء، يظهرون أنفسهم لساناً وفي بعض الأفعال كمسلمين، لاكنّهم قلبياً ليس لديهم أيّ إيمان بالله ورسوله والأحكام الإلهية.

المنافقون أناس، بإظهارهم الإسلام، يواكبون ويماشون المسلمين في جميع الشؤون لأجل الإخلال في أمور المسلمين بأجمعها.

المنافقون عمي القلوب، فهم بحكم علاقتهم بالمسلمين، يطّلعون على أسرار المسلمين، فيبيعونها بثمن بخس إلى الكفار.

المنافقون في تعاملهم مع المسلمين أمكر من الثعلب، أقل غيرة من الخنزير، أكثر عواءً من الكلب وأفتك من الذئب.

القرآن المجيد يبيّن في كثير من الآيات وضع المنافقين وقلّما لا يشير في آياته إلى شدة عذابهم في يوم القيامة.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[٢].

﴿إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾[٣].

المنافق يعامل الله بوجهين في قضية الإيمان بالله وامتثال الفرائض وهو ذو وجهين أيضاً مع خلق الله في كل ارتباطاته.

٣ـ الشرك:

من ذنوب القلب الأخرى الشرك، وهو له أقسام، وقد أشار إلى أقسامه القرآن الكرم والروايات والمصنفات في التوحيد.

١- النساء ٤: ١٤٥.

٢- النساء ٤: ١٣٨.

٣- النساء ٤: ١٤٠.

الرياء نحو من الشرك، جعل شيء إلى جانب الله للعبادة شرك، متابعة علماء السوء شرك، عبادة الهوى من المصاديق البارزة للشرك والشرك ذنب عظيم، بحيث إن بقي قلب الإنسان ملوثاً به حتى الموت، سيكون محروماً من رحمة الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[1].

٤ـ الشك:

من ذنوب القلب الأخرى الشك، طبعاً ليس هنالك ثمة بأس في الشك في العلوم الظاهرية، ولكن في المسائل الحقة التي حقّيتها معلومة بيّنه بالاستدلال والبرهان العقلي، أو بالقرآن الكريم، أو بالروايات الصحيحة، فليس هناك مجال للشك والشاك بمنأى تماماً عن الإنصاف وحركة القلب اللا صائبة هذه تخالف العقل والفطرة والضمير.

النبي له معجزة يثبت بها صدق قوله بإذن الله، كما يقول القرآن المجيد أنه يحيى الموتى؛ ويشفى الضرير بالولادة؛ ويشفي الأبرص، يخبر عن الغيب، يضرب بعصاه الحجر، فتنفجر اثنتا عشرة عيناً؛ يشق القمر، يخرج من صخر الجبل جملاً حياً؛ يبدّل بنفسه الإلهي التراب إلى طائر حيّ، وكآخر مرحلة فهو يقدّم القرآن كمعجزة أخيره وبوصفه معجزة الخلود، قائلاً: بهذه الرسائل الحقة أنا رسول الله. ثم يرى إنسان كل هذه الحقائق التي هي أكثر جلاءً و وضوحاً من الصحيح ثم يحاذي التردد القلبي بأنه هل هذا المرء صادق أولا؟!! قلب هكذا آدمي، مريض حقاً وشكه تجاه الحق يوفّر له شتّى المآسي.

١- النساء ٤: ٤٨.

حقاً، هل إنّ الحق الجليّ، حق البرهان والحجة، الحق الأكثر نوراً من الشمس، يقابل بالشّك؟!

٥ـ القساوة:

من الأمر القلبية الأخرى القساوة والجفاء؛ يخبر القرآن المجيد عن أناس هم السبب في كثير من المآسي وحرمان الآدمي من الرحمة الإلهية:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١].

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾[٢].

﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[٤].

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[٥].

١- الحديد ٥٧: ١٦.

٢- البقرة ٢: ٧٤.

٣- الأنعام ٦: ٤٣.

٤- المائدة ٥: ١٣.

٥- الزمر ٣٩: ٢٢.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[1].

القسوة لا تدع الإنسان يتقبّل الحق، القساوة لا تسمح للإنسان أن يبدي ردّ فعل ايجابي ومناسب، ولا تسمح أن يترحم المرء على المظلوم والمسكين والمعدم. لا تسمح القسوة للإنسان أن يعتذر لبارئه تجاه الأخطاء وتصدّ دمع العين. سبب القسوة والجلف، أمران: مجانبة العبادة، التلوّث بالذنب. لو أردتم علاج القسوة فأكثروا ذكر الموت، شاركوا في مجالس الوعظ، تمسكوا برجال الله وصاحبوا ذوي الأنفاس.

أكثروا ذكر الله ومهما أمكن اقرؤوا القرآن الكريم وبمنتهى العشق والشوق ولا تقفلوا الأدعية الإسلامية الرائعة، خاصة دعاء كميل، دعاء عرفة، المناجاة الخمسة عشرة، دعاء أبي حمزة.

أكثروا زيارة المقابر وتوسّلوا بالأئمة الطاهرين عليهم السلام واخلوا بعض الليل بالحبيب الحقيقي والمقصود والحق وتذكروا ذنوب الماضي وتقصيراتكم في العبادة، وأبكوا.

باتخاذ هذه الأمور، ينجلي تدريجياً صدأ القلب وتصفوا قلوبكم بالنور الإلهية وتترك الشياطين قلوبكم، ويتجلى الحق تعالى بذلك البيت.

٦ـ الرياء:

من الذنوب القلبية الأخرى الرياء. المرائي لا يهدف في كل أعماله إلا إلى استجلاب مسرّة الآخرين.

الرياء في الأعمال العبادية يؤدي قطعاً إلى بطلان العمل ويتأدى في غير العبادات إلى عدم قيمة جهد الإنسان.

المرائي، في الحقيقة يعبد الدنيا وليس طلبه لله سوى غطاء لستاره المخزي لعبادته الدنيا.

١- الحج ٢٢: ٥٣.

يريد المرائي أن يكسب بين الناس حرمة، وصولاً من خلال ذلك إلى رغباته ومشتبهاته الشيطانية.

من كانت له مآرب مادية ومعنوية ويرى أنه وصولاً إلى تلك المآرب لابد له من الناس كقوة وهو ما يتوقف على استجلاب رضاهم وثقتهم وهو بدوره يستلزم إظهار عبادة ومحاسن، فيتوجّه لذلك، إلى محطة التعبّد ويبادر إلى كل عمل خير، ينبغي أن نقول: انه بطل ميدان الرياء وفي الحقيقة فهو قد اتخذ لأجل أهدافه الخبيثة وسائل طيبة وهذا ذات السبيل الذي اعتقده مادّيو التاريخ سابقاً والشيوعيون اليوم أي أن الهدف يبرّر الوسيلة، ولو قيل في الآيات والروايات: هكذا شخص مشرك، فصدقاً قالوا.

إنا نقرأ في التاريخ أن الظلمة والجبارة ممّن حكموا أمم الأديان، كانوا يبادرون إلى فعل الخيرات، يبنون المساجد، يزورون، يوفّرون مستلزمات كتابة المصحف الشريف وتأليف الكتب الدينية، يطبعون القرآن، يعمّرون حرم الأئمة عليهم السلام، يحضرون أحياناً صلاة الجماعة، يطعمون الفقراء، يشيدون دار أيتام ومدارس ومن جانب آخر كانوا يلقون مناضلي درب الحق والأبرياء في قعر السجون، يقتلون المظلومين، يسحقون حقوق الناس ويبتلون الناس بشتى التعذيبات!!

هل يمكن حمل خيراتهم إلا على الرياء وتغطية جرائمهم؟ إن لم يخل القلب من الرياء، فليس بمقدور المرء انجاز عمل حقيقي وثمين وليس بإمكانه نيل مقام العبودية بمحضر الحق تعالى، طهارة العمل وثمنه يرتبط بسلامة القلب من الرياء والإنسان العاري من الرياء آمن ومصون من كثير من الذنوب.

كثير من الناس يتحملون المشاقّ في مختلف نواحي الحياة ويكثرون فعل الخيرات، لكن بما أن زحماتهم ملوثة بالرياء، فلا عاقبة لجهودهم ويعتبرهم القرآن المجيد من أكثر الناس خسراناً:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[١].

٧ـ العجب:

من ذنوب القلب أيضاً العجب؛ رؤية فعل الخير الذي منه وتعظيم فعل خيره هو وتصوّر الذات كمحقّ.

العجب، استفطام الذات وتبرئتها من العيب ورؤية الذات أفضل من الجميع.

يؤدي عجب المرء بنفسه إلى التكبر، والتكبر يورث الآثام!! يرى المعجب، كل مقام حقه. يحسب أن كل موقع يعنيه، يعتقد أن كل التوقيرات تخصّه، يتوقع أن يكبره الجميع ويخضعوا أمام مقامه.

الإنسان المبتلي بالعجب في أي حدّ كان من العبادة وفعل الخيرات، فهو بمعزل عن الله.

على الإنسان أن يعلم أنّ كل محاسن الظاهر والباطن هو لطف الله وعطاؤه وأنّ كل المساوئ والتقصيرات والعيوب هي من الإنسان.

على الإنسان أن يرى نفسه مقصّراً دوماً في العبادات، معتبراً عباداته كلها ملوثه بالعيب، وبقلّة الإخلاص وقليلة المحتوى ويكون في خوف ورجاء بشأن أعماله الخيريّة.

إن عرف المرء نفسه جيداً وبتعبير القرآن الكريم، كان في مقام تزكية ذاته وامتداحها، متصوّراً أنه هو السبب في ما يؤتيه من عبادات وخيرات، فهو إنسان قذر مصطبغ بلون العجب الشيطاني وهذا العجب مدعاة هلاكه في الدنيا والآخر؛ يقول القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[٢].

١- الكهف ١٨: ١٠٣ ـ ١٠٤.

٢- النساء ٤: ٤٩.

يقول الإمام علي عليه السلام في مقام تعريفه لأهل التقوى وعشاق الحق في خطبة همام:

«وَإذا زُكِّىَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقالُ لَهُ فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسى مِنْ غَيْرى وَرَبّى أَعْلَمُ بى مِنّى بِنَفْسى اَللّهُمَّ لا تُؤاخِذْنى بِما يَقُولُونَ وَاجْعَلْنى أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ»[1].

يقول الإلهي القمشه أي، ذلك الشيخ المهذب، استقاءً من الجملة أعلاه:

إذ يمتـــدحونهم بـــالخير فيفكّرون ويكثـرون الخيـرات

يقولــون فــي الإجابــة اننــا ســـريرتنا مكشـــوفة لنـــا

نحن عالمين بأنفسنا من غيرنـا أعرف منّـا، العـالم بالأسـرار

عندئذٍ يقولون متناغمين مع فاقة العشق يقولــون أنّ عــالم كــل سـرّ

أنت لا تغضب علينا لما يقولون فــلا شــيء امتــدح لا شــيء

يقولون بالقلب دائماً يا أيها الربّ السبحان اجعلنا أفضل مــن كــل ظــن

فضّــلنا علــى هــذه الظنــون يأمن منك حسـن الجسـم والأرواح

اغفـــر مـــا خفـــي مـــنهم من عمـل السـوء وتفلّـت الأفكـار

يقول الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء العشرين من الصحيفة السجادية المباركة:

«وَعَبِّدْنى لَكَ وَلا تُفْسِدْ عِبادَتى بِالْعُجْبِ»[2].

من الذنوب القلبية الأخرى، الكبر، سوء الظن، الحقد، الحسد، حب الدنيا، العزم على الذنب والمعصية مما سيجيء شرحها هي وذنوب أخر ذكرت سابقاً فيما سيورده

١- نهج البلاغة: الخطبة: ١٨٤.

٢- الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.

مصباح الشريعة من أبواب.

إن قدّر لبيت القلب أن يصبح مجلى النية الصادقة، فينبغي نقاؤه من كل هذه الذنوب، القلب الملوث بهذه الذنوب، لا يقوى على صدق النية؛ المعجب، المرائي، الحسود، المتكبر، سيّء الظن، البخيل، كيف باستطاعته أن يصدق النية؟ينبغي غاية النظر في كلام الإمام الصادق عليه السلام: «**صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم**» ويتحتم بجدّ تخشّي تلوّث القلب إذ القلب الملوّث، عارٍ عن صدق النية والعمل الخالي من صدق النية، قليل القدر أو عديمه عند الحق تعالى وإذ انعدم قدر عمل الإنسان، تعسرت للغاية نجاته!!

«لِأَنَّ سَلامَةَ الْقَلْبِ مِنْ هَواجِسِ الْمَحْذُوراتِ تُخَلِّصُ النِّيَّةَ للّهِ تَعالى فِى الأُمُورِ كُلِّها، قالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونٌ اِلاّ مَنْ اَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾ وَقالَ النَّبِىُّ صلى الله عليه وآله: نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ وَقالَ اَلْأَعْمالُ بِالنِّيّاتِ وَلِكُلِّ امْرِءٍ ما نَوى»

«وَلاَبُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ خالِصِ النِّيَّةِ فى كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ اِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ بِهـذَا الْمَعْنى يَكُونُ غافِلاً وَالْغافِلُونَ قَدْ وَصَفَهُمْ اللّهُ بِقَوْلِهِ اِنْ هُمْ اِلاّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ سَبيلاً»

«ثُمَّ النِّيَّةُ تَبْدو مِنَ الْقَلْبِ عَلى قَدْرِ صَفاءِ الْمَعْرِفَةِ وَتَخْتَلِفُ عَلى حَسَبِ اِخْتِلافِ الأَوْقاتِ فى مَعْنى قُوَّتِهِ وَضَعْفِه»

حينما يكون القلب طاهراً نقياً من الكدر والأقذار المادية والوساوس الشيطانية والشكوك والشبهات والاضطرابات وبات كالمرآة مركزا لتجلي فيوضات الحبيب، تتظاهر من ذلك القلب، النية التي يرتضيها الرفيق الأعلى وصفاء القلب وطهارته ومجانبة الكدر كل ذلك حصيلة تنوّره بنور المعرفة.

إنّ من تعرّف بالتفكر في سجلّ الكون والتدقيق في آيات القرآن الكريم والروايات الشريفة، على الحق تعالى وشؤونه ورأى القيامة بعين القلب واتضحت لديه حقيقة أن دنياه ما أقصر عمرها وأنّ الإنسان بالنسبة إليها مسافر سريع الارتحال وعرف أن لا ديار غير الحق تعالى وكل ما في الكون ظل منه وليس من صنع غيره، يبلغ إخلاص النية وتغدو أعماله وسلوكه بالتجذّر بهكذا نية، ذات قدر حقيقي.

تختلف النية حسب اختلاف المكلفين، لو كان المكلّف أسير القيود الشيطانية وملوثاً برذائل الأخلاق، فنيته ضعيفة قليلة القدر؛ فيما لو كان علمه وقدرته وإرادته كل ذلك حراً من الهواجس النفسانية فانّ لنيته قوة إلهية وهي قريبة من دقيقة الخلوص أو عين الخلوص.

صاحب النية ما لم يتطرّق إلى الحقيقة ولم يبعد عن نفسه ستارات الضلالة والنية والحوائل النفسانية ولم يدفع عن نفسه أسباب التزلزل والاضطراب فلن يصل إلى خلوص النية وتسقط نيته مع كل هذه التلوّثات، عن حيّز الاعتبار ولن تخطى بذلك القدر.

«وَصاحِبُ النِّيَّةِ الْخالِصَةِ نَفْسُهُ وَهَواهُ مَعَهُ مَقْهُورَتانِ تَحْتَ سُلْطانِ تَعْظيمِ اللّهِ تَعالى»

المعرفة الحقة بالله تعالى، سبب تجلي عظمته تبارك وتعالى في القلب، ويؤدي تجلي هذه العظمة أن يصغر غير الحق تعالى بعين الإنسان أو أن يغدو لا شيء وعدماً؛ حينئذٍ بما أن الإنسان لا يرى غير الله، تصبح نيته له تعالى فقط وليس أيضاً من سبيل لإخلاص النية وصدقها سوى طريق المعرفة وحين يبلغ الإنسان هذا المنزل الرفيع، أي انمحى الغير لديه بالكلية، ولم تبق عظمة غير عظمة الحق تعالى، ستقهر حكومة هذه العظمة وبكل قدرة ورحمة، النفس والهوى ولا تدع مجالاً لولوج الشوائب إلى ساحة النية في هذا المنزل المعظّم حيث لا صفة للنية غير الصدق والخلوص.

إلهي! لم نوفّق بعد لمشاهدة إياك، لم نرد بعد محضر قدسك، بيننا نحن الغيّب وبين حضار القبة فرق في كل شؤون الحياة، نحن في غيبة وفي هذه الغيبة إذ نرى كل من سواك حاضراً، وإذن كل شيء عظيم لدينا وما نريد فعله من شيء فبنية غيرك وهذا غاية مأساتنا، حقاً نحن بؤساء إذ لم نستطع حتى الآن ولو لمدة واحدة التوفّر على صدق النية. إلهي! بعزتك وجلالك خذ بأيدينا وبلّغنا منيتنا الحقة وهي نيل مقام قربك ووصالك وتلمّس عظمتك. يقول الحكيم الجليل المولى عبد الرزاق اللاهيجي، بشأن الجملة أعلاه:

صاحب النية الخالصة من يجاهد ويخالف النفس الأمارة ويرى لزوم مباغضة ومخالفة هذه الخدّاعة الغرارة ذلك أنّ بغاة طريق الفوز والنجاة وفي كل الأطوار والحالات يتحرّزون من شر هذا العدو القوي ومكر هذا الغرور الغوي، اهتموا

بمجاهدته ومرافقته وذلك هو أفضل أقسام الجهاد كما قد روي عن صاحب الرسالة ﷺ أنه قال:

«اَفْضَلُ الْجِهادِ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ الَّتى بَيْنَ جَنْبَيْهِ»[1].

ويروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«اُحْذُرُوا أَهْوَاءَكُمْ كَما تَحْذَرُونَ أَعْدَاءَكُمْ فَلَيْسَ شَىءٌ أَعْدَى لِلرِّجالِ مِنْ اِتِّباعِ أَهْوَائِهِمْ وَحَصائِدِ أَلْسِنَتِهِمْ»[2].

مجاهدة النفس عبارة عن أن لا تمكّنها مما تهواه وترغب فيه، بل أن تجعلها مسخرة مقهورة للعقل وهو حاكم مملكة البدن ولا يسمحوا لها بالتمرد والعصيان مما يؤدي إلى اختلال أركان هذا البيان الإلهي ويبادروا بمعونة الجنود العقلية إلى دفع طغيانها وفسادها، كي يتمكن ويستقل سلطان العقل في مملكة البدن وتخلو القلوب هذه وهي منزل قوافل الفيوض الإلهية، من فتن وشرور الأهواء النفسانية وتتحلى بآثار الخير ومراضي الرب تعالى.

١- أمالي الشيخ الصدوق: ٤٦٦، المجلس ٧١، الحديث ٨ معاني الأخبار: ١٦، الحديث ١؛ بحار الأنوار: ج٦٧، ص٦٥، الباب ٤٥، الحديث ٧.

٢- الكافي: ج٢، ص٣٣٥، باب أتباع الهوى، الحديث ١، بحار الأنوار: ج٦٧، ٨٢ الباب ٤٦، الحديث ١٧.

«والحياءُ منه»

حينما تحلّى الإنسان بتوفيق من الله، بنور المعرفة واتصف عبر هذه الفرصة وهي من أفضل وأعود الفيوضات الإلهية على الإنسان، بإخلاص النية واتحد ظاهره وباطنه بالنسبة إلى الله، فإنه سيصبح ذا حياء من الله وإذ يضيء الحياء في كيانه، سيؤدي حق الله تعالى كما ينبغي وسيتجنب ما لا يوافق رضاه تعالى.

هل مع التوفر على المعرفة وطهارة النية والإقرار بكل البرامج الإلهية، يمكن ارتكاب الذنب والتفاضي عن الحقوق الإلهية؟

بعض الفقهاء اعتبروا ارتكاب الذنب منافياً للإيمان وقالوا بخلود الفساق في نار جهنم وأهم استدلالاتهم هو عدم المعرفة لدى أهل الذنوب وإذن عدم النية الخالصة وفي الحقيقة عدم الحياء من المولى في وجودهم. فمتى انعدم الحياء، كيف يجتنب الإنسان المعصية؟ أفضل قوى صدّ الإنسان عن المعصية، هو الحياء.

«وهو من طبعه وشهوته ومنيته»

وهذا الحياء جبلّي لخلوص النية ومما يتمناه المخلص، ذو النية الخالصة الصادقة، يجانب الحياة وفي الحقيقة ان الحياء وخلوص النية لازم وملزم ولا انفكاك لهما عن بعض.

«نفسه منه في تعب والناس منه في راحة»

صاحب صدق النية، ولأجل تجنّبه الرغبات والأهواء النفسانية اللاصحيحة وطلباته غير الإلهية، كانت نفسه منه في تعب والآخرون منه في راحة، أما راحة الآخرين منه فلأجل أنه يعمل في كل أفعاله وفق رضى الله تعالى ومن كان يوافق في ما يفعل رضى الله، لا يصدر عنه ظلم وجود، وكل من لا يبدر منه ظلم وجور وإيذاء، فالآخرون في راحة منه، أو معنى الجملة صاحب صدق النية يباشر لأجل نيته أي فعل سواء العبادة وخدمة الخلق ولا ينبغي في ختام شرح حيث النية، ترك بيان نكتة هامة لها الدور الهام في إيجاد النية الصادقة وهي أن الإنسان في كل شؤون الحياة، عليه وبأحسن وجه مراعاة نظامات الحق تعالى التعاقدية، كي يصل بمراعاته النظام الإلهي إلى الحقائق ويقطف من كل برنامج النتيجة اللازمة.

إننا نواجه في حياتنا مجموعة مسائل مثل الأعضاء والجوارح الجسمية، النفس، القلب، العقل، الفقيه، الإمام، النبي، الله؛ في مجموعة المسائل هذه، من مع من؟ واي من هذه الحقائق، تحكم الأخرى؟

علينا وبأمر وإرشاد الأنبياء والأئمة والأولياء عليهم السلام، أن نراعي الأنظمة ذات الصلة بهذه المسائل وبكل دقة، كي نستفيد إلهياً من هذه الحياة.

الله تعالى في رأس كل الأمور وهو مفيض الفيض ومبدأ أي خير، يبلّغ نبيه صلى الله عليه وآله أوامره تعالى بالقرآن والوحي والإلهام، النبي صلى الله عليه وآله ينقل ما عنده إلى الإمام ثم الإمام إلى الفقيه، على العقل أن يأخذ ما يلزم من أحكام من الفقيه؛ إذ العقل في وجود الإنسان واسطة استلام، على القلب أن يفقه مواجيد العقل وينبغي تأديب النفس الواعية

بنحو عملياً معلوماتها عبر الأعضاء والجوارح وثمرة هكذا عمل، هي حياة خلد الجنات دون شك.

فينبغي أن تتبع الأعضاء والجوارح النفس الإلهية وتتبع النفس نور القلب ويتبع القلب العقل والعقل يتبع الفقيه المستجمع للشرائط، يتجذر الفقيه في الإمامة وتتجذر الإمامة بدورها في النبوة بتجذر ربوبية الحبيب الحق تعالى، لو أن الإنسان أحضر شخصه جارياً في هكذا فلك، لن يتوفّر في كل الأمور على نية غير الله ولا على إرادة سوى إرادة الحق تعالى.

بقول بهذا الصدد الحكيم «صفاء» الأصفهاني، ذلك الهائم المدهوش:

الليلة التي أفتح فيها ناظري بلقاء الحبيب

لدى الصبح احترز من الشموس

يكون وضوئي من ماء العين وطاعتي أن

أن استقبل حاجبه في الصلاة

أطير إلى عرش الحقيقة من عش الطمع

أفتح جناحي طائر الفاقة المغلوقين

أنا الذي ساعد السلطان مساجد رجلي

لم أجعل منزلي وكر الطمع

أصير نسر الحقيقة بقوة السير

أهيم حمامة القلب في مجنّح العلوّ

لو أتيحت لي طرّة الحظ

فسوف أعالجها بغبار دربك

ألقي من تراب قدمك ماءً على نار القلب

أجعـــل قلبـــي المشـــفف محـــل الســـر

أتحـــــــدّث عـــــــن طرّتـــــــك

أطيـــل الأســـطورة بالتحـــدث معـــك

الباب

(٥)

في بيان الذكر

قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «مَنْ كَانَ ذَاكِرا لِلّهِ عَلَى الْحَقيقَةِ فَهُوَ مُطيعٌ وَمَنْ كانَ غافِلاً فَهُوَ عاصٍ.

وَالطَّاعَةُ عَلامَةُ الْهدايَةِ وَالْمَعْصِيَةُ عَلامَةُ الضَّلالَةِ وَأَصْلُهُما مِنَ الذِّكْرِ وَالْغَفْلَةِ.

فَاجْعَلْ قَلْبَكَ قِبْلَةً لِلِسانكَ لا تُحَرِّكْهُ إلاّ بِإشارَةِ الْقَلْبِ وَمُوافَقَةِ الْعَقْلِ وَرِضَى الأءيمانِ فَإنَّ اللّهَ عالِمٌ بِسِرِّكَ وَجَهْرِكَ وَهُوَ عالِمٌ بِما فِى الصُّدورِ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ.

وَكُنْ كَالنّازِعِ رُوحَهُ أَوْ كَالْواقِفِ فِى الْعَرَضِ الْأَكْبَرِ غَيْرَ شاغِلٍ نَفْسَكَ عَمَّا عَناكَ مِمَّا كَلَّفَكَ بِهِ رَبُّكَ فى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعيدِهِ.

وَاغْسِلْ قَلْبَكَ بِماءِ الْحُزْنِ وَلا تَشْغَلْها بِدُونِ ما كَلَّفَكَ وَاجْعَلْ ذِكْرَ اللّهِ مِنْ أَجْلِ ذِكْرِهِ لَكَ فَإنَّهُ ذِكْرُكَ وَهُوَ غَنِىٌّ عَنْكَ فَذِكْرُهُ لَكَ أَجَلُّ وَأَشْهى وَأَتَمُّ مِنْ ذِكْرِكَ لَهُ وَأَسْبَقَ.

وَمَعْرِفَتُكَ بِذِكْرِهِ لَكَ يُورِثُكَ الْخُضُوعَ وَالأءسْتِحْياءَ وَالأءنْكِسارَ وَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذلِكَ رُؤْيَةُ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ السّابِقِ وَتَخْلُصُ لِوَجْهِهِ وَتَصْغُرُ عِنْدَ ذلِكَ طاعاتِكَ وَإنْ كَثُرَتْ فى جَنْبِ مِنَنِهِ.

وَرُؤْيَتُكَ ذِكْرَكَ لَهُ تُورِثُكَ الرِّيا وَالْعُجْبَ وَالسَّفَهَ وَالْغِلْظَةَ فى خَلْقِهِ وَاسْتِكْثارَ الطّاعَةِ وَنِسْيانَ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ.

«وَلا يَزْدادُ بِذلِكَ مِنَ اللّهِ إلاّ بُعْدا وَلا يَسْتَجْلِبُ بِهِ عَلى مُضِىِّ الْأَيّامِ إلاّ وَحْشَةً. وَالذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ خالِصٌ بِمُوافَقَةِ الْقَلْبِ، وَذِكْرٌ صادِقٌ يَنْفى ذِكْرَ غَيْرِهِ كَما قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله إنّى لا أُحْصى ثَناءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ.

فَرَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله لَمْ يَجْعَلْ لِذِكْرِهِ مِقْدارا عِنْدَ عِلْمِهِ بِحَقيقَةِ سابِقَةِ ذِكْرِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ قَبْلِ ذِكْرِهِ لَهُ فَمِنْ دُونِهِ أَوْلى.

فَمَنْ أَرادَ أَنْ يَذْكُرَ اللّهَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ ما لَمْ يَذْكُرِ اللّهُ الْعَبْدَ بِالتَّوْفيقِ لِذِكْرِهِ لا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلى ذِكْرِهِ».

«قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: مَنْ كَانَ ذَاكِرا لِلّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَهُوَ مُطيعٌ وَمَنْ كانَ غافِلاً فَهُوَ عاصٍ»

الذكر الحقيقي:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

من كان ذاكراً لله حقاً فهو عبد مطيع يأتمر وإنسان حلّ في مدار طاعة الحق تعالى وقد استنار قلبه وروحه بنور الهداية؛ إذ الذكر الحقيقي للحق تعالى، ينبّه الإنسان أنه بمحضر الله وأنه تعالى مطّلع على كل شؤون ظاهره وباطنه ولا يخفي ويستر أي شيء عن نظره؛ حينئذٍ في هكذا حالة ومع هذا الذكر والالتفات، يتجلى حياء الإنسان وهو من الدواعي الإلهية المباركة جدًا، ويسود مملكة ظاهر وباطن الآدمي ويضع الإنسان في فضاء الطاعة وترك الذنب.

الذكر الحقيقي هو الذي يؤدب الإنسان بآداب الحبيب، يصنع كائناً إلهياً وعنصراً ربانياً.

الذكر الحقيقي هو الذي يوقف الإنسان على شؤون الحق ويؤدي به قهراً إلى التحليق في ملكوت العالم.

الذكر حقيقة تفتح على الإنسان باب التوبة وتجعل الآدمي في فئة التائبين وهم محط حبّ وعشق الحبيب.

الذكر حقيقة تغلق على الإنسان باب الذنوب أجمع وتسد الطريق أمام تغلغل شياطين الداخل والخارج.

الذكر حقيقة توفّر لتظاهر الكرامة، الشرافة، الأصالة، المعرفة، الحقيقة، الواقعية، الصواب، الصدق والصفات الحسنة والأخلاق الإلهية في صحيفة وجود وكيان الآدمي.

الذكر حقيقة تنقذ الآدمي من أمراض القلب والنفس المهلكة وتجعل الوجود الإنساني منبعا لتجلي الكمالات والحسنات.

الذكر حقيقة تضع الآدمي في مسار العلم والمعرفة والرؤية والوعي، وتوفّر بذلك إطلاع الإنسان على الأنبياء والأئمة عليهم السلام والأولياء والعرفاء وتدخل الإنسان في مجمع الروحانيين وتبلغه إلى منابع الفضيلة وترفع تعطش الإنسان لوجدان الحقائق حدّ اللانهاية.

الذكر حقيقة تخرج القلب من القساوة والظلام وتجعل هذا العضو العظيم القدر، عرشاً إلهياً وتملأ إياه رقة وعطفاً وحناناً تجاه عباد الله.

الذكر حقيقة تجعل في القلب مشعلاً من نور الحق وفي ظل هذه الإنارة حيث يغدو الإنسان لاحظاً الماضي، مستشرقاً المستقبل وشيء فشيء تبتعد الحجب الظلمانية من أمام باصرة قلبه ومآلاً تصنع من الإنسان كتلة من نور وجوهراً مضيء.

الذكر حقيقة يستحكم بها الإيمان في القلب وتخف بها الروح للتحليق في فضاء القدس وتتأدى إلى بروز سعة الصدر وهي من أعظم النعم الإلهية.

الذكر حقيقة يجلب الإنسان إلى وادي محبة الرفيق الأعلى وبرفعها ستارة التكدرات، توفّر للإنسان أرضية الكشف والشهود وعندئذٍ يوفّق الإنسان إلى مشاهدة أنوار العظمة والجلال والجمال المطلق ويستغرق كل كيانه بمشاهدة الجمال المعنوي للحبيب تعالى بنور العشق، فيغض الطرف عن العالم ولا ينشغل بغير النظر إلى مشاهد بزم الأنس وإن وجود هذا العشق والحب الناشي عن الذكر الحقيقي هو العلاج لكل آلام الإنسان المعنوية.

يقول علاء الدولة السمناني في هذا الشأن:

يا عشق طبيب دائنا دواء مجنون العشق

أنت ماء حياة الخلد تأتي من كوثر لطف الإله

عنقـــاء هـــواء اللامكـــان من الوكر الخاص الكبر يـأتي
بباصرة العقل وعين الإيمان مثـــل الكحـــل أنـــت
الجوهر مثل الصوف أنـت كالـدرّ وهذا الجسم كالنحاس أنت الكيميـاء
كالعرض الجـوهر والجسـم قائمـة بـك مثـل قوّتنـا
أنت الجليس الخـاص للأصـدقاء أنـت محـرم سـرّ الأنبيـاء
أنت الريش لجناح الطائر الجبرئيلـي أنت المركب في البراق المصطفوي

الذكر حقيقة تنبّه الإنسان إلى تفضلات وألطاف وتودّدات الحق تعالى، الألطاف والتفضلات التي تجلى إشراقها على الآدمي من صلب الأب واحتضنت حياة الإنسان من أوله لآخره، الألطاف والتفضلات التي تظاهرت تأثيراتها في رزق الإنسان في سلامة وعافية الجسم والروح، في محفوظية الآدمي عن شتى أنحاء الشرور والأخطار.

التنبّه الحقيقي لهذه الألطاف والتفضلات، يؤدي بالإنسان لا محالة إلى الاستسلام تجاه الرفيق الأعلى ويُنير كيان الإنسان بأنوار العبادة والعبودية له تعالى ولا يَدَعُ المرءَ يتخلّف عن طلبات حبيبه الحقّة، ويصاب بالذنب والمعصية.

نعم، إن كان الذكر مؤسّساً على الحقيقة والصواب واصطبغ بالصدق والصفاء، فسيتسبب في انقياد الإنسان وطاعته، فطهارة الروح ونزاهة الفكر وخلوص النيّة والتهذيب في العمل هو نتاج الذكر الحقيقي.

الذاكر الحقيقي، عامل بأوامر المولى وهو أيضاً نقيّ من التلوّثات والمعاصي، الذاكر الحق إضافة لطاعته لله تعالى، فإن حرارة وحلاوة ذكره توقظ الغافلين وتهدي الذين أضلوا السبيل.

العارف الوَله الإلهي القمشه اي، ذلك المترنّم بمغنى الروح والصدّاح ببستان الود والوفاء، وفي مجال ان ذكر الذاكرين الحقيقين، يوقظ النائمين أيضاً، نظم في كتاب

(النغمة الإلهية) قصة بمضمون ما يلي في شرح قول مولى الموالي في خطبة المتقين: «أنفسهم عفيفة»[1].

بلغني أن امرأة ذات جمال ... فقيرة معدمة في عام جدب
كان في حجرها أطفال مضطرون ... كان قوتهم الماء من العين الرطبة
لأجل الصغار بتروّي وتشوّش بال ... توجهّت نحو باب جارها
عسى أن جارها الحداد الشهم ... يهبها قوتاً وتتحرر من الغم
فتنال مرادها من ذلك الواجد ... يغدو ما، وجهها خبرٌ الأيتام
وإذا تقع عين الجار دفعة ... لدى الحديث على ذلك البدر
ما إن شاهد الحداد وجهها ... طمع في حسن محسودة البدر تلك
اشتعلت في نفسه نار الشهوة ... هذه النار التي أحرقت آلاف البيوت
أصبح قلبه في شبكة طرة ذلك البدن الوردي ... مسخراً كالطائر المتعب في المصيدة
صار الأسد جيداً لظبي العين ... معاذ الله من الشهوة والغضب
كم من القلوب ذهبت بنظرة ... التُرس لطف الحق تعالى من سهم هذا الإبهام
نظر الباصرة أتلف أرواحاً ... من جور العين دخل الغمّ على القلوب
الفرض أن طائر العقل اصطاده الهوى ... يا عجباً عنقاء الروح اصطادها ذباب
صار قلبه معلّقاً بتلك التي كالحور ... تعالى الله أي قيد هو الحب
خسر دينه وقلبه تماماً ... إذ يحرق برق الشهوة نتاجه

١- نهج البلاغة: الخطبة ١٨٤.

لما سمع حاجات المرأة المهمومة أجاب ببشارة ووجد مؤمّلاً
قال يا روح لو تسعفين حاجتي أهبك كل ما تحتاجين إليه
قالت استح يا منعم من الله قال يغفر الله ذنبنا
قالت تذكر الشرع والدين قال فرّحي هذا القلب وصالك
قالت عُدْ من طريق الشيطان قال يا ريحانة أقلّي التدلّل
قالت استمع لوعظ القرآن قال اكرعي من قدح الغفران
قالت تفكر من ماء عينيَّ قال لا تشعلي ناراً بهذا القلب الجريح
قالت يا حداد ليكن قلبك حديداً خف من نار قهر الاله
دع صفو ثوبي لله لا تلوثني بذنب الشهوة
يا فتى افعل فتوة هذا اليوم اقتل النفس لا توقد العصيان
أجابها يا بدر بهيئة الورد الذنب يعذر فيها مآلاً بالتوبة
بماء توبة العين أيها الرفيق كالبدر تطفأ نار مائه جحيم
لما رأت أن بالوعظ والاستعفاف والعويل لا يصد عيناً عن السوء
فخوفاً على حياة أطفالها لانت، لكنْ أكل الحزن روحها
قالت أوافق لكن بهذا العهد أن يكون فراشك معي في خلوة
لا يكون غيرنا أي أحد لا تكن عين ناظر، على الباب
قال يا روح تيقّني أن هكذا فعل ينبغي في خلوة عن أي صاحب وأغيار
لما هيّأ بساط الأنس بدار خلوة مع رفيق الحسن ذاك

قالت التي كالبدر ايهاالرجل الـوفي قلت ليس غيرنا غيرك، ديّار
بهذا المحفل الآن اضافة لك ولـي فأن الله السبحان المنـان، ينظـرُ
في خلوة يحضرها ذلك الملـك لا ينبغي هذا الفعل أيها الرجـل الـواعي
ما ان سمع هذا الكلام ذلك الفتى حتى أنّ بحرقة مـن قلـب بـارد
أثرت هذه الموعظة في روحـه بحيث قلبت ذلك المشناق ظهراً لوجه
نـــدم وتـــأوّه وأحســـن على تلك المرأة الطاهرة الذيل
ربّه أيضاً جازاه جزاء المخلصـين فتح عليه باباً من اللطف الخـاص
جعل النار بيده بارداً هيّنة كما النار ائتمـرت للرجـل بكفّـه
انه نال الكرامة بترك الهـوى نالها من خشية قهر الالـه[1].

نعم ان الشخص المتمحور على نور الذكر الحقيقي لدى تواجهه مع الأوامر الإلهية، فهو ممتثل لها ولدى تواجهه مع الذنب يحافظ على نزاهة و ورعه كما ويحفظ الآخرين عن الهبوط في وادي الهلاك والضلالة.

لنسع لأجل كسب المعرفة بالحق تعالى والتعرف على الانبياء والأولياء ومعرفة الأئمة الطاهرين عليهم السلام واكتناف محتويات الوحي، فحصيلة هذه المعرفة وهذا التعرف، هو الذكر الحقيقي وهكذا ذكر يجعل الإنسان في عداد المطيعين وينأى به عن فئة الملوّثين والعصاة.

الذكر إن لم يكن دافعاً للإنسان نحو الحقائق، فهو الغفلة عينها ولن تنتج عن الغفلة سوى المعصية !! وبتعبير الإمام الصادق عليه السلام: من كان ذاكراً لله على الحقيقة فهو مطيع

١- الهي القمشه اي.

ومن كان غافلاً عنه فهو عاصٍ.

توضيح الذكر من لسان العرفاء:

إنّ أهل القلب، أولئك العشاق الذين نالوا الحقائق في صراط الحق المستقيم واختاروا الجيب الحقيقي على ما سواه وكانت قبلتهم خصوص وجه الرفيق الأعلى كانوا يديمون الذكر طول حياتهم الدنيوية بمعنى انّ قلبهم وروحهم غدا مجلى أنوار حضرة الحبيب وقضوا كل عمرهم في مكافحة الأهواء ولم ير منهم غير طاعة الحبيب، طرحوا بحوثاً كثيرة تحت عنوان الذكر مما لا يتسع لبيان وتفصيل جميعه هذا المختصر ونكتفي بالاشارة إلى مجمل عن أقوالهم وهي قد أقيمت على الكتاب والروايات.

ورد في «المناقب»[١] لابن شهراشوب:

اعلم ان الحق تعالى لم يوص اهل الحقيقة بشيء كما أمر بذكره تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[٢].

الذكر الكثير، هو الحضور والمحبة، من احب شيئاً، وهب نفسه له.

قال رسول اله ﷺ: «من أحب شيئاً أكثر ذكره»[٣].

ما لم يستشعر القلب حب الله تعالى، لن ينبعث اللسان بذكره، فالذكر اذن يتبع المحبة والحب فعل القلب، الحق تعالى إذ أراد أن يشرك الظاهر بالباطن في الحب، يضع المحبة في باطن العبد ويتحقق له ذكر الظاهر بحيث يكون ذكر الظاهر باللسان

١- المناقب: ٥٠.

٢- الأحزاب ٣٣: ٤١.

٣- كنز العمال: ٤٢٥/١، الخبر ١٨٢٩.

والحبّ القلبي باطنياً وكلما زاد الذكر، زاد خطوة في القربة من الحق تعالى.

يقول رسول الله ﷺ لأصحابه:

وبادروا إلى رياض الجنّة، قيل: يا رسول الله وما رياض الجنّة؟ قال:

«حَلَقُ الذكر»[١] فعليكم بمداومة ذكر الله تعالى، لا تحرّكوا اللسان صباحاً ومساءً بغير ذكر الله.

من أراد أن يعرف منزلته لدى الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله تعالى في قلبه ذلك أنه تعالى ينزل العباد لديه المنزلة التي لعظمته تعالى في قلبه وتلك المنزلة القلبية تتحصّل في القلب بكثرة الذكر.

لذا قال الأستاذ أبو علي الدقاق:

الذكر منشور الولاية، كل من أمضي له الذكر، أعطي المنشور وكل من أُخمل ذكره، تمّ عزله.

واذا ورد شخص سبيل ذكر الحق تعالى، انقطعت عنه كل التعلقات، يقول الله تعالى:

«أنا جليس من ذكرني»[٢].

و لا يرد مجلسه غيره.

يقول ذو النون المصري:

من ذكر الحق تعالى بحقيقة الذكر، ينسى كل شيء حين الذكر وثمة مشرف للذكر ليس لأي عبادة أخرى وذلك الشرف ان الذكر ليس موقّتاً وباقي العبادات موقّتة.

جاء جبريل إلى الرسول ﷺ قائلاً:

إن الله يقرأك السلام ويقول: اعطيت أُمتك مالم أعطه أيَّ أُمة من قبل، قال: ما

١- وسائل الشيعة: ٢٢٣١/٧، الباب ٥٠، الحديث ٣.

٢- الكافي: ٤٩٦/٢، باب ما يجب من ذكر الله، الحديث: مفتاح الفلاح: ٢٧١.

ذلك؟ قال: ذكره تعالى في كل حين وعلى كل حال.

الذكر على ثلاثة أنواع:

ذكر اللسان، ذكر القلب، وذكر السر.

أما ذكر اللسان فواحدة بعشرة وذكر القلب ثوابهُ ومكافأته معلومة، لكن ثواب ذكر السر، ليس يُعدَّ.

ذكر اللسان هو منشور:

﴿فَاذْكُرُوا اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾[١].

أما وسام ذكر السر:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢].

ذكر اللسان مما يتوفّر عليه كل أحد، لكن ذكر القلب خاص، لا يعطاه غير الخاص. أولياء الله، لا يفارقون الأذكار الثلاثة دائماً، ما يجري على لسانهم، حتى لدى محادثة الناس عين الذكر، ذلك أنهم لا يقولون غير الحق وهكذا ذكر لساني شعاع من ذكر القلب وذكر القلب كتابع لذكر السِّرّ.

ذكر القلب الذي يتلو ذكر السر له عزّ عظيم.

كان نبي الإسلام العظيم ﷺ يقول:

«خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيّ وَخَيْرُ الرِّزْقِ ما يَكْفى»[٣].

والذكر الخفي ذكر القلب والقلب الذاكر هو الذي في الحقيقة مجلى أنواره تعالى ومنزه عن مطلق التلوثات.

١- البقرة ٢: ٢٠٠.

٢- التوبة ٩: ١٥٢.

٣ مجموعة ورام: ٣١/٢.

لكن ذكر السرّ وهو أرفع الأذكار، فإن الذاكر فانٍ وبكل كيانه في مفهوم ومصداق الذكر، سألوا إبن العطار ماذا يفعل الذكر بالأسرار؟ قال: الذكر شمس إذ تطلع من برج سرٍ، تحرق في الذاكر آثار البشرية، كي يكون الباقي عظمة وجلال المذكور، ليس إلا.

يقول العارف المتحرق الروح، الميرزا حبيب الله الشهيدي الخراساني، في هداية الإنسان إلى هذا المعنى:

بالله الواحد، استشعر نفسك	تجاوز الذات انظر إلى الله غير الـ (أنا) و الـ (أنت)
متى اثنينية	من قول (ألست) حتى (بلى)
أنا من أكون بمعزل عنك، بغيرك لست	أنت صوت النداء أنا رجع الصدى
مع ذاتي بلا ذات	معك ومنفصل عنك
أنا كل آن تحدث القيثارة نغمتين	إحداهما نغمة (ألست) والأخرى نغمة (بلى)
لقلبي كل آن ميدان	احدهما عيد الغناء والآخر عيد البقاء
عيد سعيد لبس جديد	كل حين أنا كل حين أنت
من سبيل الخفاء في محفل الروح	يقولون اذهب يقولون تعال
لنا الفتوح من يُمن الروح	صار وقت الصبوح نودي حيّ على
يا من هو لي سرٌ وسرور	يا من هو لي نور وضياء
يا من هو لي موت ونشور	يا مَن هو لي روحٌ وبقاء
الإنسان الذليل مع هذه الثرايين والدم	له باطناً وخارجاً منزلان
هذا عالم البدن ذاك عالم الروح	هذا الفراق عينه ذاك عين اللقاء
هذا مصيدة الغرور ذاك بزم السرور	هذا مقر النفاق ذاك بزم الصفاء

المداومة على الذكر، أي تذكر الحق تعالى في كل شؤون الحياة والتوجه علمياً

وعملياً إلى أوامر إله العالمين رب الأولين والآخرين والتناغم مع حقائق العالم الأصيلة، تذهل الإنسان عن نفسه حدَّ أن يستسلم كل كيانه إلى الحبيب تعالى ويبطل كل اجتذابات غير الحبيب المتعال ولا يدع في ساحة حياة الآدمي اجتذاباً غير الذي له تعالى، في هذه الحالة حيث يعدو الإنسان كائناً آخر ويتصل بملكوت العالم، يخرج عن مدار التأثيرات المادية ويلامس أعلى علّيي الحقائق.

عندئذٍ نجد المرء يتحرك بنحو عجيب صوب الحقائق ولا يعرف كلاً أو مللاً في انفاذ شتى البرامج الإلهية.

في ها الحال حيث ينفر بشدة من المعصية مجتهداً بعشق في انجاز الأعمال الصالحة.

حينئذ حيث يفنى عن ذاته ويبقى ببقاء الحبيب تعالى ولم يُعد غيره في وجهة همة المرء. حينئذٍ يرى الزوجة والأبناء، الأهل والعيال، المال والمنال، الجاه والمقام وكل ماله صلة به، كل ذلك يراه كوسائل تعين الإنسان على الوصول إلى المولى.

حينئذٍ حيث لا يغفل ولو للحظة عن الفقراء والمساكين والمعدومين والبؤساء ومنكسري القلوب وأهل الحال ولا يسمح أن تتلف لحظة من عمره هدراً.

حينئذٍ حيث يرتجف من سماع ذنب الآخرين، فضلاً من أن يتلوث هو نفسه بالذنب ويلتذ من عبادته بما يفوق كل الالتذاذات إذ يحين وقت اقامة الفرائض، يعرض عن كل أحد وكل شيء، ساعياً إلى محضر الحبيب المتعال.

حينئذٍ حيث تتظاهر فيه آثار صفات الرفيق الأعلى ويترشح من كل أبعاد وجوده كعين الربيع، الخير والإحسان.

حينئذ حيث يفهم الذاكر من الذكر وبتعبير أوسع العابد من العبادة مفهوماً غير ما يلتفت إليه عامة الناس.

حينئذٍ حيث تجلّى المحبوب في القلب ويستشعر الآدمي في ضميره وفي بيت قلبه الثمين جداً عشقاً ملتهباً وحرقاً تجاه عشيق الخليقة الحق.

حينئذٍ حيث لا يشعر الإنسان بليل ونهار، بإسبوع وشهر، بسنة ودهر، المهم لديه، أن يمتلئ إناء العمر وان كان لحظة؛ برضا المحبوب وأنس حضرة قدسه.

حينئذٍ حيث يُدرك، ان الذكر للعبادة بمنزلة الروح وان الذكر هو الذي يُكسب العمل الخلوص وان من دون الذكر فالعبادة لا قدر لها.

حينئذٍ لا تصدر العبادة عن الإنسان إلا شوقاً للحبيب ولا داعي المكلف من العبادة سوى أداء شكر و جلب رضا الحبيب، وهكذا عبادة فقط، ذات أرفع قدر وفي مسار هكذا عبادة حيث تتفتح كل القابليات الإلهية الباطنة في مصنع كيان الإنسان.

العبادة العرفانية:

حقاً إن العبادة لو تمت على أساس عشق العبد للمولى فهي عبادة ومن هكذا عبودية تنفتح على الإنسان كل أبواب خير الدنيا والآخرة وتغلق عنه كل أبواب شر الدنيا والآخرة.

يقول الشهيد المطهري بهذا الخصوص: تصورات الناس عن العبادة متشاكلة ومختلفة، العبادة في رأي البعض كالمعاملة ومعاوضة عمل بأجور، أن تبيع عملاً وتستلم أجراً كما أن عاملاً يستهلك طاقته يومياً لصالح من آجره ويأخذ منه أُجوراً لقاء ذلك، العابد أيضاً يجتهد لله ويقوم ينحني.. وطبيعي أن يطلب أجوراً، طبعاً ذلك الأجر إنما يُعطاه أُخروياً. وكما أنّ جدوى العمل بالنسبة إلى العامل تتمثل في خصوص ما يتقاضاه من مؤجره وإن لم تكن أُجور فقد ذهبت جهوده هدراً، فائدة عبادة العابد في نظر هذه الفئة أيضاً، ذلك الأجر والمكافأة التي تُسلّم إليهم في الآخرة في هيئة بعض البضائع المادية.

لكن كون ما يعطيه رب العمل من أُجور فلأجل ما يستفيد من عمل العامل وأنّ ربّ الملك والملكوت ماذا يستفيد من عمل عبده الضعيف العاجز كما أنه لو فرضنا تفضله وهبته الأجور والمكافأة. فلماذا يُعطي إليه هذا التفضل دون بذله قدراً من طاقة العمل؛ مسألة لا يستشعر هكذا عباد انهم يواجهونها اطلاقاً.

في تصور هكذا أفراد، فإن نسيج العبادة، هي الأعمال البدنية والحركات المحسوسة الظاهرية هذه مما يتم باللسان وباقي أعضاء البدن.

هذا الانطباع الخاص عن العبادة هو طبعاً عوامّي وجهالي وبتعبير ابن سينا في النمط التاسع من الاشارات فهي دون معرفة بالله ولا تصدر إلا من العوامّ والقصّر.

التصوّر الآخر عن العبادة هو التصوّر العرفاني؛ وفق هذا التصوّر فليست قضية العامل وربّ العمل والأجور مطروحة بنحو ما هو متعارف بين العامل ورب العمل، وليس يمكن أن يطرح في هذا التصوّر فالعبادة سُلَّم القرب، معراج الإنسان، تعالي النفس، تحليق الروح نحو المركزي اللامرئي للكون، تربية القابليات الروحية ورياضة القوى الملكوتية الإنسانية، انتصار الروح على البدن، ارفع ردّ فعل شاكر إنساني تجاه خالق العالم، ابداء شغف وعشق الإنسان بالنسبة إلى الكمال المطلق والجميل على الإطلاق وختاماً السلوك والسير إلى الله.

وفق هذا التصور، للعبادة هيكل وروح، ظاهر ومعنى، ما يؤدى باللسان وباقي أعضاء البدن، هيكل وقالب وظاهر العبادة وأما روح العبادة و معناها فشيء آخر، روح العبادة مرتبطة تماماً بما لدى العابد من مفهوم عن العبادة وبنمط تصوره عن العبادة وبدوافعه نحو العبادة وبما يستفيده، وما هو حظه عملياً من العبادة وأنّ العبادة إلى أي حدٍّ، سلوك إلى الله وتقدّم على بساط القرب.

إننا حين ندقق في الآيات والروايات وخاصة في (نهج البلاغة) نجد أن الإمام علي عليه السلام تصوره عن العبادة هو التصور العرفاني، بل انّ كلمات وعبادات الإمام علي عليه السلام العرفانية بعد القرآن المجيد وسنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هي المنبع ومصدر الاستلهام للتصورات العرفانية عن العبادات في العالم الإسلامي.

كما نعلم فإن أحد الأدعية الرفيعة المتعالية للأدبيات الإسلامية سواء في العربية أو الفارسية هي توجهات الإنسان العبادية والعاشقية أمام الذات الأحدية.

قد نتجت أفكار دقيقة وظريفة تحت عنوان الخطابة، الدعاء، التمثيل، الكناية، في

هذا الخصوص مما يستحسن حقاً ويعتزّ به.

مقارنة بأفكار ما قبل الإسلام في مناطق الدول الإسلامية، يمكن ملاحظة أي قفزة عظمى أحدثها الإسلام في الأفكار باتجاه العمق والسعة واللطف والرّقّة، الإسلام صنع من أناس يعبدون الصنم أو الإنسان أو النار وكنتيجة لقصر الفكر، يتعبّدون لمجسمات من صنعهم هم، أو ينزلون الله تعالى إلى حدّ أب إنسان ما، و يوحّدون بين الأب والابن أو كانوا يرون تجسّم أهورا مزدا وينصبون مجسّماته كل مكان، أنتج منهم أناساً استودعوا أدمغتهم أكثر المعاني تجرداً وأرق الأفكار وألطفها وأرفع التصورات!!

الآن، ولكي يتضح نوع تصوّر (نهج البلاغة) عن العبادة، نذكر نماذج من كلمات الإمام علي عليه السلام ونفتتح الحديث بجملة تضمنت اختلاف تصورات الناس عن العبادة:

«إِنَّ قَوْما عَبَدُوا اللّهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجّارِ، وَإِنَّ قَوْما عَبَدُوا اللّهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ الْعَبيدِ، وَإِنَّ قَوْما عَبَدُوا اللّهَ شُكْرا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرارِ»[1].

«لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللّهُ عَلى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَنْ لا يُعْصى شُكْرا لِنعَمِهِ»[2].

ومن كلماته ايضاً عليه السلام:

«إلـهى مَا عَبَدْتُكَ خَوْفا مِنْ نَارِكَ وَلا طَمَعا فى جَنَّتِكَ لكن وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتُكَ»[3].

نعم، حينما كان كيان الإنسان مجلى عشقه تعالى، فلن تكون عبادة الإنسان سوى

١- نهج البلاغة: الحكمة ٢٣٧.

٢- نهج البلاغة: الحكمة ٢٩٠.

٣- بحار الأنوار: ٦٧/ ١٨٦/ الباب ٥٣.

العبادة الحبّية العرفانية.

تأسيساً على هذا العشق كان كيان الإنسان بأجمعه، كل ذرات وجود الآدمي، كل ذلك طالباً إياه ولا يرى في جميع جوانب وجود الإنسان إلا هو.

نظراً إلى هذه الحقيقة، فالإنسان في حصن التوحيد الحصين وليس بمقدور أي عدوٍّ الاضرار به في أي مجال، إذ الإنسان مستغرق في عشقه وذكره أيُّ ما أراد العدوّ أخذه من الإنسان، فبما أن الإنسان يرى ذلك من محبوبه وعشيقه، فإنه وبكل ما أوتي يثبت ويقاوم حفاظاً عليه.

حينئذٍ لا يرى من المرء سوى الحب لله وذكره تعالى والعبادة له وأيَّ فرحة أصابت أي شعرة أو ذرة من كيان الإنسان فلن يسمع من جسم و روح الآدمي سوى نداء (يارب)، إن حكاية الإنسان مع الحبيب تعالى كحكاية مجنون الذي أصيب بالحمّى لعشق ليلى، فقال له الطبيب: ينبغي أن تفصد كي بعد خروج مقدار من الدم يرتاح جسمك من حرارة الحمى، بيد أنّ مجنون لم يسمح بذلك إطلاقاً، إذ كلّ شريان أُريد فصده، كان يقول لا تفصد هذا فأنه مليء من عشق ليلى!!

الفقيه العارف، المولى أحمد النراقي نظم هذه الحكاية كالتالي:

جرى القضاء بأنْ نَحَلَ مجنون من الحمّى ... أمر الطبيب الرؤوف بأن يفصد

جاء الحجّام وجلس إلى جنبه ... أخذ آلة الفصد وشدّ ساعده

قال مجنون بعينين تجريان دماً ... أي شريان تفصده يا فلان

قال هذا الشريان؛ قال مليءٌ بليلى ... شرياني هذا مليءٌ جوهراً وملؤه دمٌّ

كيف تجري آلة القطع على ليلى ... نفس مجنون فداء لليلى

قال الحجّام، فإني أفصد ذاك الشريان الآخر ... أريح روحَك من المحنة والعناء

ذاك أيضاً موضع لليلى ... منزل سروي الناهض

قال أفصد تلك اليد الأخرى قـــال فيهـــا مقـــر ليلـــى
عندئذ أعطى ذلك الفصاد درهماً قال الآن خذ أجرك أيها الأستاذ الفـذ
إن ليلى مقيمة بكل شراييني كل أصل شعرة فيّ فهو مقامها
ماذا اقول ما الشريان وما الأصـول ما الرأس وما الروح من هو مجنـون
أنـــا لســـت مجنونـــاً مهما أكن فلست أنا، إني ليلى
اذ تفصد مني مآلتك شرياناً تقـع آلتـك علـى ليلـى اَنـاً
قل ليكن بدني متعجباً سقيماً فلتبعد عني السوء عـن ليلـى
إن احترقت من التوجّع والحمّى يا روحي لا تُصـبْ بحمـى عشـيقتي
إنْ أنا ومائـة مثلـي هلكـوا ما دامت ليلى باقية فما الضير
أنا إن متّ من ضيق النفس هذا قل ليسلَمْ راس ليلـى وكفـى
قد جعلت نفسي أضحية لها أرواح مائـة مجنـون فـداها

ذكر الله:

تتجذر كل الآثار المعنوية الأخلاقية والاجتماعية للعبادة في أمر واحد، هو ذكر الله وإغفال غيره.

يشير القرآن الكريم في موضع إلى الأثر التربوي وبعد التقوية الروحية التي تتوفر عليها العبادة، ليقول:

﴿إِنَّ الصَّلوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[1].

ويقول في موضع آخر:

١- العنكبوت ٢٩: ٤٥.

﴿أَقِمِ الصَّلوةَ لِذِكْرِى﴾ [١].

اشارة إلى أن الإنسان فيما يصلي ذاكراً الله، منتبه دائماً أنّ ذاتاً عالمة بصيرة تراقبه ولا ينسى انه عبد.

ذكر الله واستشعار الله وهو الهدف من العبادة، يجلو القلب ويكسبه صفاء ويهيئهُ للتجليات الإلهية.

يقول الإمام علي عليه السلام بشأن ذكر الحق تعالى وهو روح العبادة:

«إِنَّ اللّهَ تَعالى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعانَدَةِ وَما بَرَحَ لِلّهِ عَزَّتْ آلائُهُ فى الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفى أَزْمانِ الْفَتَراتِ رِجالٌ ناجاهُمْ فى فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ فى ذاتِ عُقُولِهِمْ» [٢]

في هذه الجمل يتم بيان الميزة العجيبة والتأثير البارز لذكر الحق تعالى في القلوب، حدّ أن يصبح القلب مؤهلاً للاستلهام والتحدّث مع الله سبحانه وتعالى.

في تتمة هذه الخطبة تطرح الحالات والمقامات والكرامات مما يتحصّل لأهل المعنى في ضوء العبادة؛ من ذلك قوله:

«فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ وَ مَجالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وَ قَدْ نَشَرُوا دَواوِينَ اَعْمالِهِمْ، وَ فَرَغُوا لِمُحاسَبَةِ اَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَ كَبِيرَةٍ اُمِرُوا بِها فَقَصَّرُوا عَنْها، اَوْ نُهُوا عَنْها فَفَرَّطُوا فيها، وَ حَمَّلُوا ثِقْلَ اَوْزارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلالِ بِها، فَنَشَجُوا نَشِيجا، وَ تَجاوَبُوا نَحِيبا، يَعِجُّونَ إِلى رَبِّهِمْ مِنْ مَقامِ نَدَمٍ وَ

١- طه ٢٠: ١٤.

٢- نهج البلاغة: الخطبة ٢١٣.

اعْتِرافٍ لَرَاءَيْتَ اَعْلامَ هُدىً، وَ مَصابِيحَ دُجىً، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلائِكَةُ، وَ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَ فُتِحَتْ لَهُمْ اَبْوابُ السَّماءِ، وَ اُعِدَّتْ لَهُمْ مَقاعِدُ الْكَرامَاتِ فِي مَقامٍ اطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَ حَمِدَ مَقامَهُمْ، يَتَنَسَّمُونَ بِدُعائِهِ رَوْحَ التَّجاوُزِ».

نعم، فذكر الحق يقتضي ان تنعكس تجليات وفيوضات المحبوب في قلب الإنسان وتهبه حالا و وضعاً آخر، وأن يوجد تحولاً وتغييراً كلياً في جميع زوايا وجود الإنسان.

فذكر الحق يؤثر تأثيراً لدرجة أن القلب يتنفر من جميع الذنوب، ويستلذ من الطاعة والعبادة ايما لذة.

من وجهة مولى العاشقين، أمير المؤمنين، محور العارفين، قطب العارفين، علي عليه السلام، فدنيا العبادة هي دنيا أُخرى، دنيا امتلأت لذّة، لذة لا تقارن بها لذة، الدنيا المادية، دنيا العبادة ملؤها التوثّب والنشاط والسير والرحلة، لكن سير ورحلة لا تنتهي بمصر والعراق والشام أو أي مدينة أُخرى أرضية، تنتهي بمدينة لا اسم لها: ليس لدنيا العبادة ليل ونهار؛ إذ كلها ضياء، لا ظلام أو حزن أو تكدّر فيها، مقصورة على الصفاء والخلوص، في رأي علي عليه السلام ما أسعد من يلج دنيا عظمة العبادة و يلامِسه نسيم هذه الدنيا الروحاني، من ولج هذه الدنيا، لا يهتم بعد ذلك أنه يطأ في دنيا المادة والجسم، الديباج أو الرخام.

يقول عليه السلام في هذا الخصوص ما معناه:

هنيئاً لمن ادى الفرائض لربه، فالله عونه، والحمد والتوحيد عمله.

ما اسعد أولئك الذين كان الله عونهم كان عملهم بالحمد وقل هو الله

ما أسعد اولئك الذين في الصلاة دوماً جنّة الخُلْد سوقُهم[1].

١- بابا طاهر.

يحطّم المحن والمآسي كتحطيم حجر الطاحونة الحبوب تحتها، ينأى في الليل عن النوم ساهراً، حين يهجم جيش النوم، يفترش الأرض ويتوسّد يده، من الثلّة الذين أذهب عن أعينهم النوم ذكر يوم المعاد، تعتزل أبدانهم مضاجعهم، شفاههم تتحرك بذكر ربهم بصوت منخفض، تزول سحابة ظلام ذنبهم بدوام استغفارهم، انهم حزب الله، هم المفلحون.

بتعبير الوَلِهِ المتحرق المرحوم (روشن):

رحل بوادي العشق فخر بني آدم

بغاة العشق لا خبر لهم عن العالم

ليست مرحلة الشوق دليلاً للنفس

تائهو السبيل مرشدوا بعضهم

يحتضنون ألماً قاتلاً لا ينبغي إخفاء السر

إذ هم لتنّور القلب معنى مرآة الكون

مع كل التلوّث أطهر من الجوهر

مع كل الذبول أجدّ من قطرة الندى

لو أمطره سيوفاً على رأسهم شاكرون

لو أحرقهم البرق إن دلّ على سعد، ثم سعداء

محتفلون جماعة السماويين

دون شفة وفم ولسان متواكبون

جلساء بعض (روشن)، لا تلوِ وجهك عن هذه الباب إذ المستعطون إياه

راحة محنتك مرهم جرحك.

ليس بدعاً أن يقال ان الذكر القلبي له تعالى هو أساس جميع الحقائق وجذر كل الكمالات وعلل حركة الإنسان في قوس الصعود، ولم يكن ذلك قولاً خارجاً عن حدّ الحقيقة.

ذكر الله، نور يصل في ظلاله الإنسان إلى معنى أن العالم هذا ليس حراً ولم يخلق عبثاً وسدى وأنّه هو لم يأت للدنيا لمجرد التنعّم والتلذّذ وتقضية العمر ثم ليموت. ذكر الحق تعالى نور يجلي للإنسان المبدأ والمنتهى ويدلّل للإنسان عظمة الروح الإنسانية ووضح الأهداف ويستجلب الإنسان إلى محضر فيوض النبوة والإمامة ثم يأخذ به إلى بساط سعة بركة العبادة والطاعة لمولى العالم والآدمي.

لو أخذتم على أنفسكم ذكر الحق تعالى، واستغفرتم عبر القلب بجر القلب، فسينتابكم حالٌ غير ما أنتم عليه وستستقرون على منحى غير ما تسكونه الآن.

لأجل إيجاد ذكر الله بمنزل القلب والاستفادة من هذا الذكر، أي الذكر الذي هو أكبر من العبادات جميعاً وحتى الصلاة ﴿ولذكر الله أكبر﴾[1]. أنتم بحاجة إلى مقدمات وفي رأس تلك المقدمات، هو ترك الذنوب الصغيرة والكبيرة.

إن الذنب ظلام وتلوّث وسواد وإذا كانت ستارة الظلام والاسوداد هذه على مرآة القلب، فليس مقدوراً إنعكاس ذكر الحبيب بمنزل القلب وعلى صفحة عظمة مرآة القلب، وما دام المرء على حال الظلام هذا فعباداته وأفعاله قرينة بالبرود والكسل وعدم الرغبة وهكذا عبادات تخلو عن القيمة الإلهية.

أولاً ينبغي بترك الذنب والتسلّط على النفس الأمّارة، وتجلية مرآة القلب وتهيئة القلب لاستقبال ظهور التجليات الإلهية، إذا تنّقى القلب وخلص من الكدر، سيحالفه التوفيق ويستشعر الإنسان بقلبه عشق الحبيب وتسحب جذبة قوية وروحانية الإنسان من عالم المادة إلى عالم الملكوت ومن عالم التراب إلى عالم النقاء ومن هنا حيث إنهاء

١- العنكبوت ٢٩: ٤٥.

آخر نقاط قوس النزول وهو الاستغراق في الماديات البحتة وتتظاهر نقطة حركة قوس الصعود الذي ابتداؤه ترك الذنب وولوج عالم العبادة والطاعة ويوصل المرء إلى آخر درجات قوس الصعود وهو آخر نقاط المعراج الروحي، أي الفناء في الله والبقاء بالله.

في معتقد السالكين، انّ مصدر المعرفة الحقّة هو القلب النقي ليس إلا، واكتساب نقاوة القلب ومحلّ أثمن جوهر ببحر الخلقة أي المعرفة انما يتيسر في ظل الذكر الحقيقي ليس إلا.

نعم، لو تذكر الإنسان الله في كل الشؤون، فإن الله أيضاً ينظر إليه بنظر اللطف في كل شؤونه ويذكره.

﴿فاذكروني أذكركم﴾ [١].

وذكر الله للإنسان هو تجلّى الجذبة الإلهية بقلبه وذلك التجلي وبقدرته اللانهائية يحرّر الإنسان من قيد أنحاء الأمر المادي والروحي والنفسي والأخلاقي، يبلغ به ذروة القدس الإنساني.

قلب الإنسان، مرآة ينبغي أن تتجلّى فيها جميع الصفات الإلهية، إن رأيتم أن الصفات الملكوتية لم تتجلّى فيها، فاعلموا يقيناً أنّ سبب ذلك تلوّث المرآة ويجب السعي لمحو الصدأ والغبار عن صفحتها وليعلم أنّ الصقل الوحيد الذي ينقّي هذه الصفحة الثمينة من الغبار والصدأ هو ذكر الله؛ ذلك أنه ونعمه لطفه على الإنسان، تتأدّى بالإنسان إلى التوبة عن ذنوب الماضي والعزم على ترك المعصية مستقبلاً ويؤدي الفرائض الإلهية ويداوم على خدمة الحق تعالى وخلقه، كما قال الإمام الصادق عليه السلام في اوّل الرواية، بشأن تأثير ذكر الله: «**مَنْ كَانَ ذَاكِرا لِلّهِ عَلَى الْحَقيقَةِ فَهُوَ مُطيعٌ وَمَنْ كانَ غافِلاً عَنْهُ فَهُوَ عاصٍ**».

١- البقرة ٢: ١٥٢.

ليس الفنان الحقيقي، هو الذي يزاول تكرار الكتب والعلوم، الفنان والمجاهد الحقيقي هو الذي بعد تعلّم العلوم وخاصة علم الدين، يبادر إلى تزكية النفس وتنقية الروح وتصفية مرآة القلب من اسودادات الذنوب والجهل، كي تنعكس فيها صفات الحق تعالى.

قد سمعتم الحكاية ذات العبرة، في مجادلة رسامي الروم والصين حيث أدّعى كل من الفريقين أنّه الفنان الأفضل.

أمير البلاد ولأجل الامتحان أعطى كل فريق غرفة للرسم، كي يقضي بينهم على أساس عملهم كانت الفرقتان متقابلتين، مارس الفريقان عملهم.

رسّامو الصين كانوا يأخذون كل يوم من الأمير شتى أنواع الأصباغ ويرسمون، بيدأنّ رسّامي الروم كانوا قد أغلقوا الباب على أنفسهم ولم يطلبوا أي صبغ واكتفوا بصقل الجدار، لما حان يوم الميعاد ووقت الامتحان، حضر الأمير.. شاهد رسوم الصينيين، لكن أفضل منه كانت التصاوير التي أظهرها الروميون على الجدران المصقلة والمعدّلة.

يقول مولانا، بهذا الشأن:

الروميّـــون هـــم العرفـــاء يـــا وَلَـــد

لا بـــــالتكرار والكتـــــاب ولا التفـــنّن

لكـــــنهم صـــــقلوا تلـــــك الصـــــدور

منقاة من الطمع والحرص والبخل والأحقـاد

أهل الصيقل تحرروا من رائحـة أو لـون

اَنـــــاً يـــــرون الحُســـــن فـــــوراً

تركـــــوا الـــــنقش والقشـــــر والعلـــــم

رفعـــــوا رايـــــة عـــــين الـــــيقن

نعم، كما أن المرآة المعدنية إذ تتصدّأ ويعلوها الغبار، تنعدم قابليتها على الاراء، الحسّ الروحاني الباطني أيضاً والذي يسميه العرفاء (باصرة القلب) و(عين الفؤاد) و (نظر البصيرة)، إذ يتلوّث بالتعيّنات والمفاسد المادية، يصبح غير قادر على حكاية نور الأحدية، عالم يُزلْ ذلك الغبار والتلوّث كلياً، وزوال الغبار والصدأ كما تقرّر ذلك الآيات القرآنية والروايات الهامة جدّاً، يتوقف على ذكر الله، ذكراً يسبّب ترك الذنب وأداء الفرائض الإلهية.

قد نظمت أنا الفقير (إلى الله)، بهذا الشأن:

يا من أنت بلسم مناجاة ليلي ... يا من أنت سبيل نجاتي من التعب
مِحَني دواء علاجها أنت ... قلبي وفؤادي ملؤه إيمان بك
ذكرك عُدّتي في سهل العالمين ... تلطف عليّ تلطّف، فليس لي من حيلة
اِسوّد قلبي من حِمل الذنب ... من الذنب يا حبيبي صرت مُسودّ الوجه
إني ملوّث بذنب الروح والقلب ... كنت عبد الشيطان والهوى
انحنى ظهري من عبء الذنب ... قلّ في قلبي نور اليقين
يا من غمّي لك سرور روحي وقلبي ... حصيلتي في كلا العالمين عشقك
ألقِ نظرة عليّ أنا الخجل ... أشمل هذا العبد برحمتك
لا يقل منك شيء، لو يا حبيب ... من كرمِك تُولِني نصيباً
أقسم بك أنّي مستعطيك ... تماماً يا رفيق مَفْني بك
أنِر في قلبي بريق أمل ... أحرق قلبي وفؤادي بغمّك
أعطني ضياء المعرفة ... اعف عنّي للذنب والخطأ
طرِّق لي للحضور لديك ... أصل إلى نورك بالعمل والعلم

نحيف مسكين، فقير، حقير، أنا ليس لي في العالم سواك نصير

الذكر أفضل العبادة:

يستفاد من آيات الكتاب المبين وأحاديث الأنبياء والأئمةعليهم السلام الباعثة للحياة كما وأقوال الأولياء وعشاق الحق تعالى وكلمات العرفاء والمتيقظين أن أفضل العبادات واشرف المعاملات وأثمن الأعمال هو الذكر.

الذكر عبارة عن التلفّظ بأسماء الحق تعالى والتفكر في مفهومها وتحلية حقيقة الذات بنورها وبعبارة أُخرى، الذكر عبارة عن التعويض عن فقر وخلا الروح والعقل والنفس والقلب بذكر الله وذلك سير وحِلة إلهية، ابتدأت بحركة اللسان وتختتم بتنوّر جميع كيان الإنسان.

يقول الغزالي على أساس من آيات القرآن الكريم:

كل العبادات لأجل حصول هذه النتيجة وهي ذكر الله.

ويقول في كتاب (كيمياء السعادة)[1].

إعلم أنّ اللباب والمقصود من كل العبادات هو ذكر الله تعالى، فعماد الإسلام هي الصلاة والمقصود منها ذكر الله، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

وقراءة القرآن أفضل العبادات بسبب أنه كلام الله، الذي يذكّر وكل ما فيه يتسبّب في تجدّد ذكر الله.

والمقصود من الصوم هو كسر الشهوات، كي إذا خلص القلب من زحمة

١- كيمياء السعادة: ٢٠٤، الركن الأول، الأصل التاسع.

٢. العنكبوت ٢٩: ٤٥

الشهوات، سيغدو صافياً فيصبح مقراً للذكر، إذ ما دام القلب ممتليء بالشهوات، فلن يُمكّن من الذكر ولن يؤثر فيه.

والمقصود من الحجّ وهو زيارة بيت الله، ذكر ربّ البيت وبعث الشوق إلى لقائه.

الذكر سِرٌّ ولباب كل العبادات، بل أن أصل الإسلام هي كلمة (لا إله إلا الله). وهي عن الذكر وكل العبادات الأخرى تأكد هذا الذكر وذكر الله إياك ثمرة ذكرك له وأي ثمرة أكبر من ذلك ولذا قال تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾[١].

وهذا الذكر ينبغي أن يكون دائماً، وان لم يكن دائماً، فلا أقلّ ان يكون في أكثر الأوقات. إذ الفلاح فيه، ولذا قال تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[٣].

﴿وَاذْكُر رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ والآصَالِ وَلاَ تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٤].

خبراء الدرب قد اهتموا بمسألة الذكر كثيراً واعتبروا لها شروطاً عديدة ودليل الاهتمام بهذا الموضوع أن الذكر من أفضل الطرق للتأثير في القوى الفكرية والعقلية وتلقين النفس والادخال في الذهن وإيجاد ملكه التنّبه التام وجمع القوى النفسية فيما هو المقصود من سير المقامات والأحوال.

١- البقرة ٢: ١٥٢.

٢- الجمعة ٦٢: ١٠.

٣- آل عمران ٣: ١٩١.

٤- الاعراف ٧: ٢٠٥.

الذكر يطمئن السالك واليقين ويهيئهُ ويعدّه لكي يتمكّن من المشاهدة وهي نهاية الأحوال ومنتهى مقصود مراد السالك.

مراتب الذكر:

ذكروا للذكر مراتب ومراحل وعدّوا لكل مرتبة من الذكر خصوصيات.

المرتبة الأولى: الذكر العام وهو ذكر فائدته دفع الغفلة وما أن أبعد السالك الغفلة عن نفسه، ولو كان ساكتاً لساناً، فهو ذاكر.

المرتبة الثانية: الذكر الخاص حيث الذاكر في هذا المقام قد خرق حجاب العقل والتميز وتوجه إلى الله بكل القلب.

المرتبة الثالثة: الذكر الأخص وهو مرحلة فناء الذاكر حيث فنى الذاكر عن نفسه وبقي بالرفيق تعالى.

طبعاً لايمكن ولوج الذكر الأخص دفعة، بل ينبغي الابتداء من الذكر العام كي وبالتوفيق الإلهي يتم الوصول إلى الذكر الأخص وينبغي أن يعلم بأن ممارسة الذاكر ذكره هي عين التوفيق الإلهي وعين استجابة الحق تعالى للذاكر وفي الحقيقة كل مرة يقول الذاكر (الله) هي تلبية المذكور ذاتها.

ما أجمل ما ينشده المولوي بهذا الشأن:

كان يقول (الله) في ليلة ... كي يحلو فمه من ذكره

قال شيطانه اصمت يا صلف ... كم تقول يا كثير الكلام

ما أكثر ما قلت (الله) من العُتُوِّ ... أين تلبية الله لك مرة

لا يأتي من العرش جواب ... كم تكرر قولك (الله) يا جلف

انكسر قلبه ووضع رأسه ... رأى في نومه الخضر وقد حضر

قال ايه لماذا قعدت عن الذكر لماذا نادم على ما كنت تذكر
قال لا يأتيني لبيك جواباً أخشى أن أكون ممن يطرد من الباب
قال الخضر له إن الله قال لي بأن اِذهب قل له يا ممتحَن
أليس ذكرك (الله) لبيك مِنّا تلك فاقتك وتحرّقك وتألُّمك رسولنا
ألستُ الذي قد أمرتك ووفّقتك لذلك ألستُ الذي جعلتك تذكر
مالَكَ من تسبّب وتذرّعاتُك كان اجتذابنا وذلك نشّط رجليك
خوفك وعشقُك من نسج لطفنا للأخذ بيديك تحت كل يا رب، لك، لبيك مِنّا
روح الجاهل بمعزل عن هذا الدعاء ذلك أنّا لم (نأمره) بـ (يارب)
على فمه وقلبه قفل وقيد كي لا يئنّ مع الله ونت اصابته سوء

الذكر في المرتبة الأولى هو لأجل حفظ اللسان عن كل ما هو ليس ضرورياً وثمّ ليتنّور القلب بنور الذكر وينقى من كل كَدَر وظلام وما يُعَّد من أمراض القلب وثم في مرتبة أُخرى ليستغرق الإنسان بكل هويته وكيانه في بحر من النور وهو تجلّى الصفات على صفحة الوجود، ولا يرى في المراحل وأبعاد الحياة غير الله ولا يقول غير (الله) ولا يسمع الا كلام الله.

الذكر لأجل أن يتوجّه الإنسان إلى مسمّى الذكر وهو الحق تعالى ويرى حقيقةً أنه بمحضر قدسه، إلى أن لا يصدر منه سوى العبادة والطاعة خدمة الخلق !! عندما يصل السالك من ذكر اللسان إلى ذكر القلب ومن ذكر القلب إلى ذكر عمق الكيان، سيذوق حلاوة عجيبة من حقيقة الذكر وفي هذه المرحلة حيث يصبح كيان السالك منبع شرف وخير ولو أدبر العالم كله عن الله، تزداد ملاحظة للحق تعالى ولو قطّعوه اربا اربا لكي يغفل ولو لحظة فهو يتقطع ويستحيل ان تنتابه الغفلة لحظة.

ما أجمل ما أنشده (جامي) في هذا المجال في خصوص توجه مولى الموحّدين نحو الله تعالى، حين الصلاة:

أسد الله مَلِـك الولايـة علـي الصقيل من الشرك الخفي والجلـي
يوم أحد حيث الاصطفاء للهيجاء استقر سـهم العـدو فـي بدنـه
غاص نصل السهم فـي وَرْدِه مائة ورده ارتياح تفتّحت من وجـوده
توجه للعبادة نحـو المحـراب خلّف ا لألـم وراءهُ رأس الأصـحاب
لما استعملوا خنجر ا لألمـاس خرقـوا ذلـك الـذي كـالورد
غريق الدم النصل المتصّـدئ خرج من ذلك المنبت لورد الاحسان
تقاطر ورد دمه فـي المصـلى قال لما فرغ من الصلاة ورأى ذلك
ما كل هذا الورد تحت قدمي بـات معنـى ورد مصـلاي
لمـا بينـوا لـه الأمـر قـال قسـماً بالعـالم بالأسـرار
لـم أستشـعر ألـم الخنجـر مع أنه لـيس ثمـة أخبـر منـي

«وَالطَّاعَةُ عَلامَةُ الْهِدايَةِ وَالْمَعْصِيَةُ عَلامَةُ الضَّلالَةِ وَأَصْلُهُما مِنَ الذِّكْرِ وَالْغَفْلَةِ»

الهداية:

طاعة وعبادة العبد لله تعالى، دليل اتصال نور الهداية الإلهية بالعبد كما أن تخلف وذنب الإنسان علامة البعد عن الله والتيه والضلالة وينبغي البحث عن جذر الهداية والضلالة في الذكر والغفلة.

مسألة الهداية من أهم وأجذر المواضيع التي اهتمّت بها الكتب السماوية وخاصة القرآن المجيد وأيضاً الروايات والأحاديث الإسلامية.

موضوع الهداية جدير بالاهتمام والتثمين حدّ ارتباطه بكيان كل كائنات العالم سواء الغيبة والشهودية.

الهداية تشرف على كل الوجود وجميع العالم وليس ثمة من الكائنات من لم يتنوّر بنور الهداية، إن لم تكن الهداية، لم يكن ليحدث كائن وعلى فرض حدوثه لم يكن بمقدوره ادامة الحياة.

في منزل الخلقة العظيم إن استطاع على فرض المحال عنصر من العناصر ان يهرب من حيّز الهداية، فهو يفسد ويُفسد.

نظام الوجود المتين المحكم مؤسس على مبدأ الهداية، والهداية بالنسبة إلى كائنات العالم بمنزلة جذر الشجرة الحي النشط بالنسبة إلى عمود الشجرة وأغصانها وأوراقها ولنموّها.

لا يخلق كائن من الكائنات وعنصر من العناصر إلا ويؤخذ به إلى سبيل الهداية.

الآثار الكثيرة النفع مما يظهر من كائنات العالم، كل ذلك من بركة الهداية.

الهداية، أتم نعمة تفضل بها خالق الكائنات عليها أجمع وامتنّ على جميع الناس في القرآن الكريم بسبب هذه النعمة القيمَّة.

لولا الهداية، لم يكن في العالم شيء، لو لم يشرق نور الهداية في وجود الكائنات، لم يظهر عن الكائنات أمر إيجابي.

الهداية أمر ضروري وحياتي لجميع كائنات العالم وليس ثمة في صفحة العالم كائن في غنى عن الهداية.

الهداية وفق الآيات القرآنية والروايات على نوعين هداية تكوين تشمل كل كائنات العالم وهداية تشريع وهي مجموع المقررات الإلهية في هيئة القرآن وكلمات المعصومين عليهم السلام وتخصّ الإنسان فقط.

كل ما يتظاهر عن الكائنات من منافع وجميع آثار الخير والأعمال الصالحة والبرامج الإيجابية مما يصدر من الإنسان، هو بسبب الهداية ولو حُرِمَ ما في العالم والناس من الهداية، فقد انحرموا من الآثار الإيجابية لوجودهم ومُنِعوا من الفيوضات الربانية.

الملائكة، الكائنات السماوية أي جميع النجوم، الشموس، الأقمار، السحابيات، المجرات، النباتات، الحيوانات، الناس، كل منهم مشمول بفيض الهداية، لكل فئة ونوع الهداية التي تخصه.

الملائكة والهداية:

ان ملائكة الله تعالى وكما تحكي ذلك الآيات والروايات، لهم أصناف متوردة ولكل مجموعة في عالم الكون مهمة وواجب معيّن بحيث انّ قسماً كبيراً من نظام الكون لهم فيه دور المخرج والله الرؤوف يُطلع بنور هدايته كل فئة على مهامَها وقد فتح السهم مجال التحرك والعمل في المجالات التي تخصهم وليس لأي منهم تخلّف أو تمرّد عن أمر المولى.

يقول القرآن المجيد:

﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [١]

يقول أمير المؤمنين عليه السلام بشأن عبادة ومهام الملائكة وهي نور هدايتهم، كما في أوّل خطب (نهج البلاغة):

«ثمَّ فَتَقَ ما بَيْنَ السَّماواتِ الْعُلى، فَمَلَاءَهُنَّ اَطْوارا مِنْ مَلائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجودٌ لا يَرْكَعونَ، وَ رُكوعٌ لا يَنْتَصِبُونَ، وَ صافُّونَ لا يَتَزايَلُونَ، وَ مُسَبِّحُونَ لا يَسْاَمُونَ، لا يَغْشاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَ لا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَ لا فَتْرَةُ الاَبْدانِ، وَ لا غَفْلَةُ النِّسْيانِ، وَ مِنْهُم اُمَناءُ عَلى وَحْيِهِ، وَ اَلْسِنَةٌ الى رُسُلِهِ، وَ مُخْتَلِفُونَ بِقَضائِهِ وَ امرِهِ، وَ مِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لِاَبْوابِ جِنانِهِ، وَ مِنْهُمُ الثّابِتَةُ فِى الارَضِينَ السُّفْلى اقدامُهُمْ، وَالْمارِقَةُ مِنَ السَّماءِ الْعُلْيا اَعْناقُهُمْ، وَالْخارِجَةُ مِنَ الْاَقْطارِ ارْكانُهُمْ، وَالْمُناسِبَةُ لِقَوائِمِ الْعَرْشِ اكْتافُهُمْ، ناكِسَةٌ دُونَهُ اَبْصارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَ اَسْتارُ الْقُدْرَةِ. لا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَ لا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفاتِ الْمَصْنُوعِيْنَ، وَ لا يَحُدُّونَهُ بِالْاَماكِنِ، وَ لا يُشِيرُونَ اِلَيْهِ بِالنَّظائِرِ» [٢].

نعم، فالملائكة الالهيون هم اهل المعرفة وهم اهل الطاعة والعبادة ولا يتخلفون لحظة عن مسير هداية خالق الكون.

١- التحريم ٦٦: ٦.

٢- نهج البلاغة: الخطبة ١.

السماوات والهداية:

النباتات المذهل؟!

لاحظوا سطح الكرة الأرضية سواءً اليابسة أو البحار، ثمة في كثير من المناطق كما وفي قعر البحار نباتات كثر مختلفة لكل منها آثار في هذا العالم وهذه الآثار مسببة عن مسائل كثيرة قد اكتنفت النباتات كما تكشف الروح والجسد وانّ ترابط ونظام هذه المسائل نتاج عظمة الوحي والهداية، يقول القرآن الكريم:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءأَنتُمْ تَزرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[١].

مراحلها من الحبّة وتفتحها وتجذّرها وخروج الساق والأوراق ثم إلى مرحلة الزهر والورد والإثمار، كل ذلك بهداية الباري تعالى.

مسألة الجذر ونشاطه لاجتذاب الماء والاملاح وإيصال ذلك إلى آخر نقاط الشجرة أو النبات، حجم ومدى ووزن الساق وتناسبها مع الجذر، مقدار الأغصان والأوراق، مسألة العدد والبرعُم وعناصر ذلك، أي كأس الزهرة والتويجية [٢] واللقاح الذي فيها والسمة[٣] والمدقة (الوزيم) ومخبأ أبيض والبيض والحركات والنشاطات المنظمة التي بجميع عناصر النبات كل ذلك من بركة الهداية الإلهية وحقاً انّ قليلاً من التأمّل في وضع النباتات وحتى نبات واحد، أفضل سبيل للوصول إلى حقيقة التوحيد.

يقول أحد العلماء في مقالة مختصرة كتبها كمقدمة لكتاب علمي، كتب قائلا:

١- الواقعة ٥٦: ٦٣-٦٧.

٢- التبرّز كالزر، وهو في نهاية قلم علم الوردة، يحتوي على اللقاح.

٣- البسمة: الطرف العريض الذي ينتهي إليه أعلا عضو التأنيث التناسلي في الوردة.

دققوا النظر في ورقة لا قدر لها وورقة جافة سقطت من الشجرة وافتحوها وتفكّروا في آثار حياتها؛ من الممكن أن لا يحلو لكم أوّلاً اقتراحي، لكن أولئك الذين دققوا النظر فيها وجهاً لظهر سنين عديدة وأمضوا عمراً في الدراسة والتحقيق بشأن عجائب الطبيعة واختبار النباتات، ويئنّون من انعدام علم وقصر فكر البشر، فإنّهم يجتهدون لتكشّف الأسرار الحياتية لتلك الورقة.

هذه الأوراق التي تُداس بأقدامنا وتتناثر أطنان منها تندفن تحت التراب، هذه الورقة الهّينة قد أعطاها الله حياة وهداية تخصّها وكم تنطوي على فوائد وخواص مما لا يقتدر عقلنا القاصر، على حلّ رموزها.

مضت أعوام وأعوام وأخصائيو النبات وعلماء العصر، يؤلّفون الكتب في اختبار النباتات، مجتهدين بالأدوات العلمية أن يكتشفوا أو يستوعبوا آثارها الحياتية.

درسوا بالمجهر أنسجتها، بالتجارب تراكيبها، بالأعمال الكيمياوية محتوياتها، بالكهرباء والحرارة خواصها متحمّلين المشاق في التحقيق بشأنها.

مع ذلك ومع كل ما ألّفوه في هذا المجال من كتب، فماذا فهموا؟ أي حقائق أظهروها لنا؟ أي رمز من أسرار الحياة الخفيّة للنباتات قد بيّنوا أمره؟

لا شيء، بعد؛ إذ ما أدركه وفهمه البشر سطحي وظاهري، لم يتلمسوا بعد حقيقة النبات، كيفيته، سبب نموّهن وختاماً التيار المبهم الساري فيها يومياً.

نعلم انّ النبات ينمو، يخضّر، يتصاعد، يورد، يثمر، حين يصل حداً معيّناً من النمو، عندئذٍ يتوقف لكن من ذا يستطيع ان يعرف كنه حقيقة هذه القضية جيداً وبيان ذلك، ما يمكن قوله مجرّد انّ كل دنيا النباتات بعظمتها قد استضاءت بنور الهداية وكل ما ثَم من آثار مدهشة في عالم النبات اشعة من نور لا نهاية الهداية الإلهية.

الحيوانات والهداية:

دراسة الوضع المكتنف بالأسرار لحيوانات الجو، البحر، الأرض، المجهرية من

الحيوانات والحيوانات ذات الجثّة العظمى مثل الفيل في اليابسة والحوت في البحر، ليس مما يقتدر على إنجازه أحد.

لو بذل كل الناس أعمارهم في التحقيق بشأن حياة الحيوانات، لن ينالوا جانباً من ـ حياتها المذهلة.

انّ دراسة وجود حيوان واحد من النطفة حتى آخر حياته الطبيعية، يتطلّب عمراً طويلاً وأجهزة علمية ثقيلة وعلم يسع العالم بأجمعه، قد جعل القرآن الكريم خلقة الحيوانات وخاصة مسار حياتها وأسرار خلقة هذه الكائنات المفيدة جداً، واعتبرها من الآيات والدلائل الإلهية البارزة داعياً الناس إلى التفكّر في خلق الحيوانات وما ينتج عنها من فوائد، وصولاً إلى معرفة الخالق تعالى.

يعتبر القرآن المجيد، جميع حيوانات العالم مسخَّرة للهداية، قائلاً: أنّ ما تتخذه الحيوانات من سبيل فبهداية من الله.

﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

لو لم تكن الهداية التي تعنى بالحيوانات، فتعلمون أي فوضى كانت تحدث في الجوّ والبحر واليابسة؟

إنّ هداية الله هي التي تمنع أقل خلل في عالم الحيوان وأن يتأدّى حيوان إلى الإفساد في عالم الحياة.

يطرح القرآن الكريم وبصراحة، قضية الوحي وهو يعني تقديم الهداية للحيوانات، قائلاً:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ

١- هود ١١: ٥٦.

﴿فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٢].

يحمّلون الإبل أثقل الأحمال وهو ولأجل أنّ هيكليته البدنية قد أُعِدّت فيزيائياً وفق قواعد جرّ الأثقال، فإنه ينهض وبسهولة.

و وضع بنية رجله بنحو يمكنه المشي جيداً في أشدّ الطرق وعلى الصخور والأشواك.

يتحرّك صوب المقصد في الصحاري القاحلة الملتهبة المجدبة وبلا ماء وعشب وحين لا أثر من جادّة هناك ودون ان ينحرف ويُدهش ويتحيّر يصل إلى مقصده، هل بلوغ المقصد هذا ليس غير الهداية الإلهية؟

يأخذ معه حاجة أسبوع من الماء ويستهلك ذلك الماء تدريجياً خلال المسير.

في لبنه و وبره ولحمه وعظمه شتى المنافع والمصالح لصاحبه وبشكل عام انّ هذا الحيوان الذي هو منقاد للإنسان بجثته العظيمة هذه، هو أحد أعود حيوانات الأرض نفعاً لأهل الأرض!!

انّ حكاية الحيوانات بما فيها من عجب، ليس مما يمكن عَرْضُه في هذه الصفحات، مسألة هذا البحث، مسألة المعارف الإلهية، وليس شرح أوضاع الطبيعة. قد كُتبت حتى الآن في الشرق والغرب ومن أقدم الأزمان بجهود العلماء المضنية، الكتب الكثيرة بشأن الحياة العجيبة للحيوانات التي قد عرفها الإنسان حتى الآن، يتجاوز عدد تلك الكتب الألوف الالوف، انّ مطالعة الكتب الانفة توقف الإنسان على حقيقة انّ أصغر وأقلّ حركات الحيوانات تستظلّ إلى الهداية الإلهية وليس يمكن تصديق غير هذه الحقيقة.

١- النحل ١٦: ٦٨ ـ ٦٩.

٢- الغاشية ٨٨: ١٧.

حيوانات العالم سواء البحرية والبريّة والجوّيّة، واقفة بتمام المعنى في نطاق حياتها هي، على ما يعنيها من منافع ومضار تجاه حياتها وتديم حياتها تأسيساً على ذلك الاستشعار.

كتب أحد العلماء: أمسكت فأرين ذكر وأنثى وعقربين كذلك وجعلت كلا منها في موضع منفرد بمعزل عن سواه.

بعد فترة تزاوج كل ذكر بأُنثاه ونتج وليد كل منها، عزلتُ فوراً عن ذلك المكان ذكر وأُنثى كل من الفأر والعقرب.

كبُر صغار كل من الزوجين هناك وبمعزل عن البعض، بحيث لم يروا محلاً ولا شيء غيرها ثمَ حيث نموا.

ثم أعددت زجاجة وأدخلت فيها الفأرة الصغيرة وغطيّت الزجاجة بقطعة قماش، ثم أدخلت أيضاً في تلك الزجاجة العقرب الصغير، ثم جلست ألاحظ الأوضاع داخل الزجاجة، في لحظات معدودة وإذا بالفأرة ولم تكن قد رأت شيءً في العالم ولأول مرّة كانت تنظر إلى كائن آخر، لحظت العقرب وقبل أنْ يتاح للعقرب لملمة نفسه، دفعةً ركضت الفأرة بسرعة نحوه وقطع سنّها الحادّ آخر مقاطع ذنب العقرب ثم جلست جانباً!!

ما هذه المسألة، لماذا لم تبتلع الفأرة العقرب؟ لِمَ ما اختارت قطعه من الوسط؟ لم لمْ تعضّ ذنب العقرب من أصله؟ لماذا لم تقطع رأس العقرب؟ هل تحكّم بهذا المنظر غير الهداية الإلهية شيء؟ يا ترى كم هو ذكاء الحيوانات وثم من أين لها بهذا الذكاء؟!

يليق أن نعفّر جباهَنا بمحضر الحبيب الحق تعالى للعبادة، وبكل تواضع وخشوع، على تراب الذلّة، قائلين:

لا يتسَع كل فمْ لدعوى عشــق الحبيــب

لا يستوعب حمل لسان وصف جمال وجهــه

نور كمــال حســنه لا ينالــه كــل نظــر

شرح صفات ذاته لا يتّسع له كـل بيـان

لا تستوعب الآفاق صورة اشـراق نـوره

فيض من فضل جوده لا يسعُهُ البحـر والمعـدن

عنقاء قاف عشقه، إذ تخرج من البيضـة

طـائر لا يتسـع لـه الجسـم والـروح

كيف اؤدي الشكر إذ اليوم الرفيق معـي

صار بحيث ليس مجال لشعرة في البـين

يقولـون لـم لا تخفـي سـرَّ وحلمـه

كيـف أخفيـه ولا يسـعه العـالم

قلـت أعطنـي علامـة لوصـال وجهـه

هذا هو المحال إذ لا تؤديـه العلامـات

لبدن بعض الحيوانات قوة كهربائية، بحيث لو وُجّهت إلى العدو فإنها تجفّفهُ في مكانه، بيد أنّ هذه الحيوانات لا تستفيد من القوة هذه في كل مواجهاتها بل فقط حينما تتواجهه مع عدوّها وبشرط أن تستشعر من عدوّها قصد نيّة سوء، تُخرج من بدنها بمقدار اللزوم كهرباء ومن مسافة عدة خطوات وبإرسال الكهرباء نحو العدوّ تصيبه وتتخلّص منه.

هؤلاء لماذا لم يعادوا الجميع؟ من أين يعرفون العدو؟ من أين يقفون على نية العدو؟ كيف يصدرون من البدن كهرباء بقدر اللازم لاهلاك العدوّ؟ أين مصْنع ومولّد هذا الكهرباء في أبدانهم؟ أبدان هذه الحيوانات تماثل أبدان باقي الحيوانات، فهي لحم وجلد ودم وعظم وشرايين وعصب! هل تدركون من وضع هذه الحيوانات غير

أنها من إخراج عالم مدبّر، حكيم خبير، قادر قوي؟ هل تطلقون على هذه الحالة والحركة غير اسم الهداية الإلهية؟!!

بعض الحيوانات التي تعيش في البحر، لدى التواجه مع العدوّ تبعث من نفسها صبغاً، في الحالة العاديّة تتردّد في الماء، ما ان ترى العدو عن بعد وتستشعر أنها مستهدفة منه تحيط نفسها بصبغ أسود وتنشره وتنأى بنفسها في الصبغ عن متناول العدوّ وتبتعد عن المحل!

هؤلاء من أين يعرفوا العدو؟ بينما تحيى حولها آلاف آلاف الحيوانات ولا تبعث لأجل أي منها صبغاً.

في أي بدنها يقع مصنع الصبغ؟ من أين اكتسبت كل هذه المعلومات؟ هل القضية غير الهداية الإلهية في هكذا حيوانات وأسماك في البحر؟!

بعض أسماك البحر ممّن تعيش في عمق البحر حيث لا يصل نور الشمس، فهي لكي تجد ما تتغذى عليه تنتج نوراً من قفا رقبتها، أي حين الاحتياج إلى الغذاء فإنها تخفض رقبتها قليلاً كي يستضيء ما حولها مما يسطع من قفاها من نور، تبادر إلى الاصطياد بالاستفادة من هذا النور، إذا رأت العدو، ترفع رأسها دفعة لكي يظلمّ ما حولها فتهرب في الظلام.

في أي جزء من بدنها يقع مصنع انتاج النور؟ من أين توصلّت إلى ذلك وكيف عرفت بأنها إذا خفضت رأسها، تحقق الاتصال وتنوّر ما حولها؟ ومن أين عرفت أنه إذا رفعت رأسها، انقطع الاتصال وانطفأ المصباح؟ من أين تميّز الصديق والعدو بهذه الدرجة من الصحة؟ هل ثمة مصدر يفسّر كل هذه المسائل إلا الهداية الإلهية؟!

يقول أحد متسلّقي الجبال:

كنت طيلة أيام السنة، أقطع المسافة ماشياً من منزلي حتى أعلى نقطة في التلّ الذي بقربنا، سنةً حيث كان الشتاء شديد البرودة، وقد غطى الأرض جليد كثيف، كنت في

عودتي من مسيري، وكان في طريقي حوض ملأ ماءاً، كانت عصافير كثيرة تأتي كل يوم بعد أكلها الحبوب إلى هناك لتشرب الماء، ذلك اليوم كان قد نزل ثلج كثيف، جاءت العصافير كعادتها كل يوم ونقروا و وجدوا سطح المحل قد تجمّد، توقفّت لأرى ماذا تفعل هذه الكائنات الصغيرة الصبورة؟

فجأة قام أحدها على الثلج واستلقى على ظهره فوق الثلج، بعد ثواني تنحّى، استلقى آخر غيره في محلّه، بعد ثواني قام الثاني وحلّ محلّه ثالث، هكذا تكررت القضية إلى أن أذابوا تلك النقطة بحرارة أبدانهم، لما أصبحت قليلة السُمك كسروها بمناقيرهم، خرج الماء، ارتوى الجميع، ثم طاروا، حقاً ما هذا الفعل العجيب؟ من أين عرفوا ان الثلج يذوب بالحرارة ثم من أين وقفوا على أن أبدانهم فيها الحرارة الكافية وكيف تعرفوا أنّ هذه الحرارة ينبغي أن تصل إلى الثلج بنومهم عليه ومن أين عرفوا انّ استلقاء واحد منهم لا يكسر سمك الجليد، بل ينبغي تكرار هذا الأمر بالتناوب؟ هل ثمة اسم غير الهداية الإلهية يمكن استعماله بهذه القضية؟!

قرأت في كتاب أسرار حياة الحيوانات البَريّة والبحرية والجوية:

قال أحد المزارعين، في صباح أحد الأيام كنت جالساً في منزلي بقرب مزارع القرية، جذب انتباهي صوت قطّة، فتحت باب البيت، رأيتها تصيح خلف باب بيتي، تصورت أنها جائعة اعطيتها غذاء، لم تأكل؛ جئتها بلحم وحليب ولم تطعم، ثم تبعتها اذ تحرّكت، استقرّت وتركت الصياح؛ مشيت خلفها وصلت إلى بيت طيني مليء بالتبن، في وسط المزرعة، دخلت القطة ذلك البيت وتبعتها أنا أيضاً؛ فجأة شاهدت عدة قطط صغار، لم يكنّ قد فتّحن عيونهنّ بعد، أحاطوا بأمهم واحتضنتهم، لم أستوعب شيء.

عُدت إلى المنزل، في صباح الغد، تذكرت قصة أمس، قلت لنفسي: لأمر على

بيت التبن ذاك واتفقد الأم وصغارها، عسى انهم بحاجة إلى طعام، أخذت معي طعاماً، لما بلغت ذلك البيت، رأيت الصغار قد الصقوا أنفسهم بصدر أُمهم يرضعون صدرها الجاف وهي ميتة، بادرت إلى تكفّل الصغار وتعهّدت مع نفسي بتربيتهن، القطة الأم من أين وكيف عرفت يوماً قبل موتها أن أجلها قد حان؟ وكيف فكرّت ان تجد كفيلاً لصغارها لتدعهم عنده وثم من أين عرفت الطريق إلى بيت المزارع وكيف جاءت به إلى بيتها؟ حقاً هل هذه الأعمال المحيِّرة من افرازات وجودها هي ذاتياً؟ هل يمكن التصديق بذلك؟ هل هذه القضايا الملفتة ـ بتعبير القرآن المجيد ـ سوى هداية منه تعالى؟

الإنسان والهداية:

يشارك الإنسان كل كائنات العالم في موضوع الهداية التكوينية أو القهرية، بيد أن الآدمي يمتاز عن سائر الكائنات جميعاً بالهداية التشريعية.

الإنسان الذي هو بتعبير القرآن المجيد، خليفة الله ونائبه، ينبغي كونه منبع تجلّي الإرادة الإلهية التي هي الحرية والاختيار، وإلا فأي معنى لخلافته.

هذه الحرية في الإرادة وحرية الاختيار هذه التي سبّبت تأهله لخلافة الباري تعالى في الأرض، الاختيار وحرية الإرادة هو ما تسبّب في تظاهر هذه الحضارة البشرية العظمى واحدث كل هذه التحولات المدهشة على الأرض.

حرية الاختيار أرفع أسباب قدر الإنسان والسبب في عُلُوّ هذا الكائن العظيم.

لكن ينبغي التنبّه للأهمية القصوى والتأثير البالغ لحقيقة انّ انفلات الآدمي في الاختيار والإرادة، بما أنّ الطبع الإنساني ينزع إلى التزيّد ولا يتناهى عند حدّه، كان أكبر دواعي الفساد والافساد في حياته وبالنسبة إلى الآخرين وكل ما شاهدتموه في تاريخ البشرية حتى الآن من ظلم، اجرام، نهب، سرقة، قتل للناس، تمرّد، شهوات

وغرائز وشتى الذنوب وانحاء المعاصي أو سمعتم بذلك أو قرأتموه فهو نتاج للتفلّت في الإرادة والعمل بشرياً.

البشر حيث هو أقرب كائن إلى الله وبتعبير القرآن الكريم قد نفخ في كيانه من الروح الإلهية ذو صبغة إلهية؛ بمعنى أنّ إرادته في طول ارادة الحق تعالى واتصال روحه بالمعبود الحق شديد جداً، وهذا الاتصال مدعاة لا تناهيه في النزوع وهذه اللانهاية التي يبغيها، في الحقيقة الله وهذا النزوع إلى الله، بتعبير القرآن فطري له وحالته هذه إن لم تتم هدايتها ولم تستنرْ روح الآدمي بنور المعرفة، فعندما تستحوذ على إرادته ستفسد نفسها والعالم.

فزعة اللاتناهي الإنسانية إن لم تدر في فلك الهداية وتستضيء بنورها، لن يقنع الإنسان بامتلاك ناصية العالم بأجمعه ولن ينال الانسان ابدا السكينة والطمأنينة الحقّة.

نزعة اللانهاية إنْ لم تتم هدايتها، فستجر الارادة والميول والغرائز إلى حيث شبع؛ حينئذ سيمارس هذا الكائن الترابي فساداً يحرق لهيبه وجه ا لأرض.

لو قال قائل: لا حاجة للإنسان إلى الهداية التشريعية أو الارشاد، فمثل ان يقول: ليس الإنسان لتدوم حياته بحاجة إلى شمس أو ماء أو هواء أوغذاء.

كيف انّ جميع كائنات العالم ووفق قول كل الناس، تحتاج إلى قانون ومقررات وهداية، بينما الإنسان لا يحتاج؟ أليس الإنسان أحد كائنات هذا العالم وهل نسيج غير عالمه هذا لو قالوا: يحتاج إلى ارشاد وهداية، لكّنهُ يؤمّن حاجته هذه بعقله وفكره، فينبغي ان يقال: لماذا خلال ملايين السنين لم يلبِّ طِلبته إلى الهداية بعدُ لرفع كل هذه المفاسد، بالاستفادة من عقله وعلمه؟!

نعم، الإنسان بحاجة مثل جميع الكائنات إلى هداية، لكن هداية تفوق هداية التكوين.

لان هداية التكوين، مقصورة على بنيته المادية وخلقة نفسه وروحه وعقله ولا تشمل نموّه وكماله وتربيته وآدميته وانسانيته.

والهداية التي يحتاجها ومن خلالها يتحلّى بكل الحسنات ويبرأ من كل السيئات، كما هداية التكوين فإن تقديمها موقوف على حريم قدس ذي الكبرياء تعالى ولا ينبعي للإنسان الاكتفاء بعقله في النمو والكمال والتحلي بالحقائق الإنسانية؛ اذ العقل عاجز عن هداية تامة للإنسان، وقد أثبت ذلك طوال حياة البشر.

العقل بحاجة لتلقّي اعانة كما باقي الأعضاء والجوارح في الدلالة على الحقائق، اذ مساحة عمل العقل محدودة كما بالنسبة إلى سائر مكوّنات الوجود الإنساني، لذا فإن الله الرؤوف ولأجل لطفه وتفضّله وحبّه ورحمته وعشقه لخليفته، ولكي يوصل هذا الكائن الترابي إلى أطهر مرحلة أي مقام قربه تعالى، قدّم له الهداية وفتح بوجهه أبواب عظمة الكتب السماوية والنبوة والإمامة والالهام الذي ينبع من نقاء الروح وتهذيب النفس، وأرسل لعقله عوناً واتمّ في ذلك كما يعبّر القرآن المجيد، الحجة على البشر وأغلق عليه في الدنيا والآخرة أي عذر بشأن العصيان والخطأ والتخلّف والذنب.

الهداية إتمام الحجة الإلهية:

لاحظوا في هذا الخصوص نماذج جدّ ملفتة من آيات قرآنية وروايات وأخبار، طرحت مسألة الهداية واتمام الحجة ومعذورية الإنسان.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[١].

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢].

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾[٣].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

١- الإنسان ٧٦: ٣.

٢- البلد ٩٠: ٨ ـ ١٠.

٣- النساء ٤: ٦٨.

الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[٢].

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[٣].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾[٤].

حقاً ان الهداية ما أرفعها من حقيقة واعودها نفعاً ! بغير سبيل الهداية الإلهية أين يتمكّن الإنسان من اكتساب النفع الحق؟ وبدون الهداية كيف يتمكّن من تلمّس الخير والصّلاح؟ أفهل كان تهذيب النفس ونقاء الروح واستنارة الفكر وبشكل عام كسب خير الدنيا والآخرة، ممكناً بغير الهداية؟ إن أمكن ذلك فمن ذا حصّله؟ فليعرِّف نفسه!

بتعبير العارف الرومي:

بهذا القلب ألمٌ لا يمكن إعلانُه سرٌّ بهذا الصّدر لا يُستطاع

ما لم يهب باصرتَنا حُسْنُك نوراً ليس يمكن النظر في بستان جمالك

لو فكّر الإنسان في نفسه لحظة، لا يجد نفسه غير مخلوق محدود؛ إذ وَجَدَ نفسه مخلوقاً، فإنه يبحث عن خالقه وبمعونة نور العقل والفكر يجد حقيقة أنّ له خالقاً وبارئاً خلقه في هذا العالم لهدف ومقصد. إذ ليس بمقدوره أن يصل إلى الخالق وقصده

١- الأنبياء ٢١: ٧٣.

٢- الإسراء ١٧: ٩.

٣- الأحزاب ٣٣: ٤.

٤- يونس ١٠: ١٠٨.

أكثر من هذا، رجْع اقدام الأنبياء الطاهرة الذين بُعثوا من قبل الله تعالى للتعرف الأكثر، يُسمع في ساحة الحياة، أُولئك الأجلّة قدموا ساعين لعون هذا الكائن المحتاج وحرّكوا جرس الاستعداد وموّجوا أمام عقله بحراً بحراً من المعارف مفهمين الإنسان؛ أن يا ضيف محضر القدس الربوبي العزيز! بارتداء ثياب الهداية، فلتستعد للتحرّك كي تنفلت من نقطة المادية والمحدودية وتسير نحو ملكوت العالم الإلهي وتسلك هذا السبيل بقدم طهارة الروح والعمل الصالح، تتهيّأ لصفة القرب وتنال مشاهدة أنوار الجلال والجمال، فتبلغ مقام العظمة الذي لا يتّسع له فهمك.

لو اكتفى الإنسان بتلك المرحلة الفكرية المحدّدة، بشأن نفسه وخالقه، سيصاب تدريجياً بالوسوسة والاضطراب ويقع في حيرة وتيه ويصيبه داءٌ لا علاج له، لذا فإن العقل يحكم أنّ عليك لدفع كل هذه الاضرار والأخطار والآلام والمتاعب، أنْ تراجع الأطباء الاخصّائيين واولئك الأطباء كما أثبت ذلك تاريخ البشرية ليسوا سوى الأنبياء والأئمة وأولياء الله وليس أي فئة أُخرى وعلى كل حال فأن ضرورة الرجوع إلى الأنبياء والقرآن الكريم والأئمةعليهم السلام لوجدان الهداية، أمر ملموس تماماً وبيّن في حياتنا.

بتعبير (مولوي):

لو اقتدر القلب على الانفصال عن غم الدنيا ... أمكنه النشاط والعيش ببستان البقاء

لو اغتسلت بماء الارتياض ... أمكنك تصفية كل كدورات القلب

انظر إلى بحر المعاني لا تلك الجوهرة ... التي بوسعِك تقدير قيمتها وثمنها

عسى أن تصاب بألم وغم العشق ... بوجعه تستطيعه ان تداوي غمَّ القلب

لو وضعت راسِك في غشاء التفكر ... بإمكانك أن تقضي ما سلف من البقاء

يقتدي بك مقرَّبو الفلك ... لو اقتدرت على الاقتداء بشيخ البقاء

الهداية، عامل السعادة الأوحد:

قضية هداية الله تعالى الإنسان من خلال الأنبياء والأئمةعليهم السلام والقرآن المجيد هي من ألطاف الرب تعالى بالإنسان الخاصة.

الكمال، النمو والرشد، السعادة، الفضيلة، البصيرة، الحرية، الأصالة، الشرافة، المعرفة، كسب مقام قرب ورضا الإله، التأبّد في الجنّة ونعيمها والنجاة من سخط الله تعالى والعذاب الأليم في القيامة، إنما تكون من بركة الهداية لا غير.

القابليات النافعة الكثيرة التي أودعت في وجود الإنسان، لايمكنها ان تتفتّح إلا بحرارة الهداية.

الإنسان في ظل الهداية الإلهية يتحوّل إلى كلمة طيبة وشجرة طيبة ويبلغ إلى حيث يعجز عن بلوغه ملائكة الله.

يقول الفقيه العارف، المعلّم الروحي، الشيخ جواد الملكي التبريزي رحمه الله في كتابه القيّم (لقاء الله) بشأن التنبّه لمسألة الهداية وانّ السبيل الأوحد لسعادة الإنسان إتصاله بهذه العروة الوثقى الإلهية:

ينبغي ان يكون تفكّر بني آدم في معرفة أنفسهم، كي يزيحوا كل الحجب الظلمانية حتى حجاب الخيال والصورة وتتجلى لهم نفسهم وحقيقتهم بلا مادة وصورة؛ فإن بلغوا هذه المرتبة الجليلة، وفازوا بهذا المقام الرفيع، انفتحت أمامهم باب معرفة الرب والتعرف على الحبيب الحق تعالى وانكشفت لهم حقائق العوالم الإلهية وخاصة عوالم المبدأ وشاهدوا ذواتهم بنور الفيض الإلهي وضوء الهداية القيِّم، بلا مادة وصورة.

عوالم الإنسان الثلاث:

وتفصيل هذا الاجمال أنّ للإنسان ثلاثة عوالم:

١ ـ عالم الحس والشهادة أو عالم الطبيعة.

٢ ـ عالم الخيال والمثال.

٣ ـ عالم العقل والحقيقة.

الإنسان حيث انّ شخصيته المادية والجسمانية تبتدئ من عالم الطبيعة ويشير القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى هذه القضية، فإن فعلية وجوده و فعلية العالم الطبيعي، تبدو له ذات أهمية وقيمة خاصة ومنذ أوّل عرف نفسه فيما يرتبط بهذا العالم المادي واستغرق في أوضاع هذا المنزل المادي حدّ انه لو سمع عارفاً أو عالماً بأنّ له عالمين آخرين، قد يبادر إلى الإنكار ومصراً في إنكاره حدّ ان يتّهم المخبر بعدم المعرفة والوهم إنّ هذا الانكار لأجل أن عالم الطبيعة لديه قد تفعّل وعالم الحس والشهادة ملموس لديه حالياً بينما العالمان الآخران بقيت بالنسبة إليه في مرحلة القوة والاستعداد ولم يجاهد بعد لكسب العالمين الآخرين.

بعد فترة حيث قد تحرك في مسير الحياة وطرقت أُذنه لا محالة بعض المسائل وظهرت لديه تدريجياً آثار عن عالم الخيال والمثال، سيقرّ بحقيقة عالم الخيال ويدرك أن ثمة أيضاً عالماً آخر غير عالم الحس وعالم المادة ليس خصوص عالم المادة هذا، الذي ينبغي ان يبذل له كل همّته وطاقته ولا ينشغل بسوى بالأكل والنوم والشهوة ثم الموت.

وإذ يخفض رأس التواضع أمام الحقائق ويخضع للواقع، ينال إدراك عالم فوق عالم الخيال وهو عالم العقل والحقيقة المحضة وبتعبير آخر؛ عالم النور والاستضاءة بالغاً حقيقة انّ لذة عالم العقل أي عالم المعرفة والبصيرة وعالم الارتباط بحقيقة النبوة والولاية والارتباط بالحق تعالى آياته والارتباط بحساب القيامة وختاماً الارتباط بالجنة ولقاء الحق تعالى، ان ذلك لا يقاس به لذة عالم الخيال وعالم الحس، هنا حيث نقول: قد اهتدى الإنسان وجعل جميع أعضائه وجوارحه وكيانه مؤتمراً لعالم النور وأصبح بالمعنى الحقيقي عبداً لله.

على أي حال، فإن انسانية الإنسان ترتبط تماماً بعالمه العقلي وإلا ففي عالميه الآخرين فهو شريك لسائر أفراد جنسه، أي الحيوانات.

الإنسان الحقيقي هو ذلك الإنسان الذي يفني عالميه الحسي والخيالي في عالمه العقلي والإلهي ويقع بكل كيانه ساجداً أمام الحبيب الحق تعالى، كما ان رسول الإسلام العزيز ﷺ كان يقول في ليلة النصف من شعبان:

«اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدَ سَوادى وَخِيالى وبَياضى»[1].

المراد بالسواد، عالم البدن وعالم الحس والعالم المادي وبتعبير آخر العالم الذي يقع في آخر نقاط الامكان وليس سوى الظلام أو العناصر والأجزاء المادية المتصلة والمراد من عالم الخيال، العالم الذي بمعزل عن المادة ومرتبة بين العقل والحس وفي الحقيقة، ان برزخ الإنسان الوجودي، لا المادي الصرف ولا العقلي المحض والمراد من البياض عالم العقل والنور وهو الوديعة الإلهية في وجود الإنسان ومخلوق الحق تعالى الأكثر محبوبية في وعاء كون العالم والآدمي.

البياض ذلك العالم الذي انّما ينظر الحق تعالى في وجود الإنسان إلى ذلك العالم فقط وإنّما يمتاز الإنسان بأوامر الله ونواهيه وأجره وعقابه لأجل العالم ذاك، وهو العالم الذي به تدرك وتفهم الحقائق وكل رقي وتكامل ونمو الإنسان في سبيل الله يرتبط به.

العبد الحقيقي ذلك الذي قد استضاء مصباح عقله بنور الهداية وهو يراعي في كل شؤون الحياة الأدب تجاه المولى تعالى، وإذ يسجد فكل كيانه ووجوده ساجد.

نظمت أنا الفقير، في مقام مناجاة الحبيب تعالى، طلباً لعالم العبودية، ما يلي:

من شهد عشقك إملأ إلهي فَمَنا يا رب اجعله مقبولاً بمحضة لطفك قيامنا

١- وسائل الشيعة: ١٠١/٨، الباب ٨، الحديث ١٠١٨٨، مصباح المتهجد: ٨٣٩.

بدل منزل الدنيا الذي لا قيمة له اجعل في زقاقك يا روح برحمتك مقامنا
حينما عشاق بابك في المناجاة فاسمع يا إلهي بسبيل الرحمة نداءنا
غير ذكرك لا حيلة ولا رأس مال أوقع بهذا المحور قلبنا هذا ونؤادنا وكلامنا
بكل جرم وكل عصيان كلّنا ملوّثون إغفر يا رب برحمتك جميعنا
جواب كل تحيّة واجب في شريعتك تكرّمْ تلطّف بجواب على سلامنا
قلب المسكين ليس له أمل بغير زقاقك من شهد عشقك إملأ يارباً فمَنا

على أي حال فعالم الحس للإنسان هو بدنه الذي له مادة وصورة كما أنّ عالم الخيال والمثال للإنسان عبارة عن العالم الذي حقائقه ذات صورة بلا مادّة وعالمه العقلي النوري عبارة عن عالم حقيقته ونفسه وشخصيته لا مادة لها ولا صورة.

ولكل من هذه العوالم لوازم وآثار تخصّها، وما لم تتفعّل لن تظهر تلك اللوازم والآثار فكلّ مَن استغرق في عالم الطبيعة والحس وتحقّقت فيه آثار عالم الطبع وتقرّرت جميع حركاته وفق عالم الحس، فدون شك ولأجل أن جميع همته تتوجّه إلى عالم الطبع، تضعف لديه آثار العالم العقلي وبتعبير القرآن الكريم: ﴿اَخلَدَ إلى الأرض﴾[1] أي يغدو كائناً أرضياً ومادياً بكل معنى الكلمة، بحيث انّ ما تتظاهر وتبدو منه من آثار، خصوصاً الآثار المادية وبتعبير القرآن الكريم (الحيوانية) هكذا انسان تنطفئ قوّة ارتفاعه عن الأرض للتحليق في سماء عالم الملكوت ويغدو كائناً لا يتّصف بغير الجانب الحيواني وكان أسوأ عملاً وتحركاً من الحيوانات وبتعبير القرآن الصريح:

﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2].

١- الاعراف ٧: ١٧٦.

٢- الفرقان ٢٥: ٤٤.

لكن الذي وبمعونة هداية الأنبياء والأولياء والأئمة والقرآن الكريم قد تطرّق إلى العالم العقلي واجتهد بحيث أنّ آثار العالم العقلي تغلبّت على عالم المثال والحس وتحكمّ في بلاد وجوده عقل الهداية، فقد صار كائناً روحانياً ويبلغ في مسار التكامل إلى حيث تنكشف له حقيقة وجوده ونفسه وروعه وحينئذ حيث تزاح عنه كل الحجب الظلمانية وبل جميع الحجب النورانية.. مما بينه وبين معرفة الله تعالى ـ ويتحقق فيه قول رسول الله ﷺ:

«مَن عَرَف نفسه فقد عرف ربَّه»[1].

إعلم انّك لو بقيت دون هداية وكنت لأجل عدم الهداية أسير عالم الحس، فإنّك في الحقيقة تعاني من الموت والفناء والفقدان والظلام والجهالة.

هذه النشأة محل الظلام وهي وان كانت ذات وجود، لكن وجودها ضعيف جداً ولأجل ضعفه وقصوره فهو بحاجة إلى مهد المكان ومرضعة الزمان ولا يسعه إظهار الوجود في خارج الزمان والمكان.

رهينوا هذا العالم الذين قصروا أنفسهم على عالم الحس والمادة هم في الحقيقة عبارة عن أشقياء الجن والأنس والحيوانات والنباتات والجمادات.

جاء في حديث قدسي ملفت جداً ومفيد ومعبّر، من كلام الأحَدِ جلّ وعلا:

«ما نظرت إلى الأجسام منذ خلقتها»[2].

عالم الأجسام وهو مجموع العالم المادي لم يُكشف بعد لأحد حتى الملائكة طوله وعرضه وعمقه بمعزل عن توجّه نظره تعالى، أنت أيها الإنسان ! كم لك من هذا المجموع. عدا البدن الضعيف والمحدود والمليء محناً وقدراً من الأرض للسكن

١- عوالي اللآلي: ٤ /١٠٢، الحديث ١٤٩، بحار الأنوار: ٣٢/٢، الباب ٩، الحديث ٢٢.

٢- مجموعة ورام: ١٤٣/١، باختلاف يسير.

عليها والعيش فيها وقليلاً من الغذاء، هل معك شيء آخر من عالم الحس؟

الويل لك! قد انبهرت بهذا القدر القليل الذي لا يكاد يُستشعَر من عالم الحس، بحيث بعت في مقابله كل الحقائق والعوالم وكل حقٍ والتوحيد والنبوة والإمامة والمعاد والجنة والرضوان ونسيت ذلك تماماً وتعيش بنحو وكأنّ ليس في عالم الكون هذا شيء غير البدن والمنزل والمأكل وملبس متخرّق!

بؤساً أولئك الذين علمهم مقصور على عالم الحس هذا ولا يعرفون غير هذا العالم. ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

هنيئاً لأولئك الذين يتفكرّون في أنفسهم ويتعرّفون على أنفسهم وينالون بمعرفة الذات معرفة الله.

هنيئاً لاولئك الذين عرفوا إلهَهُم الرؤوف وإئتمروا بأوامره وانتهوا عن نواهيه وطأطأوا بمحضر قدسه رؤوس العبودية.

هنيئاً لأولئك الذين عرفوا سفراء الحق تعالى وتمسكوا بعروة الأنبياء والأولياء والأئمة وعشّاقه تعالى وتلمسوا سبيل النجاة وساروا بذلك السبيل بكل شوق وذوق وبلغوا حصيلة وثمرة شجرة الإنسانية المعظمة وقطفوا الورود من مغنى العالم الإلهي.

هنيئاً لأولئك الذين وفقوا إلى إدراك الحقائق والمعارف وحلّوا وجودهم بتلك الحقائق وبلغوا بذلك إلى مقام قرب الرفيق الأعلى تبارك وتعالى.

تعالوا في المقام العظيم للفكر نأخذ بطرف التفكّر في الحقائق ونرتفع بأنفسنا إلى العالم الآخر، لم يبلغ احدٌ إلى شيءٍ بتكرير المأكل والملبس وجمع المال كي نبلغ نحن أيضاً.

تعالوا كقلب العاشق المتحرّق الحاج المرزا حبيب الله الشهيدي الخراساني رحمه الله

١- الروم ٣٠: ٧.

نُخلي أنفسنا لعدة لحظات من جميع الأوهام والأمور المادية والدنيوية وضوضاء عالم الحس والشهادة، وننأى عن أناس بلا شهامة ليس لديهم سوى أخلاق الشيطان والوحوش ونترنّم معاً بأُنشودة الحاج المذكورة:

قعيد مصيدة الهمّ والعناء متعَب الألم والفقر والفناء
مصاب صحراء كرب وبلاء غصن يابس لست على نينوا
من أنا ما أنا من أين أنا؟
طريد الخلد كآدم مثل سليمان وقد أضاع خاتمه
لدى أصحاب الكهف أقل من كلب ما أنا من أنا، خزي العالم
كم تسأل عن مَن وما أنا
لا يتأتى للعبد الملوكية لا يتأتى للعدم الكبرياء
العبودية لا تتأتى لها الالوهية لا يأتى من ا لمنعطي سوى الاستعطاء
أنا مستعطي أنا مستعطي، مستعطي أنا
لو دعاني إليه فالفقير أنا وان طردني عنه فأنا الحقير
إن قال انّي أمير فإني أمير ولو قال مُتْ، مُتّ
عبد الحكم ومسخَّر الرأي
لا ينبغي من العدم حديث الوجود لا ينبغي ادّعاء الكبر والسَكر
لا ينبغي للتراب إلا الضعة لا ينبغي للفناء عبادة الذات
أنا فنا أنا فناء، فناء أنا

بؤساء اولئك الذين لم يجدوا غير عالم الحس عالماً، ويا شقاء أولئك الذين ما استناروا بنور الهداية، كي يعرفوا انّ غير هذا العالم، ثمة عوالم أخر وانّ أصل اللذة

والسرور في فضاء تلك العوالم.

الذين ليس لهم غير العالم المحسوس هذا مرتع ومَأنس ووطن وكل ملجئهم ومقصدهم تلك الأشياء التي ألفوها وأنسوا بها في هذا العالم.

ولو قالوا بلذة فهي في مأكل ومشرب ونكاح ورئاسة هذا العالم وكل ذكرهم وفكرهم وخيالهم وآمالهم وعلومهم مقصورة بأجمعها على هذا العالم وان كان لهم مأنس فهو من هذه الأشياء الظاهرية، هؤلاء بتعبير القرآن حزب الشيطان والمصداق الحقيقي للضلالة والتيه.

ليس لهذه الفئة وفق صريح الآيات القرآنية وحكم العقل غيرنا جهنم موطن يوم القيامة وهو يوم تمييز الحقائق اذ سيلحق كل فرع بأصله وما كان في عالم المادة هذا من سنخ الهداية والنور، سيلحق في ذلك العالم بنور رضا الله والجنة وما كان في هذا العالم من سنخ المادية المحضة والظلمات سيلحق في ذلك العالم بظلمة العذاب وظلام جهنّم، هؤلاء البؤساء وفق هذا المبدأ حيث كانوا في الدنيا عقيدة وعملاً في ظلمة الضلالة، يردون جهنم في القيامة ويمكثون أبداً في سموم وحميم وتتسلّط عليهم الصورة الاخروية لأعمالهم في صورة العذاب الإلهي الأليم.

يقول القرآن الكريم بشأن هؤلاء عبيد الدنيا التعساء وحيارى وادي الضلاء أولا والغافلين الضالين وهذه الحيوانات في صورة البشر:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الأخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

على أي حال بما أنّ الإنسان خلِق في بدأ خلقته من هذه الأرض ثمّ صار بفضل

١- هود ١١: ١٥ ـ ١٦.

ولطف الرفيق الأعلى ذا روح إلهية وعقل نوراني، فإن بقي دون اهتمام بالروح والعقل ويقصر همّته على قضايا وجوده الأرضية وبقي في الحالة الأرضية هذه يأنس بها، عاقداً قلبه على لذائذها الفانية، فقد حقق مصداقاً..(أخلد إلى الأرض) وسيلحق يوم القيامة بأسفل الدركات.

لكن لو اتصل بالهداية وتمسك بعروة الأنبياء والأئمةﷺ وأستفاد من أنفاس الأولياء والعشاق واجتهد في أن تتظاهر لديه آثار العقل والروح، سينال في القيامة أعلى علّيين.

بعبارة أُخرى، انّ الله الرؤوف خلق الإنسان في بدء الخليقة من قبضة من طين وأبقاه فترة بتلك الهيئة أي نطفة وعلقة ومضغة العظم والدم واللحم، ثم وهبه حياة، مضت مدّة وهو مجرّد كائن حيّ، إلى أن تفضّل عليه بقوّة العقل والتمييز.

قوّة تقتدر على التمييز بين الحق والباطل، النور والظلمة، السواد والبياض، السوء والجيّد، المفيد والمضر، عندئذٍ فهذا الكائن الأرضي ذو الحياة، الإرادة، الاستعداد، العقل والروح الإلهية، إنْ طابق كل طلباته بمطالب الحق تعالى وأراد ما أراده تعالى وانزجر عمّا يكرهُه الله وبشكل عام لم تبق في وجوده إرادة تخالف إرادة الحق تعالى، سيبلغ ببركة الهداية وسعيه واجتهاده في سبيل الله، إلى مقام الرضا وهكذا شخص مصدر خير في الدنيا لنفسه وللآخرين وهو في الآخرة دون شك سيخلد في الجنة الإلهية. جاء في الحديث:

«فَمَنْ عَمِلَ بِرِضايَ أَلْزَمَهُ ثَلاثَ خِصالٍ أُعَرِّفُهُ شُكْرا لا يُخالِطُهُ جَهْلٌ وَذِكْرا لا يُخالِطُهُ النِّسْيانُ وَمَحَبَّةً لا يُؤْثِرُ عَلى مَحَبَّتى مَحَبَّةَ الْمَخْلُوقينَ»[1].

١- بحار الآنوار: ٧٤/ ٢٨/ الباب ٢٢، الحديث ٢.

بعد بلوغ مقام الرضا، إن لم يحالفه التوفيق ليصل إلى درجة فناء قدرته في قدرة الله ولا يرى قدرة غير قدرته تعالى، هذا مقام التوكّل ولو وفّق أيضاً بد ذلك في إفناء علمه في علم الحق تعالى، بحيث يتخلّص من استشعار الذات لينال العلم بالله، وهذا مقام الوحدة والتوحيد وهم مختص بأوليائه تعالى.

يقول «مولوي»: بهذا الصدد:

لو كـان غيـر العشـيق جـديراً بالرؤيـة

فليس ذلك عشقاً سوى هـوى شـهواني

العشق تلـك الشـعلة التـي إذ التهبـت

احتـرق كـل مـا بقـي غيـر العشـيق

شـفرة «لا» تأخـذ فـي رقـاب الغيـر

انظر في الختام ماذا يبقـى بعـد «لا»

بقي إلاّ الله وذهب كـل مـا كـان بقـي

كُن مسروراً يا عشق محرق الشراكة فقـد ذهـب

هـــو كـــان الأول والأخيـــر

لا تَرَ الشركَ إلا مـن عـين الأحـول

العشق والحُبُّ ثمرة الهداية:

اذ اتّصل الإنسان بعروة الهداية الوثقى وذلك ببركة فكره وتأمله في ذاته وأحواله وفي عاقبة أمره، وولج بلطف من الله، فضاء النبوة والولاية الجياش، فإنه يضع كل طاقته وقواه وقابلياته تحت تصرف أمر ونهي المولى ويقطع هذا المسير بقدم الروح ساعياً تجنّب ما يكرهُه الحبيب تعالى واتيان ما يبتغيه المولى، حينئذٍ حيث بتعبير

القرآن الكريم تتفتح أمامه أبواب بركات السماء والأرض وتنير منزل قلبه اجتذابات الحق تعالى الخاصة ويتأدى تجلّي العشيق في مرآة قلبه وروحه الصقيلة أن يضيء في فؤاده نور عشق الحق تعالى وكل ما تمر عليه لحظة ازدادت أيضاً نار هذا العشق شدّة وحرقة إلى أن تتأدى به إلى مقام العدم والفناء ويغدو كل كيانه مَجْلى أوصاف وأسماء العشيق.

العشق والحب وهو نتاج الهداية وكما يعبّر القرآن الكريم ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾[١] ذو جانبين، فهو متوجه من الحق تعالى نحو العبد ومن العبد تجاه المولى، أحد أرفع وأهم وبل أرفع أحوال السالك والعارف ومن أهم أسس الهداية والعرفان إسلامياً.

العشق من مواهب الرحمن ذاتياً وليس من المكاسب البشرية، إذ هو نتاج سعي العبد في سبيل الله، يعطيه الاله تعالى العبدَ لقاء تلك الجهود وكما ان العشق والنور والحُب موهبة ربانية، فلو اجتمعت الكائنات وركّزت ساعياً لإطفائه، فإنهم سيعجزون عن ذلك.

العشق أكبر سرّ ورمز إلهي وكل مذاهب ومسالك الحق تعالى كما الكتب السماوية فهو نتاجه، وعدا بناء الحب، لا يخلو بناء عن الخلل.

كل ما كان مؤسَّساً على العشق والحب، فهو حقيقة وكل ما سوى ذلك وسوسة وقال وقيل ومدعاة فرقة وتجارب وجدال.

طفيلي وجود العشق الإنسان والملائكة تتـــودّدْ كـــي تســـعد [٢]

إنما بقوة اجتذاب العشق ينفلت العارف من قيد الكون ليتصل ببحر الفقر والعدم وفي الحقيقة ان المستغرق، يتصل بالعالم الثمين، المقام الذي عبّر عنه القرآن بمقام القرب.

١- المائدة ٥: ٥٤.

٢- حافظ الشيرازي.

يقول «مولانا» في وصف هذا الحب:

من الحب يصبح النحاس ذهباً ... من الحب يحلو المرُّ

ومن الحب تشفى الآلام ... من الحب تُجلى الجواهر

ومن الحب ينقلب الخلّ خمراً ... من الحب تعود الاشواك ورداً

ومن الحب يكون الحمل حظوة ... من الحب تغدو المشنقة سريراً

بدون الحب تعود الروضة منبت شوك ... من الحب يصبح السجن مغنى ورد

ومن الحب يؤول الوحش حوراً ... من الحب تتبدّل النار نوراً

بدون الحب يصبح الشمع حديداً ... من الحب يكون الحجر زيتاً

ومن الحب يصبح الفاتك هادياً ... من الحب يغدو الحزن سروراً

ومن الحب يتحوّل القهر رحمة ... من الحب تغدو اللسعة منالاً

ومن الحب يصبح الملك عبداً ... من الحب يحيى الميت

الهداية أسمى النعم الإلهية:

الإنسان الرفيع ذاك الذي يواظب على المحاسبة في جميع برامج حياته؛ الآيات القرآنية والروايات دعت الإنسان إلى اتخاذ محاسبة نفسه، المحاسبة بشأن مسائل الحياة والحقائق المعاشية، تنتج من الإنسان كائناً منظّما كبيرٌ نفعه.

إن كان الإنسان قبل ولوج أي عمل ذا محاسبة بشأنه وبنتائجه في الحياة، فقلّما سوف يتضرّر وقد يمكن القول: لن يتلوّث رداؤه بالضرر والخسران.

من مراحل وجوب اقدام المرء على المحاسبة، قضية النعم الإلهية، فليفكّر وليحاسب نفسه كم أنعم عليه الباري الرؤوف سواء مادياً أم معنوياً ولأي هدف أعطى

الإنسان هذه النعم الظاهرية والباطنية؟

عبر حساب النعم يلج الأدمي ساحة شكر المنعم ويستهلك كل نعمة أداءً لحقيقة الشكر حيثما أراد منه ولي نعمته.

الذين لا شأن لهم بحساب النعم، يبذلون النعمة في غير موضع بذلها وهل الذنب والعصيان والتخلف والتمرد، سوى بذل النعمة في غير موضعها.

ما قيل من أن: اعرفوا قدر النعمة، فمعناه أن ابذلوا النعمة حيث أمر الله.

فقضية بذل النعمة في موضعها لها أهميتها وعظمتها لدرجة انّ أكثر الناس منحرفون عن الصواب في ذلك بحيث قال تعالى في القرآن المجيد:

﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1]

حينما يدقّق المرء في آيات القرآن والمعارف الإسلامية وأوضاع سكان العالم وأحوالهم سنستنتج ان ليس ثمة بين ما أنعم الله به على الإنسان متفضلاً أسمى و أثمن من نعمة الهداية.

قارنوا أنتم بين أهل الهداية وأهل الضلالة وانظروا كم بين الفئتين من فرق من حيث الأخلاق والعمل والأسلوب والمنهاج.

أهل الضلالة أكثر شراً من أي حيوان وأشك وأخبث، أهل الهداية قطعة من النور والفضيلة والجلالة والكرامة.

رأس سلسلة أهل الهداية، هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأولياء الحق تعالى ثم يلي أولئك الأجلّة، أهل الإيمان في طول تاريخ الحياة، قيسوا بين أعمال سلوك أخلاق هؤلاء الناس وبين الذين واجهوهم، ثم احكموا انّ بين النعم، كم هو رفيع مقام الهداية من بين النعم.

١- سبأ ٣٤: ١٣.

قيمة ممارسة الهداية:

وردت في الكتب المعتبرة رواية عن الرسول الأكرم ﷺ تبيّن ثواب هداية شخص واحد من قبل هادي، فعظمة الثواب في حدّ لا يحتويه حاسبو العالم، حينما يكون كل ذلك الثواب لهداية انسان واحد، فكم هو ثواب هداية الكون؟!

عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قالَ: «لَمَّا بَعَثَنى رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله إِلَى الْيَمَنِ قالَ: يَا عَلِيُّ لا تُقاتِلْ أَحَدا حَتّى تَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلامِ وَأَيْمُ اللّهِ لَئِنْ يَهْدى اللّهُ عَلى يَدَيْكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَلَكَ وِلائُهُ»[1].

و ورد في رواية:

«فإن زادوا على العشرة فلو صارت السموات كلها مدادا والأشجار أقلام، والثقلان مع الملائكة كتابا لم يقدروا أن يكتبوا ثواب ركعة واحدة»[2].

بينما صلاة الجماعة خيط صغير في العروة الوثقى للهداية، فاحسبوا على أساس أن خط الهداية وهو يشمل كل المسائل العقائدية والأخلاقية والعملية فكم يكون ثواب ذلك.

يمكن القول بمحاسبة دقيقة أن ليس ثمة بين النعم الإلهية، نعمة أثمن وأكبر قدراً من الهداية.

ما يوصل الإنسان إلى المقامات والأحوال وهي تقرب من ألف منزل ـ أوّلها منزل اليقظة وآخرها منزل الفناء ـ الهداية.

ما ينقّي المرء من القذارات ويحلّيه بالطهارات هي الهداية، وهي التي توصل الإنسان إلى مقام قرب الحق ورضا المولى تعالى عن عبده كما وتُبلغه مقام الحياة

١- مشكاة الأنوار: ١٠٧، الفصل ٩، بحار الأنوار: ١٩/ ١٦٧، الباب ٨، الحديث ١٤، سفينة البحار/ ٢/ ٧٠٠.

٢- بحار الأنوار: ٨٥/ ١٥، الباب ١، الحديث ٢.

الإلهية والإنسانية.

لا تستهلكوا العمر الثمين الذي لا تملكوه أكثر من مرة، فيما لا طائل له، لا تتعاملوا مع العمر بحيث تصرخون لدى الموت عن ندامة بملأ العالم:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَ مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

تعالوا، توجهوا صوب الأنبياء والأئمةعليهم السلام وتمسّكوا بعروة معلّم يبلغ بكم ذلك الجانب، توجَّهوا نحو الحبيب بدموع جارية وقلب ملتهب والتمسوا منه تبارك وتعالى مقام الهداية العظيم، إذ السائل لا يرجع عن هذه الباب خائباً.

أنشدت أنا الفقير، في مقام مناجاة الحبيب، ما يلي:

الهي أي كريم يا من ربيّت عبدك ... لا تخيِّب مستعطيك من هذا الباب

أنت يا صبح أمل ابن السبيل ... أنا أيضاً تفضّل علي بقلب واعٍ

افتح فمي وحرك لساني بذكرك ... آنس قلبي بعشقك

ادع القلب إلى موضع التعارف ... أنا مستعطي تكرَّم علي بالغنى (المعنوي)

اغسل قلبي من غيرك ... اَنل شامّتي عطر العشق

إني ذو أمل بألطافك ... ليس لي غيرك صاحب

سُرَّ مُقعَداً ... حرّره أنت من قيد الغم

لا يقل فضلك يا إلهي ... لو قبلت مستعطياً أحياناً

١- المؤمنون ٢٣: ٩٩ ـ ١٠٠.

تلطّف فـإني محتـاج للعطـف من مفرق الرأس حتى أخمص القدم حاجة لك
أحـــي روحـــي بإحســـانك اَدِمنـــي عاشـــقاً لـــك
خذ بيـدي يـا حبيـب بلطفـك فإني مخمور سكران مـن عشـقك
لـــو قلـــت لـــي يـــا عبـــدي بصعد إلى العرش الأعلى صوت سرمدي وضحكي
كـــل مـــنَ بـــك ليكن دوماً بسرور قلب ورضـا
الا يا من أنت ملء المسكين اخرجـه مـن بئـر الهبـاء

على كل حال فكما يقول الإمام الصادق عليه السلام في الجملة الثانية من الرواية، الطاعة علامة الهداية والمعصية علامة الضلالة وأصلهما الذكر والغفلة. الذكر بنحو ما فسّر في خلال الكتاب.

الضلالة:

التخلف عن أوامر الله تعالى كما ورد في القرآن المجيد وأقوال الأنبياء والأئمة عليهم السلام هو علامة التيه والضلالة.

الضلالة والتيه نتاج غفلة الإنسان عن الحق تعالى وعاقبة الحياة وعن مآل الذنوب والمعاصي.

حينما يوجّه الإنسان كل رغبته وطلباته نحو الدنيا ويسلّم ميدان الحياة بيد أهواء النفس ويفتح الطريق لرداء الغرائز والميول والشهوات، فقد أصيب بالضلالة والتيه وينغمس في ظلمة الذنب.

حين يسهل الذنب على الإنسان وبالتدريج ظهر في وعاء وجود الإنسان إثر الذنب، صدأ وغبار الكدورات وبات الإنسان مخزناً ومصدراً للذنب، يوسم على جبهته بسمة التيه والضلالة وسيتلوّث دون شك، بالكفر والشرك والنفاق وكل رذائل الأخلاق.

ليس في هذا العالم حال وصفة أخطر وأكثر ضرراً من حال الضلالة والتيه.

التيه والضلالة ذلّة، حذّر الأنبياء والأئمة عليهم السلام البشر دوماً منها وهم أنفسهم ـ كما في الكتب المعتبرة ـ قد استعادوا بالله في أدعيتهم منها.

من كان مصاباً بالضلالة، فاسد ومفسد معاً، مريض ومُعلٍ.

الضلالة ـ كما يقول القرآن المجيد ـ خط الشيطان الخبيث والشيطان منبع الشر والخبائث والقذارات والجرائم.

كل إنسان وفي أي مقام كان، لو اتّصل اثر الأهواء النفسانية بهذا الخط القذر، نالته شتى الخبائث وبسعة ماله من ساحة، سيؤدي إلى الضرر والخسران.

الإمام الصادق عليه السلام في متن الرواية يعتبر العصيان والذنب علامة الضلالة، عادّاً الغفلة عن الله، أصل وجذر الذنب.

نعم، حينما يغفل الإنسان عن الله، يعجب بذاته والعجب نقطة الولوج إلى ساحة استجلاب اللذائذ والشهوات الشيطانية.

قد أعلن ربّ العالمين تبارك وتعالى كراهته للضلالة والتيه وأبغض الضال الحيران.

ما يتظاهر أفراد البشر من أعمال ضارّة، مسبّبة عن تيههم وانّ الضلالة سبب بؤس وذلّة وضعة واندحار الإنسان في الدنيا والآخرة.

كان الأنبياء يخافون على الناس كثيراً بلحاظ الضلالة، ساعين حتى حين الشهادة وتقديم الروح في سبيل الله، في انقاذ الناس من الضلالة. الإنسان الضالّ بينه وبين الرحمة والمروّة، الفتوّة والرجولة، الاصالة والتفهّم، العقل والفهم، البصر والبصيرة والحقيقة، فاصلة كما بين المشرق والمغرب، لأنّ حجاب سواد العجب قد أخذ بأقطار وجوده وبات محروماً عن مشاهدة الله والالتفات إلى عباده، انّه لا يعرف غيره هو ولا يرى غيره ولا يريد، لذا فقد أعرض عن حق خالق الخليقة وبات يستجلب كل شيء ولو بغير حق صوب نفسه.

ضالّو التاريخ تلطّخت أيديهم بدماء الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأولياء الله، نهب أهل

الضلال خلال حياتهم أموال الناس دون حق، ولم يرحموا أحداً ولم تستشعر قلوبهم خيفة لدى ارتكاب أي ذنب ومعصية.

«ترون» ارتكب كل قذارة، «اسكندر» يحرق الكتاب والمكتبات والناس ومساكنهم، «آتيلا» يقطع بشفرة ظلمه وأجرامه آلاف الرؤوس، «تيمور» و«جنكيز» يمسحان بهجماتهم في عدة سنين صفحات مياه الأبرياء، «معاوية» خلال حكومته الغاصبة القليلة العمر يقتل آلاف الناس بجرم عشقهم لـ «علي» ويدفنهم أحياء، «الحجاج بن يوسف» يحبس في أرض محاطة ثمانين ألفاً من الرجال والنساء، جُرمهم الإيمان بالله، ويحرمهم جميعاً من اوّليات مستلزمات العيش، «يزيد» يرتكب في ثلاث سنين فترة حكمه، ثلاث جرائم؛ واقعة كربلاء، المدينة ومكّة، «أقا محمد خان القاجاري» و«نادر شاه» يضعون المنارات من الرؤوس المقطوعة والعيون المقلوعة، «ناصر القاجاري» يلطّخ يده بدماء آلاف الأبرياء والمصلحين مثل «أمير كبير» و«السيد جمال الدين»، «رضا خان» و«محمد رضا البهلوي» يتسببون خلال فترة حكمهم في قتل نحو نصف مليون انساناً ويعذّبون الآف في السجون بشتى التعذيب، «هتلر» خلال أحد عشر عاماً، يقطّع بالأسلحة النارية أشلاء خمسة وثلاثين مليون شخصاً وأمثال هذه الحيوانات الخطرة طوال التاريخ يُؤلون البشرية شتى الابرام، في الوقت الحاضر فإن قادة امريكا والاتحاد السوفياتي وفرنسا وانجلترا يفنون ملايين الناس دون اكتراث، يستعبدون الملايين بجرم انهم بشر، لماذا؟ لأجل ان هؤلاء ضالون، ومستغرقون في الضلال ومن هكذا فلا رحمة له أو مروة أو عاطفة أو رجولة وكرامة وصدق!!

الإنسان الضال محروم من جميع الفضائل الإنسانية، لا كرامة لديه، ولا اعتبار، بمنأى عن قدر أو قيمة، باطنه مظلم، قلبه أسود، عقله عاطل ويسود كل كيانه الشيطنة والجهل.

أهل الضلال لا يعرفون من العالم كله غير البطن والشهوة والتعدّي على حقوق

الآخرين المسلَّمة. أهل الضلالة مدعاة زحمة للآخرين في كل أمور الحياة وأساساً هم لا يرغبون في أن يكون الآخرون، ولو أرادوا الآخرين، فلأجل بطنهم هم وشهوتهم.

إقرؤوا الخطبة الثالثة في «نهج البلاغة» المعروفة بخطبة «الشقشقية» لكي تعرفوا انّ أهل التيه والضلال ماذا رأى منهم الناس ودققوا في الخطبة المليئة بالمسائل العجيبة لسيدة نساء العالمين الزهراء عليها السلام التي ألقتها في المجسد، أمام مُخرجي غصب الخلافة، كي يتضح لكم انّ زمان الأمر إذ يقع بأيدي الضالين، فأيّ المصائب والأضرار التي لا تعوض، ستعاني منها البشرية.

يقول الإمام علي عليه السلام في الخطبة السابعة من «نهج البلاغة» بشأن الضالّين:

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاَكا وَ اتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكا، فَباضَ وَ فَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ وَ دَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَ نَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَ نَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ».

القرآن وموضوع الضلالة:

كما يبين الإمام الصادق عليه السلام في متن الرواية، فإن المعصية علامة الضلالة وسبب المعصية الغفلة؛ يذكر القرآن الكريم في آيات كثيرة، معاصي وذنوباً مختلفة معتبراً تلك المعاصي والذنوب ضلالة وتيهاً.

لاحظوا الآن نماذج من آيات القرآن المجيد في هذا الخصوص:

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[1].

تبديل الإيمان هذا الرأس المال الإلهي العظيم النفع إلى الكفر مدعاة البؤس والشقاء، وذلك اثر الأنس بالذنب والمعصية ولذا كان القرآن والروايات تدعو الناس

١- البقرة ٢: ١٠٨.

إلى الخوف من الوقوع في الذنب والمعصية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً﴾[١].

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

نعم، عبادة الهوى، سبيل إلى التيه والضلال وإذ أُصيب الإنسان بالضلالة، فينبغي عدم وقع الخير والنفع منه وترقّب جرائمه وخياناته.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٣].

دققوا في هذه الآية، عاقبة اتباع الميول والغرائز غير المتوافقة مع مطالب الحق تعالى، الضلالة وسبب اتباع الهوى والرغبات، الغفلة ونسيان يوم الحساب و هذا النسيان، نتاجه التيه والضلالة، كما يقول، امام الصادق عليه السلام: «**وَالْمَعْصِيَةُ عَلامَةُ الضَّلالَةِ وَأَصْلُهُما مِنَ الذِّكْرِ وَالْغَفْلَةِ**».

علامة الضلالة:

الذنب والمعصية علامة الضلالة وجذر الذنب، وضلالة ونسيان وغفلة الإنسان تجاه الحقائق الإلهية.

١- النساء ٤: ١٦٧.

٢- الجاثية ٤٥: ٢٣.

٣- ص ٣٨: ٢٦.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾[١].

أوصاف أهل الضلالة:

لأهل الضلالة ـ كما يقول القرآن الكريم ـ أوصاف من قبيل: معتدٍ، كفار أثيم، ظالم، مختال فخور، خوّان أثيم، مفسد، مسرف، خائن مستكبر وقد أعلن الباري تعالى في كثير من آيات كتابه الكريم، بغضه وكرهه وتنفّره من كل ذلك، كما تلاحظون ذلك حسب الترتيب فيما يلي:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢].

﴿يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٣].

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورا﴾[٥].

﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيما﴾[٦].

١- آل عمران ٣: ٩٠.

٢- البقرة ٢: ١٩٠.

٣- البقرة ٢: ٢٧٦.

٤- آل عمران ٣: ٥٧.

٥- النساء ٤: ٣٦.

٦- النساء ٤: ١٠٧.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

﴿وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٢].

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لاَيُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٣].

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٤].

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٥].

حقاً كم هي خطرة دنيا الضلالة والتيه، دنيا تصيب نفس الإنسان أولاً وثم الآخرين بالضرر والخسران والمخاطر.

الإضلال ذنب لا يُغفر:

حينما تسود الإنسان الضلالة والتيه فإنها تسخّر كل الأعضاء والجوارح والشؤون الإنسانية وتجعل الإنسان في كل حين حامل المفروضات الشيطانية، وستتأدى إلى خراب وانعدام منزل الإنسان دنيا وآخرة وكم تعس وبائس وذليل ذلك الذي يبغضه الله والأنبياء والأئمة عليهم السلام والأولياء والعشاق والعرفاء.

«عَنْ سَماعَةٍ عَنْ أَبى عَبْدِ اللّهِ قَالَ قُلْتُ لَهُ قَوْلَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَبَارَكَ وَتَعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ

١- المائدة ٥: ٦٤.

٢- الأنعام ٦: ١٤١.

٣- الأنفال ٨: ٥٨.

٤- النحل ١٦: ٢٣.

٥- القصص ٢٨: ٧٦.

فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾... [١]قَالَ مَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلالٍ إِلَى هُدىً فَقَدْ أَحْيَاهَا وَمَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ هُدىً إِلى ضَلالٍ فَقَدْ قَتَلَهَا»[٢].

مَن يضلُّ شخصاً فكل وزره ووباله وذنوبه في عنق المضل ـ بناءً على قول القرآن الكريم في آيات متعددة ـ وقد جاءت أيضاً هذه المسألة كثيراً في الروايات والاخبار من ذلك:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

كان رجل في الزمن الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها وطلبها من حرام فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال له: يا هذا إنك قد طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها وطلبتها من حرام فلم تقدر عليها، أفلا أدلك على شيء تكثر به دنياك ويكثر به تبعك؟ قال: بلى، قال: تبتدع ديناً وتدعوا إليه الناس، ففعل فاستجاب له الناس وأطاعوه وأصاب من الدنيا ثم انّه فكر وقال: ابتدعت ديناً ودعوت الناس، ما أرى لي توبة الآن إلا أن آتي من دعوته إليه فاردّه عنه، فجعل يأتي اصحابه الذين أجابوه فيقول لهم: إن الذي دعوتكم إليه باطل وإنما ابتدعته، فجعلوا يقولون: كذبت وهو الحق ولكنّك شككت في دينك فرجعت عنه، فلمّا رأى ذلك عمد إلى سلسلة فوتد لها وتداً ثم جعلها في عنقه وقال: لا أحلها حتى يتوب الله (عز وجل) عليّ فأوحى الله (عز وجل) إلى نبي من الأنبياء: قل لفلان وعزتي لو دعوتني حتى تتقطع اوصالك ما استجبت لك حتى ترد من مات على ما دعوته فيرجع عنه[٣].

١- المائدة ٥: ٣٢.

٢- المحاسن: ٢٣١/١، باب من ترك المخاصمة، الحديث ١٨١، وسائل الشيعة: ١٨٧/١٦، الباب ١٩، الحديث ٢١٣٠٨.

٣- سفينة البحار: ٢٦٠/٥، باب العناد، ذم إضلال الناس.

الولاية صراط الهداية:

من عهد رسول الإسلام الأكرم ﷺ وإلى يوم القيامة، فسبيل الهداية منحصر في التمسك بالقرآن والأئمة الطاهرين عليهم السلام، الأئمة عليهم السلام هم تراجمة القرآن ومفسّرو الوحي والمحافظون على الشريعة الإلهية، لو عاش شخص بمعزل عن هذين الثقلين الالهين، أو قال حسبنا كتاب الله ولا حاجة بنا إلى علي عليه السلام دوبنيه الأحد عشر، فهو ضال دون شك وعلى سبيل ضلالة بحكم القرآن صراحة وقول رسول الله ﷺ في حديث الثقلين الذي روته كل كتب الحديث السنّية والشيعية:

«إنّى تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقْلَيْنِ كِتابَ اللّهِ وَعِتْرَتى أَهْلَ بَيْتى وإنَّهُما لَنْ يَفْتَرِقا حَتّى يَرِدا عَلَىَّ الْحَوْضِ مَا إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما لَنْ تَضِلُّوا مِنْ بَعْدى أَبَدا»[1].

الذين رفعوا أيديهم بعد رسول الله ﷺ، عن ولاة الأمر الحقيقين وقالوا على حدّ قولهم ـ حسبنا كتاب الله، ضلوا هم وأضلوا حتى اليوم ملايين الرجال والنساء.

حكاية مقتل مالك بن نويرة وأفراد عشيرته ومضاجعة خالد بن الوليد وأصحابه وهم من رجال حكومة أبي بكر، مع النساء اللّواتي قُتل رجالهن ليلاً بأمر خالد، ألم يكن ذلك ضلالة؟!

بعد ارتحال الرسول ﷺ، إغلاق باب بيت خزانة العلم الإلهي، وصيّ النبي ﷺ حقاً و المصداق الحقيقي لأولي الأمر في القرآن أي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أليس هو عين الضلال؟

بالقهر والتغلّب والقوة، إبعاد الناس عن علي وأخذ الجميع عدا مجموعة قليلة إلى

١- مستدرك الوسائل: ٢٢٥٤/٧ الباب ٤٧، الحديث ٨١٨١.

سبيل آخر، أليس ضلالاً؟

من ذلك الحين وحتى الآن، حيث لأجل انعدام حكومة العدل فالمظالم التي واجهها ملايين المسلمين من رجال ونساء أليس هي عين ضلال واضلال قادة الحكومات الغاصبة؟

طالعوا التاريخ، تاريخ مظالم الحكومات ما بعد النبي ﷺ حتى اليوم وانظروا ماذا جرى من تلك الحكومات على الشيعة وماذا حلّ بالمسلمين؟ قضايا يعجز عن تعدادها الإنس والجن ثم احكموا هل أن تلك الحكومات لم تكن ضالة مضلّة؟!

اليوم حكومات الدول العربية والتي وبكل وقاحة تدعم مصالح امريكا وفرنسا وانجلترا ـ هذه الذئاب الدامية ـ وهم من جانب آخر أهم الحفّاظ في منطقة الشرق الأوسط على إسرائيل الغاصبة، انظروا ماذا يفعلون بالمسلمين وأموالهم ونواميسهم وأعراضهم!؟ أليس هذا ضلالاً؟

هذه الحكومات هي توالي الحكومة العثمانية والحكومة العثمانية من توالي الحكومات الاسبق وتلك الحكومات توالي حكومة بني العباس وحكومة بني العباس من توالي حكومة بني أمية وحكومة بني أمية من توالي حكومة السقيفة وكل هذه الحكومات حكمت بمعزل عن القرآن وأهل البيت عليهم السلام ونتاج حكوماتهم أنواع البلايا والمظالم ممّا حلّ بالمسلمين ولا يعدّ تلك البلايا والمظالم محصياً إلا الله وحده!!

إذ انفضلت صلة الخلافة بالقرآن صبّت السمّ الزعاق في فم الحرّية[1].

لم يكن جزافاً أن يقول الرسول ﷺ في روايات كثيرة كما نقلت ذلك كتب كثيرة لأهل السنة والشيعة:

ذروة الأمر، وسنامه، ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضى الرحمن، الطاعة للامام بعد

١- إقبال اللاهوري.

معرفته، أما لو أن رجلا قام ليله، وصام نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحج جميع دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله حق في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان[١].

ينقل كتاب العظيم «الكافي» في باب الحجة، حديثاً بالغ الأهمية عن قول زرارة ـ ذلك الرجل العادل العالم الحافظ الأمين الثقة ـ في هذا الخصوص:

عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: بني الاسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شئ من ذلك أفضل؟

فقال: الولاية أفضل، لانها مفتاحهن والوالي هوالد ليل عليهن، قلت: ثم الذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال: الصلاة إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الصلاة عمود دينكم، قال: قلت: ثم الذي يليها في الفضل؟ قال: الزكاة لانه قرنها بها وبدأ بالصلاة قبلها وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الزكاة تذهب الذنوب. قلت: والذي يليها في الفضل؟

قال: الحج قال الله عزوجل:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لحجة مقبولة خير من عشرين صلاة نافلة ومن طاف بهذا البيت طوافا أحصى فيه اسبوعه وأحسن ركعتيه غفر الله له وقال في يوم عرفة ويم المزدلفة ما قال: قلت: فماذا يتبعه؟ قال:

الصوم قلت: وما بال الصوم صار آخر ذلك أجمع؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله

١- وسائل الشيعة: ١١٩/١، الباب ٢٩، الحديث ٢٩٨.

٢- النساء ٤: ٨٠.

الصوم جنة من النار، قال: ثم قال: إن أفضل الاشياء ما إذا فاتك لم تكن منه توبة دون أن ترجع إليه فتؤد يه بعينه، إن الصلاة والزكاة والحج والولاية ليس يقع شئ مكانها دون أدائها وإن الصوم إذا فاتك أو قصرت أو سافرت فيه أديت مكانه أياما غيرها وجزيت ذلك الذنب بصدقة ولا قضاء عليك وليس من تلك الاربعة شئ يجزيك مكانه غيره، قال: ثم قال ذروة الامر وسنامه ومفتاحه وباب الاشياء و رضا الرحمن الطاعة للامام بعد معرفته، إن الله عزوجل يقول:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَ مَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾[1].

أما لو أن رجلا قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله عزوجل حق في ثوابه ولا كان من أهل الايمان، ثم قال: اولئك المحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته[2].

الشيخ الصدوق ـ ذلك الرجل الجليل القليل النظير الذي له ثلاثمائة كتاباً عظيماً إسلامياً ـ ينقل حديثاً بسند قوي جداً في باب في قيادة أمير المؤمنين عليه السلام ـ وهو الاطار للهداية الإلهية والانفصال عنه عين الضلالة والتيه، ينبغي لنا زينة للكتاب وتبركاً به أن ننقله بسنده:

عن القطان عن عبدالرحمن بن محمد الحسيني عن محمد بن ابراهيم الفرازى عن عبدالله بن يحيى الأهوازى عن على بن عمرو عن الحسن بن محمّد بن جمهور عن على بن بلال عن على بن موسى الرضا عن موسى بن

١- النساء ٤: ٨٠.

٢- الكافي ١٨/٢، باب دعائم الإسلام، الحديث ٥، سفينة البحار: ٦٠/٨، الولاية.

جعفر عن جعفر بن محمد عن محمد بن علي عن علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي‌طالب عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن ميكائيل عن اسرافيل عن اللوح عن القلم قال: يقول اللّه عزّوجلّ:

«وِلايَةُ عَلِيِّ بنِ أبي‌طالِب حِصْني فَمَنْ دَخَلَ حِصْني أَمِنَ مِنْ عَذابي»[1].

الطريحي.. وهو من كبار علماء الإسلام ـ في كتاب «مجمع البحرين» في ضمن لفظة «ولي» وفق الآيات والروايات، يفسِّر معنى «الولاية» كالتالي:

«الولاية محبة أهل البيت واتّباعُهم في الدين وامتثال أوامرهم ونواهيهم والتأسّي بهم في الأعمال والأخلاق»[2].

هل تجدون للفظة الهداية معنى أوضح من معنى الولاية؟ الهداية تعني الرجوع إلى القرآن والأئمة المعصومين عليهم السلام لأجل فهم المسائل الإلهية وتطبيقها وهل ترون معنى للضلالة أوضح مِن أنّ الضلالة تعني الانفصال عن القرآن وأهل البيت عليهم السلام!!

خطبة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله بشأن المعاصي والذنوب:

قال الإمام الصادق عليه السلام في الجملة الثانية من الرواية التي نشرحها: (والمعصية علامة الضلالة» وسبب المعصية الغفلة عن الله والقرآن والأنبياء والأئمة عليهم السلام.

بما أن هدفي بمشيئة الحق تعالى من تأليف هذا الكتاب وشرح الأحاديث القيّمة لـ «مصباح الشريعة» أنْ يتحلّى الناس بالتربية الإلهية والتحلي بالرتبة الإلهية فرع معرفة الحسنات والسيئات وانّ الإنسان ما لم يعرف المحاسن والمقابح، لن يكون بمقدوره

٣- الأمالي، شيخ صدوق: ٢٣٥، مجلس ٤١، حديث ٩.

٢- مجمع البحرين، ٤٦٢/١، الولاية.

التحلّي بالمحاسن والتنزّه عن المقابح، هنا رأيت لزاماً التنبيه على خطبة غاية في الأهمية لقائد الإسلام الأعظم نبينا الأكرمﷺ يذكر في قسمها الأول كثيراً من المعاصي وعقوباتها الأخروية، ألقاها في أواخره عمره الشريف في المدينة ولأكون مع القراء مستمعين لهﷺ منصتين عسى أن أحد الأعزّة بمطالعة ذلك يعود إلى نفسه وان كان على سبيل ضلال أن يعود المسلك الشيطاني ويضمن نجاته الأبدية.

قد أورد الخطبة بتمامها عالم الشيعة الكبير الامين العادل، الثقة الحافظ الشيخ الصدوقرحمه الله في ختام كتابه القيّم «**عقاب الأعمال**»، بإمكانكم لأجل التعلّم مراجعة ذلك الكتاب. يقول عبد الله بن عباس:

خطبنا رسول اللهﷺ قبل وفاته وهي آخر خطبة خطبها بالمدينة، حتى لحق بالله عز وجل، فوعظنا بمواعظ ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، واقشعرت منها الجلود، وتقلقلت منها الاحشاء، أمر بلالا فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس وخرج رسول اللهﷺ حتى ارتقى المنبر، فقال: يا أيها الناس ادنوا، ووسعوا لمن خلفكم، قالها ثلاث مرات فدنا الناس وانضم بعضهم إلى بعض فالتفتوا فلم يروا خلفهم أحدا ثم قال: أيها الناس ادنوا ووسعوا لمن خلفكم.

فقال رجل: يا رسول اللهﷺ لمن نوسع؟ قال: للملائكة فقال: إنهم إذا كانوا معكم لم يكونوا من بين أيديكم ولا من خلفكم ولكن يكونون عن أيمانكم وعن شمائلكم، فقال رجل: يا رسول اللهﷺ لم لا يكونون من بين أيدينا ومن خلفنا؟ امن فضلنا عليهم أم فضلهم علينا؟ قال: أنتم أفضل من الملائكة اجلس، فجلس الرجل فخطب رسول اللهﷺ فقال:

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له.

يا أيها الناس إنه كائن في هذه الامة ثلاثون كذابا أول من يكون منهم صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة.

يا أيها الناس إنه من لقي الله عزوجل يشهد أن لا إله إلا الله مخلصا لم يخلط معها غيرها، دخل الجنة، فقام علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فقال: يا رسول الله ﷺ **بأبي أنت وأمي وكيف يقولها مخلصا لا يخلط معها غيرها؟ فسر لنا هذا، حتى نعرفه،** فقال: نعم حرصا على الدنيا وجمعا لها من غير حلها، ورضى بها، وأقوام يقولون أقاويل الاخيار ويعملون أعمال الجبابرة، فمن لقي الله عزوجل وليس فيه شئ من هذه الخصال، وهو يقول: لا إله إلا الله، فله الجنة، فان أخذ الدنيا وترك الاخرة فله النار. ومن تولى خصومة ظالم أو أعانه عليها نزل به ملك الموت بالبشرى بلعنة الله ونار جهنم خالدا فيها وبئس المصير.

ومن خف لسلطان جابر في حاجة كان قرينه في النار، ومن دل سلطانا على الجور قرن مع هامان وكان هو والسطان من أشد أهل النار عذابا، ومن عظم صاحب دنيا وأحبه لطمع دنياه سخط الله عليه وكان في درجته مع قارون في التابوت الاسفل من النار. ومن بنى بنيانا رياء وسمعة حمله يوم القيامة إلى سبع أرضين ثم يطوقه نارا توقد في عنقه، ثم يرمى به في النار، فقلنا: يا رسول الله ﷺ كيف يبني رياء وسمعة قال: يبني فضلا على ما يكفيه أو يبني مباهاة، ومن ظلم أجيرا أجره أحبط الله عمله وحرم عليه ريح الجنة، وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام.

ومن خان جاره شبرا من الارض طوقه الله يوم القيامة إلى سبع أرضين نارا حتى تدخله نار جهنم. ومن تعلم القرآن ثم نسيه متعمدا لقي الله يوم القيامة مجذوما مغلولا ويسلط الله عليه بكل آية حية موكلة به.

ومن تعلم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حب الدنيا وزينتها، استوجب سخط الله عزوجل، وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذين ينبذون كتاب الله وراء

ظهورهم، ومن نكح امرأة حراما في دبرها أو رجلا أو غلاما حشره الله عزوجل يوم القيامة أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخل جهنم ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا وأحبط الله عمله، ويدعه في تابوت مشدود بمسامير من حديد ويضرب عليه في التابوت بصفائح حتى يشبك في تلك المسامير، فلو وضع عرق من عروقه على أربع مائة ألف امة لماتوا جميعا، وهو من أشد أهل النار عذابا.

ومن زنى بامرأة يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو مسلمة حرة أو أمة أو من كانت من الناس فتح الله عزوجل عليه في قبره ثلاثمائة ألف باب من النار تخرج عليه منها حيات وعقارب وشهب من نار، فهو يحترق إلى يوم القيامة، يتأذى الناس من نتن فرجه فيعرف به إلى يوم القيامة حتى يؤمر به إلى النار، فيتأذى به أهل الجمع مع ما هم فيه من شدة العذاب لان الله حرم المحارم وما أحد أغير من الله، ومن غيرته أنه حرم الفواحش وحد الحدود. ومن اطلع في بيت جاره فنظر إلى عورة رجل أو شعر امرأة أو شئ من جسدها كان حقا على الله أن يدخله النار مع المنافقين الذين كانوا يتبعون عورات الناس في الدنيا ولا يخرج من الدنيا حتى يفضحه الله ويبدي عورته للناس في الاخرة.

ومن سخط برزقه وبث شكواه ولم يصبر لم ترفع له إلى الله حسنة، ولقي الله عزوجل وهو عليه غضبان. ومن لبس ثوبا فاختال فيه خسف الله به قبره من شفير جهنم يتخلخل فيها ما دامت السماوات والاض فان قارون لبس حلة فاختال فيها فخسف به فهو يتخلخل فيها إلى يوم القيامة.

ومن نكح امرأة بمال حلال غير أنه أراد بها فخرا ورياء لم يزده الله عزوجل بذلك إلا ذلا وهوانا وأقامه الله بقدر ما استمتع منها على شفير جهنم ثم يهوي فيها سبعين خريفا. ومن ظلم امرأة مهرها فهو عند الله زان، ويقول الله عزوجل له يوم القيامة: عبدي زوجتك أمتي على عهدي فلم تف لي بالعهد فيتولى الله طلب حقها فيستوعب حسناته كلها فلا تفي بحقها فيؤمر به إلى النار.

ومن رجع عن شهادته وكتمها أطعمه الله لحمه على رؤوس الخلائق ويدخله النار وهو يلوك لسانه ومن كانت له امرأتان ولم يعدل بينهما في القسم من نفسه وماله جاء يوم القيامة مغلولا مائلا شقه حتى يدخل النار.

ومن كان مؤذيا لجاره من غير حق حرمه الله ريح الجنة ومأويه النار ألا وإن الله عزوجل يسأل الرجل عن حق جاره، ومن ضيع حق جاره فليس منا. ومن أهان فقيرا مسلما من أجل فقره واستخف به فقد استخف بحق الله ولم يزل في مقت الله عزوجل وسخطه حتى يرضيه.

ومن أكرم فقيرا مسلما لقي الله يوم القيامة وهو يضحك إليه. ومن عرضت له دنيا وآخرة فاختار الدنيا على الاخرة لقي الله عزوجل وليست له حسنة تتقى بها النار، ومن أخذ الاخرة وترك الدنيا لقي الله يوم القيامة وهو راض عنه.

ومن قدر على امرأة أو جارية حراما فتركها مخافة الله عزوجل حرم الله عزوجل عليه النار وآمنه من الفزع الاكبر وأدخله الله الجنة وإن أصابها حراما حرم الله عليه الجنة وأدخله النار، ومن اكتسب مالا حراما لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقا ولا حجا ولا اعتمارا وكتب الله عزوجل بعدد أجر ذلك أوزارا وما بقي منه بعد موته كان زاده إلى النار ومن قدر عليها وتركها مخافة الله عزوجل كان في محبة الله ورحمته ويؤمر به إلى الجنة. ومن صافح امرأة حراما جاء يوم القيامة مغلولا ثم يؤمر به إلى النار.

ومن فاكه امرأة لا يملكها حبس بكل كلمة كلمها في الدنيا ألف عام في النار، والمرأة إذا طاوعت الرجل فالتزمها أو قبلها أو باشرها حراما أو فاكهها أو أصاب منها فاحشة فعليها من الوزر ما على الرجل فان غلبها على نفسها، كان على الرجل وزره ووزرها.

ومن غش مسلما في بيع أو شراء فليس منا ويحشر مع اليهود يوم القيامة لانه من غش الناس فليس بمسلم. ومن منع الماعون من جاره إذا احتاج إليه منعه الله فضله يوم القيامة ووكله إلى نفسه ومن كله الله إلى نفسه هلك، ولا يقبل الله عزوجل له عذرا.

ومن كانت له امرأة تؤذيه لم يقبل الله صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعينه وترضيه، وإن صامت الدهر، وقامت وأعتقت الرقاب، وأنفقت الاموال في سبيل الله وكانت أول من يرد النار ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وعلى الرجل مثل ذلك الوزر العذاب إذا كان لها مؤذيا ظالما. ومن لطم خد مسلم لطمة بدد الله عظامه يوم القيامة ثم سلط الله عليه النار وحشره مغلولا حتى يدخل النار.

ومن بات وفي قلبه غش لاخيه المسلم بات في سخط الله وأصبح كذلك وهو في سخط الله حتى يتوب ويرجع، وإن مات كذلك مات على غير دين الاسلام. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا ومن غشنا فليس منا قالها ثلاث مرات.

ومن علق سوطا بين يدي سلطان جائر جعله الله عزوجل حية طولها ستون ألف ذراع، فتسلط عليه في نار جهنم خالدا فيها مخلدا ومن اغتاب أخاه المسلم بطل صومه ونقض وضوؤه، فان مات وهو كذلك، مات وهو مستحل لما حرم الله، ومن مشى في نميمة بين اثنين سلط الله عليه في قبره نارا تحرقه إلى يوم القيامة وإذا خرج من قبره سلط الله عليه تنينا أسود تنهش لحمه حتى يدخل النار. ومن كظم غيظه وعفا عن أخيه المسلم وحلم عن أخيه المسلم أعطاه الله تعالى أجر شهيد.

ومن بغى على فقير أو تطاول عليه أو استحقره حشره الله يوم القيامة مثل الذرة في صورة رجل حتى يدخل النار. ومن رد عن أخيه غيبة سمعها في مجلس رد الله عزوجل عنه ألف باب من الشر في الدنيا والاخرة فان لم يرد عنه وأعجب به كان عليه كوزر من اغتاب.

ومن رمى محصنا أو محصنة أحبط الله عمله وجلده يوم القيامة سبعون ألف ملك من بين يديه ومن خلفه وتنهش لحمه حيات وعقارب ثم يؤمر به إلى النار. ومن شرب الخمر في الدنيا سقاه الله عز وجل من سم الافاعي ومن سم العقارب شربة يتساقط لحم وجهه في الاناء قبل أن يشربها، فإذا شربها تفسخ لحمه وجلده كالجيفة يتأذى به

أهل الجمع حتى يؤمر به إلى النار، وشاربها وعاصرها ومعتصرها في النار، وبائعها ومتبايعها وحاملها والمحمول إليه وآكل ثمنها سواء في عارها وإثمها ألا ومن سقاها يهوديا أو نصرانيا أو صابئا أو من كان من الناس فعليه كوزر من شربها ألا ومن باعها أو اشتراها لغيره لم يقبل الله عزوجل منه صلاة ولا صياما ولا حجا ولا اعتمارا حتى يتوب ويرجع منها وإن مات قبل أن يتوب كان حقا على الله عزوجل أن يسقيه بكل جرعة شرب منها في الدنيا شربة من صديد جهنم ثم قال رسول الله ﷺ ألا وإن الله عزوجل حرم الخمر بعينها والمسكر من كل شراب ألا وكل مسكر حرام.

ومن أكل الربا ملا الله عزوجل بطنه من نار جهنم بقدر ما أكل، وإن اكتسب منه مالا لا يقبل الله منه شيئا من عمله، ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما كان عنده قيراط واحد.

ومن خان أمانة في الدنيا ولم يردها على أربابها مات على غير دين الاسلام ولقي الله عزوجل وهو عليه غضبان، فيؤمر به إلى النار، فيهوي به في شقير جهنم. أبد الابدين. ومن شهد شهادة زور على رجل مسلم أو ذمي أو من كان من الناس غلق بلسانه يوم القيامة وهو مع المنافقين، في الدرك الاسفل من النار. ومن قال لخادمه ومملوكه أو من كان من الناس: لا لبيك ولا سعديك، قال الله تعالى له يوم القيامة: لا لبيك ولا سعديك، أتعس في النار. ومن أضر بامرأة حتى تفتدي منه نفسها لم يرض الله عزوجل له بعقوبة دون النار، لان الله عزوجل يغضب للمرأة كما يغضب لليتيم.

ومن سعى بأخيه إلى سلطان لم يبدله منه سوء ولا مكروه، أحبط الله عز وجل كل عمل عمله، فان وصل إليه منه سوء أو مكروه أو أذى جعله الله في طبقة مع هامان في جهنم. ومن قرأ القرآن يريد به السمع والتماس شئ لقي الله عزوجل يوم القيامة ووجهه مظلم ليس عليه لحم، وزجه القرآن في قفاه حتى يدخله النار، ويهوي فيها من مع يهوي.

ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله عزوجل يوم القيامة أعمى فيقول: ″ رب لم

حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال: كذلك أتتك آياتنا فنستيها وكذلك اليوم تنسى " فيؤمر به إلى النار. ومن اشترى خيانة وهو يعلم أنها خيانة فهو كمن خانها في عارها وإثمها ومن قاود بين رجل وامرأة حراما حرم الله عليه الجنة ومأواه جهنم وسائت مصيرا ولم يزل في سخط الله حتى يموت.

ومن غش أخاه المسلم نزع الله عنه بركة رزقه، وأفسد عليه معيشته، ووكله إلى نفسه. ومن اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة، فهو كمن سرقها في عارها وإثمها ومن خان مسلما فليس منا ولسنا منه في الدنيا والاخرة. ألا ومن سمع فاحشة فأفشاها فهو كمن أتاها، ومن سمع خيرا فأفشاه فهو كمن عمله.

ومن وصف امرأة لرجل وذكرها جماله فافتتن بها الرجل فأصاب فاحشة لم يخرج من الدنيا حتى يغضب الله عليه ومن غضب الله عليه غضبت عليه السماوات السبع والارضون السبع وكان عليه من الوزر مثل الذي أصابها، قيل: يا رسول الله فان تابا وأصلحا؟ قال: يتوب الله عزوجل عليهما ولم يقبل توبة الذي خطاها بعد الذي وصفها. ومن ملا عينيه من امرأة حراما حشاهما الله عزوجل يوم القيامة بمسامير من نار، وحشاهما نارا حتى يقضى بين الناس، ثم يؤمر به إلى النار.

ومن أطعم طعاما رياء وسمعة أطعمه الله مثله من صديد جهنم وجعل ذلك الطعام نارا في بطنه، حتى يقضي بين الناس. ومن فجر بامرأة ولها بعل انفجر من فرجهما من صديد واد مسيرة خمسمائة عام يتأذى أهل النار من نتن ريحهما، وكانا من أشد الناس عذابا. واشتد غضب الله عزوجل على امرأة ذات بعل ملات عينها من غير زوجها أو غير ذي محرم منها، فانها إن فعلت ذلك أحبط الله كل عمل عملته، فان أوطأت فراشه غيره كان حقا على الله أن يحرقها بالنار بعد أن يعذبها في قبرها. وأيما امرأة اختلعت من زوجها لم تزل في لعنة الله وملائكته ورسله والناس أجمعين حتى إذا نزل بها ملك الموت، قال لها: أبشري بالنار، وإذا كان يوم القيامة قيل لها: ادخلي النار مع الداخلين،

ألا وإن الله ورسوله بريئان من المختلعات بغير حق، ألا وإن الله عزوجل بريئان ممن أضر بامرأة حتى تختلع منه.

ومن أم قوما باذنهم وهم عنه راضون فاقتصد بهم في حضوره وقراءته وركوعه وسجوده وقعوده وقيامه، فله مثل أجرهم، ومن أم قوما فلم يقتصد بهم في حضوره وقراءته وركوعه وسجوده وقعود وقيامه ردت عليه صلاته، ولم تجاوز تراقيه وكانت منزلته عند الله عز وجل كمنزلة إمام جائر معتد لم يصلح لرعيته، ولم يقم فيهم بأمر الله تعالى. فقام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما منزلة أمير جائر معتد لم يصلح لرعيته ولم يقم فيهم بأمر الله تعالى؟ قال: هو رابع أربعة من أشد الناس عذابا يوم القيامة: إبليس، وفرعون، وقاتل النفس ورابعهم الامير الجاير. ومن احتاج إليه أخوه المسلم في قرض فلم يقرضه حرم الله عليه الجنة يوم الجزي المحسنين. ومن صبر على سوء خلق امرأته واحتسبه أعطاه الله بكل مرة يصبر عليها من الثواب مثل ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه وكان عليها من الوزر في كل يوم وليلة مثل رمل عالج، فان ماتت قبل أن تعينه وقبل أن يرضى عنها حشرت يوم القيامة منكوسة مع المنافقين في الدرك الاسفل من النار.

ومن كانت له امرأة لم توافقه ولم تصبر على ما رزقه الله عزوجل وشقت عليه وحملته ما لم يقدر عليه يقبل الله منها حسنة تتقى بها النار، وغضب الله عليها ما دامت كذلك. ومن أكرم أخاه فانما يكرم الله فما ظنكم بمن يكرم الله أن يفعل به ومن تولى عرافة قوم ولم يحسن فيهم حبس على شفير جهنم بكل يوم ألف سنة وحشر ويده مغلولة إلى عنقه، فان كان قام فيهم بأمر الله عزوجل أطلقها الله، وإن كان ظالما هوى به في نار جهنم سبعين خريفا. ومن لم يحكم بما أنزل الله كان كمن شهد شهادة زور، ويقذف به في النار ويعذب بعذاب شاهد الزور، ومن كان ذا وجهين ولسانين كان ذا وجهين ولسانين يوم القيامة، ومن مشى في صلح بين اثنين صلى عليه ملائكة الله حتى

يرجع واعطي أجر ليلة القدر، ومن مشى في قطيعة بين اثنين كان عليه من الوزر بقدر ما لمن أصلح بين اثنين من الاجر مكتوب عليه لعنة الله حتى يدخل جهنم فيضاعف له العذاب.

ومن مشي في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله، ومن مشى في عيب أخيه فكشف عورته كانت أول خطوة خطاها ووضعها في جهنم، وكشف الله عورته على رؤوس الخلائق، ومن مشى إلى ذي قرابة وذي رحم يسأل به أعطاه الله أجر مائة شهيد وإن سأل به ووصله بماله ونفسه جميعا كان له بكل خطوة أربعون ألف ألف حسنة، ورفع له أربعون ألف ألف درجة وكأنما عبد الله عز وجل مائة سنة. ومن مشى في فساد ما بينهما وقطيعة بينهما غضب الله عزوجل عليه ولعنه في الدنيا والاخرة وكان عليه من الوزر كعدل قاطع الرحم.

ومن عمل في تزويج بين مؤمنين حتى يجمع بينهما زوجه الله عزوجل من ألف امرأة من الحور كل امرأة في قصر من در وياقوت، وكان له بكل خطوة خطاها في ذلك أو بكلمة تكلم بها في ذلك عمل سنة قيام وليلها وصيام نهارها ومن عمل في فرقة بين امرءة وزوجها، كان عليه غضب الله ولعنته في الدنيا والاخرة وكان حقا على الله أن يرضخه بألف صخرة من نار، ومن مشى في فساد ما بينهما ولم يفرق كان في سخط الله عزوجل ولعنه في الدنيا والاخرة وحرم الله النظر إلى وجهه.

ومن قاد ضريرا إلى مسجده أو إلى منزله أو لحاجة من حوائجه كتب الله له بكل قدم رفعها ووضعها عتق رقبة، وصلت عليه الملائكة حتى يفارقه، ومن كفى ضريرا حاجة من حوائجه فمشى فيها حتى يقضيها أعطاه الله براءتين براءة من النار وبراءة من النفاق، وقضى له سبعين ألف حاجة في عاجل الدنيا ولم يزل يخوض في رحمة الله حتى يرجع. ومن قام على مريض يوما وليلة بعثه الله مع إبراهيم الخليل عليه السلام فجاز على الصراط كالبرق اللامع، ومن سعى لمريض في حاجة فقضاها خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه، فقال رجل من الانصار: يا رسول الله صلى الله عليه وآله فان كان المريض من أهله؟ فقال

رسول الله ﷺ: من أعظم الناس أجرا من سعى في حاجة أهله، ومن ضيع أهله وقطع رحمه حرمه الله حسن الجزاء يوم يجزي المحسنين وضيعه ومن ضيعه الله في الاخرة فهو يرد مع الهالكين حتى يأتي بالمخرج، ولما يأت به.

ومن أقرض ملهوفا فأحسن طلبته استأنف العمل وأعطاه الله بكل درهم ألف قنطار من الجنة، ومن فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا نظر الله إليه برحمته فنال بها الجنة، وفرج الله عنه كربه في الدنيا والاخرة. ومن مشى في إصلاح بين امرأة وزوجها أعطاه الله أجر ألف شهيد قتلوا في سبيل الله حقا وكان له بكل خطوة يخطوها وكلمة تكلم بها في ذلك عبادة سنة قيام ليلها وصيام نهارها، ومن أقرض أخاه المسلم كان له بكل درهم أقرضه وزن جبل احد، وجبال رضوى، وجبال طور سيناء حسنات، فان رفق به في طلبته بعد أجله جاز على الصراط كالبرق الخاطف اللامع بغير حساب ولا عذاب، ومن شكا إليه أخوه المسلم فلم يقرضه حرم الله عزوجل عليه الجنة يوم يجزي المحسنين.

ومن منع طالبا حاجته وهو قادر على قضائها فعليه مثل خطيئة عشار، فقام إليه عوف بن مالك فقال: ما يبلغ خطيئة عشار يا رسول الله ﷺ؟ قال: على العشار كل يوم وليلة لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا، ومن اصطنع إلى أخيه معروفا فمن به عليه حبط عمله وخاب سعيه. ثم قال: ألا وإن الله عزوجل حرم على المنان والمختال والفتان ومدمن الخمر والحريص والجعظري والعتل الزنيم الجنة، ومن تصدق بصدقة على رجل مسكين كان له مثل أجره ولو تداولها أربعون ألف إنسان ثم وصلت إلى المسكين كان لهم أجرا كاملا وما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا وأحسنوا لو كنتم تعلمون.

ومن بنى مسجدا في الدنيا أعطاه الله بكل شبر منه أو قال: بكل ذراع منه مسيرة أربعين ألف ألف عام مدينة من ذهب وفضة ودر وياقوت وزمرد وزبرجد ولؤلؤ: في

كل مدينة أربعون ألف ألف قصر وفي كل قصر أربعون ألف ألف دار وفي كل دار أربعون ألف ألف سرير، على كل سرير زوجة من الحور العين، في كل بيت أربعون ألف ألف وصيف، وأربعون ألف ألف وصيفة، وفي كل بيت أربعون ألف ألف مائدة، وعلى كل مائدة أربعون ألف ألف قصعة، وفي كل قصعة أربعون ألف ألف لون من الطعام، ويعطي الله وليه من القوة ما يأتي على تلك الازواج، وعلى ذلك الطعام وذلك الشراب في يوم واحد.

ومن تولى أذان مسجد من مساجد الله فأذن فيه وهو يريد وجه الله، أعطاه الله ثواب أربعين ألف ألف نبي وأربعين ألف ألف صديق، وأربعين ألف ألف شهيد، وأدخل في شفاعته أربعين ألف ألف امة، وفي كل امة أربعون ألف ألف رجل، وكان له في كل جنة من الجنان أربعون ألف ألف مدينة، في كل مدينة أربعون ألف ألف قصرا، في كل قصر أربعون ألف ألف دار، في كل دار أربعون ألف ألف بيت، وفي كل بيت أربعون ألف ألف سرير، على كل سرير زوجة من الحور العين. وفي كل بيت منها مثل الدنيا أربعون ألف ألف مرة، بين يدي كل زوجة أربعون ألف ألف وصيف، وأربعون ألف ألف وصيفة، وفي كل بيت أربعون ألف ألف مائدة، على كل مائدة أربعون ألف ألف قصعة، في كل قصعة أربعون ألف ألف لون من الطعام، لو نزل به الثقلان لادخلهم في أدنى بيت من بيوتها ما شاؤا من الطعام والشراب والطيب، واللباس والثمار وألوان التحف والطرائف من الحلي والحلل كل بيت منها يكتفى بما فيه من هذه الاشياء عما في البيت الاخر فإذا أذن المؤذن فقال: أشهد أن لا إله إلا الله اكتنفه أربعون ألف ألف سلك كلهم يصلون عليه ويستغفرون له، وكان في ظل الله عزوجل حتى يفرغ، وكتب له ثوابه أربعون ألف ألف ملك، ثم صعدوا به إلى الله عزوجل.

ومن مشى إلى مسجد من مساجد الله عزوجل فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع إلى منزله عشر حسنات، ويمحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات ومن حافظ

على الجماعة أين كان، وحيث ما كان، مر على الصراط كالبرق الخاطف اللامع في أول زمرة مع السابقين، ووجهه أضوء من القمر ليلة البدر، وكان له بكل يوم وليلة يحافظ عليها ثواب شهيد، ومن حافظ على الصف المقدم فيدرك التكبيرة الاولى ولا يؤذي فيه مؤمنا أعطاه الله من الاجر مثل ما للمؤذن وأعطاه الله عزوجل في الجنة مثل ثواب المؤذن، ومن بنى على ظهر الطريق مأوى لعابر سبيل بعثه الله يوم القيامة على نجيب من در وجهه يضيئ لاهل الجمع نورا حتى يزاحم إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام في قبته فيقول أهل الجمع: هذا ملك من الملائكة لم ير مثله قط، ودخل في شفاعته الجنة أربعون ألف ألف رجل.

ومن شفع لاخيه شفاعة طلبها إليه نظر الله عزوجل إليه وكان حقا على الله أن لا يعذبه أبدا فان هو شفع لاخيه من غير أن يطلبها كان له أجر سبعين شهيدا ومن صام شهر رمضان في إنصات وسكوت وكف سمعه وبصره ولسانه وفرجه وجوارحه من الكذب والحرام والغيبة تقربا إلى الله تعالى، قربه الله حتى يمس ركبتي إبراهيم الخليل عليه السلام ومن احتفر بئرا للماء حتى استنبط ماءها فبذلها للمسلمين كان له كأجر من توضأ منها وصلى وكان له بعدد كل شعرة من شعر إنسان أو بهيمة أو سبع أو طائر عتق ألف رقبة، ودخل يوم القيامة في شفاعته - عدد النجوم - حوض القدس، قلنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله ما حوض القدس؟ قال: حوضي ثلاث مرات.

ومن احتفر لمسلم قبرا محتسبا حرمه الله تعالى على النار، وبواه بيتا في الجنة، وأورده حوضا فيه من الاباريق عدد النجوم عرضه ما بين أيلة وصنعاء، ومن غسل ميتا فأدى فيه الامانة كان له بكل شعرة منه عتق رقبة، ورفع له به مائة درجة، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله وكيف يؤدي فيه الامانة؟ قال: يستر عورته، ويستر شينه وإن لم يستر عورته ويستر شينه حبط أجره وكشفت عورته في الدنيا والاخرة ومن صلى على ميت صلى عليه جبرئيل عليه السلام وسبعون ألف ألف ملك، وغفر له ما تقدم من ذنبه، وإن

أقام عليه حتى يدفن وحث عليه من التراب انقلب من الجنازة وله بكل قدم من حيث شيعها حتى يرجع إلى منزله قيراط من الاجر والقيراط مثل جبل أحد، يكون في ميزانه من الاجر، ومن ذرفت عيناه من خشية الله كان له بكل قطرة من دموعه مثل جبل أحد يكون في ميزانه وكان له من الاجر بكل قطرة عين من الجنة على حافتيها من الميادين والقصور ما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومن عاد مريضا فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع إلى منزله سبعون ألف ألف حسنة، ومحي عنه سبعون ألف ألف سيئة، ويرفع له سبعون ألف ألف درجة، ووكل به سبعون ألف ألف ملك يعودونه في قبره ويستغفرون له إلى يوم القيامة.

ومن شيع جنازة فله بكل خطوة حتى يرجع مائة ألف ألف حنسة، ويمحى عنه مائة ألف ألف سيئة، ويرفع له مائة ألف ألف درجة، فان صلى عليها صلى على جنازته ألف ألف ملك، كلهم يستغفرون له، فان شهد دفنها وكل الله به ألف ألف ملك كلهم يستغفرون له حتى يبعث من قبره. ومن خرج حاجا أو معتمرا فله بكل خطوة حتى يرجع مائة ألف ألف حسنة، ويمحى عنه مائة ألف ألف سيئة، ويرفع له ألف ألف درجة، وكان له عند ربه بكل درهم يحملها في وجهه ذلك ألف ألف درهم حتى يرجع وكان في ضمان الله فان توفاه أدخله الجنة وإن رجع رجع مغفورا له مستجابا له دعاؤه، فاغتنموا دعوته إذا قدم قبل أن يصيب الذنوب فان الله لا يرد دعاءه فانه يشفع في مائة ألف ألف رجل يوم القيامة، ومن خلف حاجا أو معتمرا في أهله بعده كان له أجر كامل مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شئ.

ومن خرج مرابطا في سبيل الله أو مجاهدا فله بكل خطوة سبعمائة ألف حسنة ويمحى عنه سبعمائة ألف سيئة، ويرفع له سبعمائة ألف درجة، وكان في ضمان الله حتى يتوفاه بأى حتف كان كان شهيدا وإن رجع رجع مغفورا له مستجابا له دعاؤه.

ومن مشى زائرا لاخيه فله بكل خطوة حتى يرجع إلى منزله عتق مائة ألف رقبة،

ويرفع له مائة ألف درجة، ويمحى عنه مائة ألف سيئة، ويكتب له مائة ألف حسنة، فقيل لابي هريرة: أليس قال رسول الله ﷺ: من أعتق رقبة فهي فداؤه من النار؟ قال: ذلك كذلك، وقد قلنا: يا رسول الله قلت كذا وكذا، قال: بلى ولكن يرفع له درجات عند الله في كنوز عرشه.

ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقها في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما يعطي الملائكة والانبياء والمرسلين، ومن تعلم القرآن يريد به رياء وسمعة ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء أو يطلب به الدنيا بدد الله عزوجل عظامه يوم القيامة، ولم يكن في النار أشد عذابا منه، وليس نوع من أنواع العذاب إلا ويعذب به من شدة غضب الله عليه وسخطه، ومن تعلم القرآن وتواضع في العلم وعلم عباد الله وهو يريد به ما عند الله لم يكن في الجنة أحد أعظم ثوابا منه، ولا أعظم منزلة منه، ولم يكن في الجنة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيسة إلا كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل، ألا وإن العلم خير من العمل وملاك الدين الورع ألا وإن العالم من يعمل بالعلم وإن كان قليل العمل، ألا ولا تحقرن [من الذنوب] شيئا وإن صغر في أعينكم فانه لا صغيرة بصغيرة مع الاصرار، ولا كبيرة بكبيرة مع الاستغفار، ألا وإن الله عزوجل سائلكم عن أعمالكم حتى عن مس أحدكم ثوب أخيه بأصبعه فاعملوا عباد الله أن العبد يبعث يوم القيامة على ما مات وقد خلق الله عزوجل الجنة والنار، فمن اختار النار على الجنة انقلب بالخيبة ومن اختار الجنة فقد فاز وانقلب بالفوز، لقول الله عزوجل: ﴿فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز﴾ ألا وإن ربى أمرني أن اقاتل الناس حتى يقولوا: " لا إله إلا الله، فإذا قالوها اعتصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ألا وإن الله جل اسمه لم يدع شيئا مما يحبه إلا وقد بينه لعباده، ولم يدع شيئا يكرهه إلا وقد بينه لعباده، ونهاهم عنه، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة. ألا وإن الله عزوجل لا يظلم، ولا يجاوزه ظلم، وهو بالمرصاد ليجزي

الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، من أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

يا أيها الناس إنه قد كبر سني، ودق عظمي، وانهدم جسمي، ونعيت إلى نفسي، واقترب أجلي واشتد مني الشوق إلى لقاء ربي، ولا أظن إلا وأن هذا آخر العهد مني ومنكم، فما دمت حيا فقد تروني، فإذا مت فالله حليفتي على كل مؤمن ومؤمنة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فابتدر إليه رهط من الانصار قبل أن ينزل من المنبر وكلهم قالوا: يا رسول الله ونحن جعلنا الله فداك بأبي أنت وامي ونفسي لك الفداء يا رسول الله صلى الله عليه وآله من يقوم لهذه الشدائد، وكيف العيش بعد هذا اليوم؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وأنتم فداكم أبي وامي إني قد نازلت ربي عزوجل في امتي فقال لي: باب التوبة مفتوح حتى ينفخ في الصور، ثم أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إنه من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثم قال: وإن السنة لكثيرة، من تاب قبل أن يموت بشهر تاب الله عليه ثم قال: وشهر كثير، من تاب قبل موته بجمعة تاب الله عليه ثم قال: وجمعة كثيرة، من تاب قبل أن يموت بيوم تاب الله عليه ثم قال: ويوم كثير، من تاب الله قبل أن يموت بساعة تاب الله عليه ثم قال: وإن الساعة لكثيرة، من تاب وقد بلغت نفسه هذه - وأومأ بيده إلى حلقه - تاب الله عزوجل عليه، قال: ثم نزل. فكانت آخر خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله حتى لحق بالله عزوجل.[1]

مسألة التوبة وهي من أهم المسائل الإسلامية ومن أعظم الواجبات الإلهية، تطرح في كتاب مصباح الشريعة في الحديث التاسع والسبعين، وسنبادر هناك إلى شرح ذلك وبسطه على أساس الآيات والروايات وكلمات العظام والأولياء.

بمطالعة خطبة نبي الإسلام العزيز صلى الله عليه وآله أو بالاستماع إلى تلاوتها ينبغي قطعاً ازاحة

١- ثواب الأعمال: ٢٨٠، عقاب مجمع عقوبات الاعمال؛ بحار الأنوار: ٣٥٩/٧٣، باب ٦٧، حديث ٣٠.

ستارة ظلمة وخطر الغفلة ومجانبة كل الذنوب والتحلّي بالمحاسن، نعم بقول الإمام الصادق عليه السلام المعصية، علامة الضلالة وأصلها من الغفلة.

يا كريم يا مربي عبدك !يا سيد ويا مولى! يا منعم النعم! ياذا القدرة والسطوة! يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة! يا أنيس الذاكرين! يا جليس الشاكرين! يا مصور! يا مبدع! يا كريم! يا عشيق العشاق! يا حبيب المحبين! يا نور العالمين! يا ضياء المسترشدين! أنقذنا من كل ما ألمّ بنا من قذارات نتجت عن هوى النفس وخذ بأيدينا نحن العصاة وأخرجنا من مستنقع الشهوة والحيوانية، أنِر قلبنا وروحنا ونفسنا وعقلنا وكل أعضائنا وجوارحنا بنور المحاسن والطيب، بيننا وبين حبلك المتين القرآن والنبوة والإمامة، جنبنا المقابح وأنِر بنور عرفانك وجودنا، اجعل سعادة الدارين من نصيبنا لا تفصل ما بيننا وبين عروة العبودية ولو للخطة. يا قابل توبة العاصين! إننا نتوب ونعفّر جبين الذلة بمحضر قدسك بعجز وأنين، اقبلنا وطهرنا ببحر رحمتك من التلوثات، هذا الفقير الكسير القلب المستغرق في بحر المعاصي الذي قد قيّد وانقطع قلبه عن غير الحبيب.

نظمت في منعزل خلوة في مقام المناجاة مع الرفيق الأعلى، كلمات مبعثرة ماثلة أدناه هي صدى القلب حزين وفؤاده ملؤه الهم والغم:

يا من عفوك يشمل الذنوب زقاقك ملجأ من لا ملجأ له
لمثقبي القلوب شفاء الألم لـــم تحـــرم متألمـــاً
بابـــك مفتـــوح للطـــامعين يـــا عشـــق قلـــب المحتـــاجين
عداك مَن نظـر إلـى حالنـا أو اســـتمع لمقالنـــا هـــذا
غافر كـل ذنـب يـا حبيـب للتـائهين مـأوى يـا رفيـق
لم يُطرد من بابك مستعطي يـــا معينـــي حـــين البـــؤس

يـــا ســـر قلبـــي الكســـير يـــا مـــرهم قلبـــي المتعـــب
يا مونســي، أنــيس روحــي يا صاحبي ويا رفيقي فــي سـرّي
يا من هو مصباح منير لدربي مائي وطيني منك مغني ورد
أملي في العــالمين كليهمــا لا تبعدْ في عنك ولو لحظة
انظر كم أنا أسود الحال بذنوبي احتـــرق كالشـــمع بعتبتـــك
عسى أن تنظـر فــي حــالي تمُــنّ علــيّ بفضــلك كمــالاً
اذكـــر الغريـــب المســـكين بلطفـــــك داء تـــــألمي
المســـكين متوجّـــع ببابـــك متعب القلب ناحل ومعـدم[1]

عظمة الإنسان:

لا تظنوا بأن في دار الكون، ثمة كائن كالإنسان له قابلية كمال.

الإنسان وإن بدا في اوّل الولادة مثل كثير من الكائنات المعتادة، بيد أن له قابليات استعدادات، لو أستفاد منها مستعيناً بالأنبياء والأئمة عليهم السلام وخاصة لو تجاوز أسوأ موانع الطريق وهو الذنب والعصيان بقدرة التقوى والمناعة المعنوية، فإنه يبلغ إلى حيث لا تناله يد أي كائن. إن ما يؤدي إلى اضمحلال الدواعي والقابليات الإلهية في الإنسان، هو الذنب، نعم الذنب تعالوا نستفيد من كل ما أوتينا من قوة لقلع جذر الذنب والهوى والتشهّيات من أرض وجودنا، فلو تفلّتنا من قيد الذنب فسنحلّق حتى مقام ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2].

١- المؤلف.

٢- القمر ٥٤: ٥٥.

قد كُتبت حتى الآن الكتب، كما وقيلت كثير من الاقاويل في موضوع مقام عظمة الإنسان مما هو مودع لدى جميع أفراد الناس وبإمكان الجميع بلوغ مقام تفعيل تلك العظمة التي بالقوة وذلك بالاتصال بالهداية، بيد أن في هذا الخصوص ثمة مقالة مختصرة، لكنها غاية في الأهمية، وهي للعارف الكبير الشيخ نجم الدين الرازي في كتاب «**رسالة العقل والعشق**» قد نُظّمت على أساس الآيات، والروايات الأصيلة ويمكن القول: انها نتيجة وعصارة كل الأقوال والمقالات والكتب والمسائل التي طرحت في مجال عظمة الإنسان، يقول الشيخ الكبير في تلك المقالة:

اعلم حقيقة أن كل شيء يولد مرّة، عدا الآدمي والطائر وما كان ذا بيض فهو تولد مرتين، إلى أنْ تصل إلى كمالها كما أن الطائر ينتج بيضاً والبيض ينتج طائراً.

الولادة الأولى، بيض، ومحاطة بقشرها فلا تستطيع التحليق في الهواء ولا تصل إلى مقام الطائرية ما لم تتربَّ في كنف طائر تام.

كذلك وجود آدم كان بصفة بيضة لـ ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[١] إذ البيضة في الحقيقة خليفة الطائر، انظر كم هو طائر شريف فقد وهب اياه هذه العزة قشرة البيضة وخلع عليه هذه الخلعة؛ خمرّت طينة آدم بيدي أربعين صباحاً[٢].

وقال لصفارها: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾[٣].

ولم يزل الطائر في البيضة، إذ خوطب الملائكة المقربون كلُّهم، أنتم وإن كنتم طواويس العتبة القدسيّة وعلى أغصان سدرة البلابل الصدّاحة ﴿**ونحن نسّبح بحمدك**

١- البقرة ٢: ٣٠.

٢- عوالي اللآلي: ٩٨/٤، الحديث ١٣٨.

٣- الحجر ١٥: ٢٩.

ونقدّس لك﴾[١].

بيد اَن آدم، بيضة عنقاء قاف العزّة وتلك العنقاء خليفتي وسلطانكم، فاسجدوا أمام طينه إذ ﴿أسجدوا لآدم﴾[٢] الذي عبّيء فيه طائر ﴿إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾[٣] ما دام في البيضة اغتنموا السجود له، إذ حين يحلّق طائراً من البيضة، فطيرانه في عالم: «لِي مَعَ اللّهِ وَقْتٌ لا يَسَعُنى فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»[٤]، وليس في أيديكم حينئذ غير الحسرة والحيرة؛ «وَلَوْ دَنَوْتُ أَنْمُلَةً لاَحْتَرَقْتُ»[٥] ووردكم آنئذٍ.

طائري ذلك الذي كان جنحه ذهباً أيــن طــار ومــاذا حالــه

التراب على رأسي، محل من فعل الوقت لمــاذا لــم تُتبعــه ترابــاً

يا ملائكة: ما دام هذا الطائر يستتبع تراباً، أستفيدوا منه ومادام تراب البشرية في أثره فبإمكانكم معاشرته ﴿لاَ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٦]، إذ ينثر هذا التراب من جديد، يرفع مقامه ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٧] وعندئذ لا جناح وريش لكم به تطيرون.

انّ آدم إذ كان مقيّداً ببيضة البشرية، فثقل وجود طينة البشرية كان يقصد التنقل،

١- البقرة ٢: ٣٠.

٢- البقرة ٢: ٣٤.

٣- البقرة ٢: ٣٠.

٤- بحار الأنوار: ٧٩/ ٢٤٣ الباب ٥٢ الحديث ١.

٥- المناقب: ١٧٨/١ ؛ بحار الأنوار: ١٨/ ٣٨٢، الباب ٣، الحديث ٨٦.

٦- ق ٥٠: ١٨.

٧- القمر ٥٥:٥٤.

وإن بتكليف ﴿يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[١] أحلُّوه علوّ درجات الجنة، لكن لأجل خاصية البشرية، كان ينزع إلى حبّة حنطة الهوى ولخصوصية البيضة، يتلوَّن ﴿... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٢] وكان يستحقّ خطاب ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾[٣].

إذ أحاطوا بيضة وجوده بجناح لطف ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾[٤] وبادر آدم إلى التسليم وتوبة ﴿... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾[٥] خرج طائر ﴿اصْطَفَى آدَمَ﴾[٦] من بيضة وعصى آدم وحلّق في عالم ﴿وهدى﴾ بعظيم الجناحين ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٧].

فالحقيقة أن كل ما يشاهده الإنسان من ذاته، منها الحيواني والروحاني، فكلّه من نقوش بيضة العنقاء الإنسانية، وبعُده الجسماني بمثابة غشاء البيضة وبعده الروحاني وعقله بمثابة الصفار وكما أنّ الطائر ليس يستطيع لوحده الخروج من البيضة، كذلك العنقاء الإنسانية أيضاً لا تقدر دون إرشاد الأنبياء والأولياء، على الخروج وهذا سرٌّ عظيم.

إن نظر كل من لا زال لم يخرج من بيضة «قشر» وجوده، لا يدرك هذه الحقيقة وإذ ينظر بالنظر البيضي، فسوف لن يرى طيور ذكر الهوية فـ أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري.

لا يرى منهم قعيد القشر، سوى غشاء البيضة.

---

١ البقرة ٢: ٣٥.

٢- طه ٢٠: ١٢١.

٣- البقرة ٢: ٣٨.

٤- البقرة ٢: ٣٧.

٥- الأعراف ٧: ٢٣.

٦- آل عمران ٣: ٣٣.

٧- طه ٢٠: ١٢٢.

سألوا عارفاً كبيراً: ماذا تقول في شأن العارف الفلاني؟ قال: كل منْ يراه فسوف يهتدي ويتصل بالسعادة قال: كيف أنّ أبا جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يتّصل بالسعادة ولم ينج من الشقاء؟! قال ذلك العارف الواعي: لم يرَ أبو جهل رسول الله ﷺ بل كان يرى محمداً يتيم عبد الله، لو رأى رسول الله ﷺ كان دون شكٍ ينجو من الشقاء وينال السعادة[١].

﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَيُبْصِرُونَ﴾[٢].

كـلّ مـا رأيتـه منّـا فمقامنـا يا ولد إنّ مغزانـا لا يسـتوعبه الكونـان

نسيان الذات في أدائنا رأس مالنا نحن مرضعة الآخرين وهو منّا المرضعة[٣]

من الطائر ينتج بيوض كثيرة؛ لكن من مائة ألف بيضة، فإحداها تكون محظوظة بالقبول والتسليم، فينتج عنها طائر.

لا جرَمَ من كل مائة ألف آدمي، يوفَّق واحد وذلك أيضاً في حال رغب هو واستسلم للحق تعالى وجانب الذنب إلى كرامة الانتقال من مقام بيضة النظر العقلي، وبجذبة العشق إلى التسليم لتصرفات طائر الأنبياء وطائر الأولياء.

وعسل البيضة تبدوا في مقام بأدنى حركة عن الانضواء تحت كنف قبول النبوة والولاية وتبطل استعدادها البيضي ولا تبلغ مرتبة الطائرية، فضلاً عن تلك البيضة التي تكن محظوظة أساساً بتوفيق التسليم ولم تتقدم في مقام التسليم حتى الصبر والسكون في تصرف أجنحة أوامر ونواهي الشريعة والطريقة، كي تحدث الولاية في المدة المعلومة المعينة في صفار البيضة الروحاني وما لم تنتج من الجحيم الظلماني للوجود

١- تفسير روح البيان: ٣٧٨/٣.

٢- الأعراف ٧: ١٩٨.

٣- باب أفضل الكاشاني.

البيضي، لن تبلغ الجنّة النورانية للكون الطائري، اذ: ﴿وجزاهم بما صبروا جنّةً وحريرا﴾[١].

ما لم يصبر مدّة في مقام الكون، فلن ينال بتصرفات الأحكام الأزلية و ﴿... اصبروا وصابروا...﴾[٢] الوجود الطائري، الكمال أن يُلقي بمنقار الهمة غشاوة وجود خلقه ويولد من نفسه ليطير في عالم الملكوت، إذ قال العظماء:

«لَمْ يَلِجْ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرضِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَيْنِ»

الذين كسروا هذه الغشاوة واتخذوا الصبر والتسليم المحض أمام الأحكام الإلهية وحلّقوا بأجنحة نكران الذات، أصبحوا قادة عالم الحقيقة وأُذن لهم بالأخذ بأيدي وُلد آدم:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٣].

أهل العقل فئة وأهل اليقين آخرون وأهل عيان عين اليقين غيرهم، الذين خرجوا من كل هذه المراحل وتخلّصوا كلّياً من بيضة وجودهم الذاتي، ينشدون نغمة:

«إِنْسَلَخْتُ مِنْ جِلْدى كَما تَنْسَلِخُ الْحَيَّةُ مِنْ جِلْدِها فَإِذا أَنَا هُوَ»[٤].

وإذ ينال الطيران في هواء الهوية، يترنّم أن مَا فِى الوُجُودِ سِوَى اللّهِ وإذ يقرّ على مقعد الوحدة، فورده: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللّهُ، ما علم المتخلفين ببيض الوجود، بحال مجنّحي عالم الفناء وما الصيد الذي تمسك به قبضة همتهم، في فضاء العدم؟!

وإذ تخرج الرأس من بيضة الوجود وتحلّق بأجنحة نكران الذات، تشاهد طيوره

١- الإنسان ٧٦: ١٢.

٢- آل عمران ٣: ٢٠٠.

٣- السجدة ٣٢: ٢٤.

٤- تاريخ مدينة دمشق: ٥٢/ ٤١٨، بتفاوت يسير.

في ظل ذروة الغيرة، وتعلم أن:

طيوره مهما طارت من ذلك الوكر

فما أشد نكرانهم لذواتهم وهم دون أجنحة وريش

بازيّو الحضرة العظام قد حدّقوا

كي لا ينظروا إلا إلى وجه الملك وليس إلى أيّ من الكونين

ربُّوا وزقّوا على يد الملك

وحتى حين الصيد أيضاً لا يشكرون سوى الملك

عن مضيق السبعة والستة والثلاثة

إذ يحلّقون يخلّفون الكونين

ليس بهم حاجة إلى تناول حبّات الجنّة

إذ هم يرتعون في مغنى عالم الوحدة

إذ لا يأخذ بأبصارهم مغنى الجنّة

فمتى يطأطئون رؤسهم لدنيا الأشواك

لا يستطيع أحَد بعمله فتح قيد طلسم بيضة الإنسانية من دون مبادرة طيور الأنبياء والأولياء ولن يصل إلى سرٍّ كنز طائر الولاية ما لم يتم استسلامه إلى كُمَّل طيور هذا السبيل.

تعالوا اعرفوا الحق تعالى وسلّموا له، قبل أن يودّي اعتقاد فاسد إلى تفسُّد قابلية صفار القلب وينكسر غشاء البيضة الإنسانية بضربة ملك الموت، إذ الموت في الحقيقة عبارة عن أن يموت المرء ولا يأخذ معه شيء إلى ذلك العالم تعالوا نسلم إلى الله، تعالوا تتفكر في أنفسنا وذوانّا وعاقبتنا وبشأن العالم الآخر الذي لابدّ لنا منه، إقرؤوا

القرآن الكريم وليكن هدفكم الأوّل من قراءة القرآن الكريم، أن تعرفوا مولاكم وخالقكم، القرآن المجيد يحكي عن الله الرأفة والعطف والكرم وآخذاً بالأيدي والغفران والرحمة تجاه عباده، بناءً على أي أساس وتمحوراً على أي استدلال وبرهان تتركون الله إلهكم الرؤوف وليس يهدف إلا إلى انقاذكم وسلامتكم وسعادتكم وكرامتكم، الله الذي لأجل خير دنياكم وأُخراكم أرسل مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، الله الذي تطريقاً لكم إلى الجنة جعل إثني عشر إماماً، الله الذي اسدى إليكم اسمى وأفضل نعمه؛ أي القرآن، القادر الذي وهبكم لأجل أن تتحركوا نحو مقام القرب، عقلاً وضميراً وفطرة وقدرة، الله الذي لم يمتنع عن التفضّل عليكم بأي نعمة مادية ومعنوية، لم لا تجدونه؟ لم لا تعرفونه؟ لم لا تسعون إلى التعرف عليه؟ لم لا تتبعون الأنبياء والأئمة عليهم السلام وهم سفراؤه إليكم؟ لم ولم ولم؟! وجوده القدسي لطيف بأعدائه، فما بالك بمن بات اثر النجاة من الضلالة والتنوّر بنور الهداية، يعشقه تعالى.

اللطف الإلهي في قصة أُم موسى:

دقّقوا في الحقيقة أدناه التي في هيئة الشعر كي تعرفوا أكثر فأكثر على لطف ورأفة وإحسان وعشق ربّكم، عسى أن تنقدح شعلة في قلبكم وتلتهبوا بنار حبّه تعالى:

أُمُّ موسى إذ القته في النيل ... عن قول الربّ الجليل

بقيت تنظر من الساحل بحسرة ... قالت يا بني البريء

لو نسيك لطف الاله ... كيف تنجو من هذه السفينة بلا ربّان

لو لم يذكر الخالق السبحان ... سيذكر فجأة ماء ترابك

جاء الوحي، أي فكر باطل هذا ... السالك الينا الآن في المنزل

أزيحـــوا ســـتارة الشـــك كي تـري ربحـتِ أم خسـرتِ
انّـــا أخـــذنا مـــا ألقيتـــه رأيت يدَ الحـق ولـم تعرفيهـا
الذي فيك مجرد عشق وحنان الأم منهاجنـا العـدل وتربيـة العبـد
ليس فعل الحق لعباً، أُثبتي ما أخذناه منكِ نعيده من جديد
المـاء أهنـأ لـه مـن المهـد مرضـعته السـبل وموجـه أُمٌّ
الأنهار ليست تفيض من عند نفسها تفعـــل مـــا نـــأمره بهـــا
إننا نحكم على البحر بالطوفان إنـــا نـــأمر الســـيل والمـــوج
لا تنسي النسيان إلى الذات الحق حمل كفر هذا لا تلقيه على كتفك
الأفضل أن تعودي وتودعيه عندنا متى كنت تجبيّه أنت أكثر منّ
نقـش الكـون مـن طاقنـا التراب والهواء والماء حَيراننا
قطـرة إذ تـذهب مـن سـاقيه فـلا نجـاز عمـل تـذهب
إنا ما أكثر التائهين والمضيَّعن الذين أعدناهم إنّا ما أكثر ما أصلحنا حال من لا زاد لهم
ضـــيفاً كـــل معـــدم يعرفنـــا إذ لا معـــروف لـــه
انّـــا نـــدعوه وإن ردّنـــا نستر العيوب وإن أساء
ابرتنا خاطت حيثما خاط شيء من نارنا احترقت أية شمعة احترقت
سفينة تضـرر بمـوج مريـب وهبت يوماً نحو مهلك الغرق
عاصفة شديدة أفسدت سيرَها إســودّ أمــر أهــل الســفينة
لـــم تبـــق طاقـــة والمقـــود لـــم تبـــق قـــوّة ليـــد الرّبـــان

الربَّـانون كياسـتهم قليلـة ربـان سـفينة الاكمـان، واحـد
حلحلت معاقد مفاصل السفينة تداعى الموج داخلاً من كل منفذ
كل ما كان من مال وناس أذهبه الماء من ذلك الجمع الذاهب بقي حفل صغير
الطفل الصغير تجنّح كالطائر احتضن البحر كحضن أُمه
موجه أولاً حيث التفتَ منبعثاً همّت العاصفة الشديدة بالإنقضاض
قلت للبحر كفّ عن الطوفان لا تهـدم بنـاء الشـوق هـذا
لا فـرق بـين البؤسـاء هذا الغريق الصغير ليس للغرق
قلـت للصـخرة لا تؤذيـه قلـت للفطـرة، لا تصـبّي ثَـمّ
أمرت الريح في ذلك الرضيع أن تأخذه من البحر وتلقيه على الساحل
قلـت للصـخر لـنِ تحتـه قلت للجليـد كـن مـاءً دافـئ
قلت للصبح إضحك في وجهه قلـت للنـور أحـيِ قلبـه
قلـت للزهـرة إذهبـي إليـه قلـت للنـدى إغسـلِ وجهـه
قلت للشوك لا تكن طوقه قلت للحية أن لا تلسعي الصغير
قلت للتعب والبؤس إنّ صبره قليل قلت للدمع لا تضرّ به طفلٌ
قلت الذئب لا تقرب بدنه الصغير قلت للّصِ لا تسلبه طوق عنقه
قلـت للمجـدَ أسـعده قلـت للـوعي وَعِّـه
أبـدلت الظلمـات نـوراً المخاوف جعلتها طراً أمناً
رأوا أمناً وصاروا غير مأمونين تحبّبـت إلـيهم، عـادوني

فعلوا أفاعيل لكن دنيئة وقبيحة صنعوا مرايا لكن من طين
إذا ميّزوا هم الممَّر عن البئر حفروا في طريق الناس آباراً
أرادوا إنارات لكن من الدخان وشيّدوا القصور لكن على النهر
قالوا حكايات لكن دون أصل أو أساس نصبوا اللصوص حرّاساً
ملؤوا الأقداح من الفساد نسجوا حبائل العناد
وَعوا الدروس لكن دروس العار أجروا الخيول لكن بلا زمام
جعلوا الشياطين حجاباً ووكلاء وإن كان المحضر، محضر الربِّ الجليل
سجدوا السجدات لكل حجر ومدر وإن كان المعبد معبد الاله السبحان
اصبحوا الدليل على الضلالة والتيه حملوا أوزاراً من الوزر والوبال
ارتفع من تنور الأنانية تهبُّ الافاعيل المسترذلة
أنقذنا ذلك الغريق المسكين ما ان نجا من الغرق، اصطاده الهوى
ختاماً تبخّر نور التجلّي ذاك صار ذلك اليتيم البرئ، نمرود
بارزني كأنه عدل استنصر بالعقاب والنسر
ربيّته بالرأفة والحنان كبر وصار أسوء قلباً من ذئب
ما أثر ما أوقد نار برق العجب وأحرق بشرره المساكن
أراد دعوى الألوهية وأن يكسر أعلام الله
ارتأى سوءً صار دنئ ومظلم الرأي تمرّد وألقيناه إلى الأرض
حكمت على بعوضة أن قومي إنهضي ألقِ التراب في عينه الأنانية

كي لا تبقى في رأسه ريح العجب لا يُسمّي الظلام مصباحاً

نحن إذ نرعى العدوّ هكذا كيف لا ننظر إلى الأولياء

من يحسن هكذا إلى نمرود متى يظلم موسى بن عمران

حديث «پروين» هذا ليس عن الهوى حيثما نور فهو من أنوار الله[1]

١- پروين اعتصامي.

«فَاجْعَلْ قَلْبَكَ قِبْلَةً لِلِسانِكَ لا تُحَرِّكْهُ إلاّ بِإِشارَةِ الْقَلْبِ وَمُوافَقَةِ الْعَقْلِ وَرِضَى الأَيمانِ فَإِنَّ اللّهَ عالِمٌ بِسِرِّكَ وَجَهْرِكَ وَهُوَ عالِمٌ بِما فِي الصُّدورِ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ»

القلب قبلة اللسان:

في مسألة ذكر الله إجعل القلب قبلة اللسان؛ أي قبل أن تتلفظ بالذكر لسانياً، أشعر قلبك بالله وانتبه أنّ قلباً تلوّث بظلمات الخداع والغش والحسد والحقد، الرياء والعجب والنفاق والشرك والبخل وباقي الرذائل، لا يمكنه التوجّه صوب حبيب العالم، الحق تعالى، لو زاول المرء الذكر بهكذا قلب فهو في الحقيقة ذكر في الظلام؛ أي انّ اللسان يتحرك بيد أن القلب قد أدار ظهره للحق تعالى، هكذا ذكر ليس مدعاة للتحرك ولا سبباً للاستنارة، وان أردت أن يكون القلب كما في قول الإمام الصادق عليه السلام قبلة اللسان، فعليك أن تزيل عنه كل التلوّثات بتوجيهه نحو الحق تعالى، كي يمكن للقلب أن يكون قبلة اللسان ويصبح ذكرك ذكراً حقيقة، الذكر الذي يضيء نوره كل كيانك، ويغدو في الحركة صوب الحبيب، قدرة ومولّد طاقة لك.

وراقب، فليس كل ذكر ذكراً، ينبغي أن يكون الذكر بأمر الأنبياء والأئمة عليهم السلام والقرآن المجيد، فاسع أوّلاً بعقلك صوب إدراك المعراف، ثم افهم بالقلب؛ إذ استعملت العقل والقلب، تصبح مؤمناً حقيقة، حينئذٍ افتتح الذكر بإشارة من هكذا قلب نيّر وبموافقة العقل، العقل المواكب للمعارف الإلهية، وعن رغبة إيمانية.

الأذكار الباطلة من منتج الفرق الباطلة:

إنْ لم تكن على هكذا مسار، ولم يؤسَّس الذكر على هذا الأساس، لا جدوى من ذكرك فحسب، بل انّ ذكرك أداة فتنة وفساد، مثل ما للفرق الصوفية من ذكر، هذه الفرق الباطلة التي هي بمنأى عن الحقائق الدينية وفقه أهل البيت عليهم السلام؛ لكن لا ترى في حياتهم أثراً إيجابياً لممارسة الذكر، أنا شخصياً بعد الثورة عرفت بالوثائق المستحصلة بعض هذه الفرق حيث كانوا يعينون الدول الظالمة الخائنة القاجارية والبهلوية ومع السفارات الخارجية التي كانت وكراً للتجسس وكانوا أحياناً مصدر أقذر الأفعال وكم عانت منهم الأمة الشيعية المظلومة من ضربات.

رجل خبث مثل نعمت الله نصيري، رئيس جهاز الأمن في عهد محمد رضا شاه البهلوي الذي كان مسلّطاً لخسمة عشر عاماً على الأمة الإيرانية المسلمة وأموالهم ونواميسهم ولا يعلم جرائمه إلا الله وحده، الجرائم العرضية والمالية وتلوّث يديه بدماء آلاف الناس المظلومين بسبب شهوانية الأسرة البهلوية والامريكان كان منشأه أسرة صوفية دراويشية المسلك[1] وهو شخصياً كان ذا دعوى التصوّف والدروشة ومنخرطاً في سلك هذه الفرق الضالة.

أعرف صوفيين آخرين لم يشغلوا مناصب حكومية؛ بيد أنهم مصابون بشتى المنكرات وأقبح من الجميع هم مبتلون بعدم حجاب نسائهم وبناتهم، الحجاب الذي هو من ضروريات دين الله بالبيان القرآني الصريح، هؤلاء الضالّون البعيدون عن الله الذين أحد مناهجهم المفضوحة فصل الدين عن السياسة [2]، أي ترك أيدي الملوك والمستعمرين مفتوحة في كل ما يرتبط بالمسلمين وبشتى المعاصي، كان الكثير منهم

١- راجعوا كتاب نابغة العلم والعرفان ـ قسم صوفي سمنان.

٢- راجعوا مقدمة الصالحية ومكاتب صالح على شاه، ورفع الشبهات.

ملوّثين ولا زالوا وهم وأهل ذكر، يجتمعون حلقاً ويكوّنون حلق ذكر.

رئيس الطائفة النوربخشيّة في عصرنا كان وفق الوثائق من أعضاء الحكومة البهلوية مدّعياً القطبية ولا زال، وكتب مقالات بشأن الذكر، وهذه الأفكار وإن كانت حلوة بيد أنه وبقول الأئمة الطاهرين عليهم السلام هي ذكر شيطاني وتشبه الحكاية التي توردها كتب الروايات:

قال الشيطان لموسى: قل «لا إله إلا الله» قال: لا أقول؛ إذ الذكر الذي بأمرك تحته ذراع وليس مغزاه سوى المتابعة، إنما المتاهة والضلال والفتنة والفساد:

الذكر الحقيقي لذاكري الله:

ينبغي أن يقول الذكر، صاحب القلب السليم والعقل المماشي لمعارف الأنبياء وأن يقول الذكر صاحب الإيمان كي يستفيد من آثاره في دنياه وآخرته.

تنبّه فإن الله العظيم عالم بباطنك وظاهرك، يعلم انّ قلبك ولسانك في أي حال وعلى أي فعال، ما تخفيه فهو يعلمه؛ فضلاً عما بدا منك.

أخلص في الذكر وكن مخلصاً حينه، كي تغدو خالصاً، اخرج بالذكر، لمحاربة شياطين الباطن والخارج وحقاً اتخذ الذكر كسلاح فتّاك تقاوم به لدى مواجهة جميع برامج غير الله.

وفّق النظر في أحوال الأولياء والعشاق، انظر ملك الرجال، أمير المؤمنين عليه السلام يحضر ميادين الحرب نحو سبعين مرّة، لكنّ مشاركته في كل حروبه كانت هي الذكر ذاته وتفكّر في سائر أفعاله فكانت كل أفعاله عين الذكر وبقوة وقدرة هذا التذكر والذكر، أدار ظهره للدنيا وما فيها وانقطع عما سوى الله ولم يتوجّه في كل شؤونه لسوى المعبود جلّ وعلا. ينبغي ان يقال الذكر بكل الكيان لا بمجرد اللسان، ان كان المراد بالذكر خصوص اللساني، فما الفرق بين ذكر الإنسان والذكر الذي تلقّن به

البغاء كي تكررّه.

لذا يقول الإمام الصادق عليه السلام بشأن اللسان:

«ولا تحرّكه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضا الإيمان فأن الله عالم بسرّك وجهرك وهو عالم بما في الصدور فضلاً عن غيره».

إقرؤا القرآن للتفهّم، إقرؤوا الروايات الإسلامية الأصيلة للوعي، تمسّكوا بالحكيم الإلهي كي يستنير قلبكم بنور المعرفة، القلب العارف متحلّي بالمحاسن منّزه عن المساوئ، القلب العارف لا يفكّر بغير الله والدنيا والعقبى يريدهما لله، القلب العارف مرتبط بنبوة الأنبياء و ولاية الأئمة عليهم السلام، القلب العارف، نهارُ صاحبه وليلُه مستنير بنور العبادة، القلب العارف، مستغرق في رضا الله، قلب العارف سائر في حركة نحو الله بجناحي الخوف والرجاء، القلب العارف لا يدبر مطلقاً من أوامر الحبيب تعالى، ولا يتلوّث بالنواهي، القلب العارف، يغتنم لحظات العمر وثوانيه ولا يسمح أن تستهلك هذه اللحظات الثمينة إلا في سبيل الله، القلب العارف مرآة تجلية الحقائق والواقع ووفق الروايات، فهي حرم الله وعرش الهي.

القلب العارف، تنبع فيه عيون الحكمة، الجيّاشة.

«مَنْ أَخْلَصَ لِلَهِ أَرْبَعينَ صَباحا ظَهَرَتْ يَنابيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلى لِسانِهِ»[1]

القلب العارف، ثابت في القضايا الإلهية وغوّاص في بحار المعاني والحقائق، القلب العارف، مصباح الهي منير في فضاء كيان الإنسان ومرشد العبد إلى ما وراء العالم ومستعد لضيافة القدس الإلهي.

القلب العارف، ينقذ صاحبه من ذلّة التراب، بالغاً به ذروة عالم الطهر.

١- جامع الأخبار: ٩٤، الفصل ٥٢ في اللسان.

صاحب القلب العارف، وفق الروايات، أجلّ من الملائكة وبل أفضل وأرفع من ملائكة الله المقربين.

إجعل هكذا قلباً وبأمر الإمام الصادق عليه السلام قبلة اللسان كي يتجلى في الذكر نور المعرفة وتفهم ما تقول ولمن تخاطب، عندئذٍ حيث يتجلّى نور الذكر في كل كيانك وتنال في ذلك النور وتدرك معاني الذكر وفي الحقيقة تتعرّف على حقيقة صفات الحبيب تعالى ولأجل التحلّي بتلك الصفات، تتحرّك حدّ بذل الروح!!

حينئذٍ تنال الثواب المذكور في الروايات للذكر، ويصبح كيانك عين معاني الذكر في حدٍّ ما تستطيع وتتمكّن.

الجاهل بالمعارف، أعمى القلب والذي لا باطن له، عديم المعرفة الذي لا نتاج له، القائل بما لا طائل تحته، غير المتأدّب مع الرفيق الأعلى، حتى لو أثيب من تلفّظه بالذكر، فليس ثوابه في حدّ استحقاق أن يُذكر.

الذكر في الإسلام، القرآن وتفهّمه، الروايات وبلوغ حقائقها، كسب العلم والتحلي به، زيارة المؤمنين وتقديم أي خدمة لهم، تربية الأولاد والأشخاص بالآداب الإلهية وكل الأمور التي هي إلهية، فإن تعلّمها والعمل بها ذكر، بالله عليكم لا تظنوا انّ الذكر عبارة عن التلفّظ باللسان، كي تشغلوا أنفسكم وعمركم بتحريك اللسان، دون أن تتحرك مع ذلك الذكر روحكم وقلبكم وعقلكم ونفسكم وكيانكم، ان تصوّرتم انّ الإسلام والحقائق هو ذلك، فقد ارتكبتم ذنباً عظيماً ولم تؤدّ الحق العظيم القيّم للإسلام.

يقول «حافظ» في إحدى غزلياته في مقام الشكوى من اللاإطلاع واللاحكمة وعدم تفهّم حقيقة الدين:

القلب وهو المرآة الملوكية علاه غبار أطلب من الله مصاحبة نيِّر الـرأي

إنّ كانت الإسلامية ما لـدى حـافظ فالويل لـو كـان بعـد اليـوم غـد

أبدى سيد الشهداء عليه السلام في إحدى خطبه خلال مسيره بين مكة وكربلاء، شكواه الشديدة من أهل عصره بأنّ أهل الدين الحقيقيين قلّة قليلة والأكثرية التي تُبدي تديُّنا.

«وَالدّينُ لَعِقٌ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ»[1]

كل هذا الثواب الذي ذكروه لمجالس الذكر، كل هذا الثواب والأجر الذي أوردوه للذاكر، كل هذه الآيات والروايات التي ترغّب الناس في المعرفة فكل ذلك لماذا؟ لأجل أن يقول المرء الذكر معرفةً واستشعاراً وتكون نيّته وقصده حقاً التحلّي بمفهوم و حقيقة الذكر، هنا ينبغي ان نشير إلى ثواب ا لذكر وحقيقة الذكر كي يتضح لنا جانب من هذا البحر بلا ساحل.

عظمة الذكر ومجالس الذكر روائياً:

في الصفحات السابقة تمّ بحدّ اللزوم التعرض لمسألة الذكر وأنه لماذا وكيف ولمن وأي نتاج وحصيلة ينبغي استحصالها من الذكر وانّ ما ورد في الروايات من الثواب فهي لأي ذاكر؟

قراءة أحاديث هذا الفصل بدون مطالعة ما مرَّ من مباحث، ليست تعود بالنفع الذي ينبغي. هذه الروايات نقلها أجلّة مثل الشيخ الصدوق والكليني والمولى محسن فيض الكاشاني، في كتبهم القيمّة وليس ثمة مجال للترديد في هذه المسائل للخبير المنصف، أكثر هذه الروايات مقرونة في تلك الكتب بالوثائق والأسناد، ونحن لأجل اجتناب التطويل نكتفي بأصل الرواية، إن شئتم ملاحظة اسناد الروايات فراجعوا الكتب المذكورة أعلاه.

١- تحف العقول: ٢٤٥؛ بحار الأنوار: ٧٥/ ١١٦، الباب ٢٠، الحديث ٢.

قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «ذَاكِرُ اللّهِ فى الْغافِلينَ كَالشَّجَرَةِ الْخَضْراءِ فى وَسَطِ الْهَشيمِ»[١].

قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «ذَاكِرُ اللّهِ فى الْغافِلينَ كَالْمُقاتِلِ فِى الْفارّينَ»[٢].

قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «ذَاكِرُ اللّهِ فى الْغافِلينَ كَالْحَىِّ بَيْنَ الْأَمْواتِ»[٣].

قَالَ ﷺ يَقُولُ اللّهُ: «أَنَا مَعَ عَبْدى مَا ذَكَرَنى وَتَحَرَّكَ بى شَفَتَاهُ»[٤].

يقول نبي الإسلام ﷺ ما معناه:

ليس عمل من اعمال الانسان افضل من الذكر وانجى له، فقالوا له اصحابه: يا رسول الله! اليس الجهاد في سبيل الله اعظم منه؟ فقال: بلى، إلا أن تقطع بسيفك شر الاعداء، إلا ان تقلع بسيفك جذور الاعداء، إلا أن تطفيء العدو...»[٥].

قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فى رِياضِ الْجَنَّةِ فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ اللّهِ»[٦].

سُئِلَ ﷺ: «أَىُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللّهِ»[٧].

١- المحجة البيضاء: ٢٦٦/٢، كتاب الأذكار والدعوات، الباب ١.

٢- عدّة الداعي: ٢٥٧، بحار الأنوار: ٩٠/ ١٦٢، الباب ١، الحديث ٤٢.

٣- المحجة البيضاء: ٢٦٧/٢، كتاب الأذكار والدعوات، الباب ١.

٤- المحجة البيضاء: ٢٦٧/٢، كتاب الاذكار والدعوات، الباب!.

٥- ميزان الحكمة: ١٨٣٨/٤، الحديث ٦٣٤٩ بتفاوت يسير.

٦- المحجة البيضاء: ٢٦٧/٢، كتاب الأذكار والدعوات، الباب ١.

٧- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٥٤/١٠، ذكر ا لخوف، المحجة البيضاء: ٢٦٧/٢، كتاب الاذكار والدعوات الباب ١.

يقول الرسول ﷺ:

يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[١].

عَنْ أَبِي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللّهَ تَعَالى يَقُولُ»: «مَنْ شَغَلَ بِذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي مَنْ سَأَلَنِي»[٢].

وَقَالَ عليه السلام: «قَالَ اللّهُ تَعَالى: مَنْ ذَكَرَنِي سِرّاً ذَكَرْتُهُ عَلانِيَةً»[٣].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

قال الله لعيسى: يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي واذكرني في ملإٍ أذكرك في ملإٍ من الآدميين، يا عيسى ألن لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات واعلم ان سروري أن تبصبص إليّ وكن إليّ وكن في ذلك حيّاً ولا تكن ميتاً[٤].

وَعَنْهُ عليه السلام: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللّهِ أَظَلَّهُ اللّهُ فِي جَنَّتِهِ»[٥].

وَعَنْهُ عليه السلام: قَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللّهِ أَحَبَّهُ اللّهُ وَمَنْ

١- ميزان الحكمة: ١٨٤٦/٤، الحديث ٦٣٨٩، بتفاوت يسير.

٢- الكافي: ٥٠١/٢، باب الاشتغال بذكر الله، الحديث ١ ؛ بحار الأنوار: ١٥٧/٩، الباب ١، الحديث ٣.

٣- الكافي: ٥٠١/٢، باب ذكر الله في السرّ، الحديث١، بحار الأنوار: ٣٤٢/٩٠، الباب ٢٠، الحديث ١٢.

٤- الكافي ٢/ ٥٠٢، باب ذكر الله عزّ وجل في السر الحديث ٣.

٥- الكافي ١٢/٢ باب التواضع، الحديث٤؛ المحجة البيضاء: ٢٦٨/٢؛ كتاب الأذكار والدعوات، الباب ١.

ذَكَرَ اللّهَ كَثيرا كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفاقِ»[١].

وَعَنْهُ عليه السلام: «شِيعَتُنَا الَّذينَ إذا خَلَوْا ذَكَرُوا اللّهَ كَثيرا»[٢].

يـــا حبّـــذا بســـكر متابعـــة العشـــيق

تخلية القلب من محاسن ومساوي الفلك الأخضر

حيثمـــا نـــور فقـــد الأنانيـــة كالفراشـــة

حيثمـــا نـــار التعامـــل كالســـمندر

وجدان ماء الحياة دون تعب في ظلمات القلب

الشـــرب منـــه وتـــذكّر الاســـكندر

من أجل النفع في بحر العلم الذي بلا ساحل

بغـــوص العقـــل كالغوّاصـــين

تشـــنيف آذان الـــروح بقـــرط الحكمـــة

إنـــارة بصـــر القلـــب مصـــباح الـــروح

التفوّا إلى رواية الإمام الصادق عليه السلام وهي ثمينة جداً وقيّمة:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

ما من شئ إلا وله حدينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه فرض الله عزوجل الفرائض فمن أداهن فهو حد هن ؛ و شهر رمضان فمن صامه فهو حده والحج

١- الكافي: ٤٩٩/٢، باب ذكر الله كثيراً، الحديث ٢؛ المحجة البيضاء ٢٦٨/٢١: كتاب الأذكار الدعوات، الباب ١.

٢- الكافي: ٤٩٩/٢، باب ذكر الله كثيراً، الحديث، عدة الداعي: ٢٢٩، الباب ٥.

فمن حج فهو حده إلا الذكرفإن الله عزوجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداينتهي إليه ثم تلاهذه الآية:

﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[1].

فقال: لم يجعل الله عزوجل له حد اينتهي إليه، قال: وكان أبي عليه السلام كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم [و] ما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرى لسانه لازقا بحنكه يقول: لاإله إلا الله. وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأمنا ومن كان لايقرأ منا أمره بالذكر. والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عزوجل فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضئ لاهل السماء كما يضئ الكوكب الدري لاهل الارض والبيت الذي لايقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه تقل بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا اخبركم بخير أعمالكم لكم أرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من الدينار والدرهم وخير لكم من أن تلقوا عدو كم فتقتلوهم ويقتلو كم؟ فقالوا: بلى، فقال:

ذكر الله عزوجل كثيرا، ثم قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال: أكثر هم لله ذكرا. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من اعطي لسانا ذاكرا فقد اعطي خير الدنيا والآخرة. وقال: في قوله تعالى: ولا تمنن تستكثر قال: لاتستكثر ما عملت من خيرلله[2].

١- الاحزاب ٣٣: ٤١-٤٢.

٢- الكافي: ٤٩٨/٢ ـ ٤٩٩، باب ذكر الله عز وجل كثيراً، الحديث ١؛ المحجة البيضاء: ٢٦٨/٢، كتاب الاذكار والدعوات الباب ١.

وَعَنْهُ عليه السلام قَالَ: «أَوْحَى اللّهُ تَعَالى إلى مُوسى عليه السلام: لا تَفْرَحْ بِكَثْـرَةِ الْمَالِ، وَلا تَدَعْ ذِكْرى عَلى كُلِّ حَـالٍ، فَـإِنَّ كَثْـرَةَ الْمَـالِ تُنْسِـى الذُّنُوبَ وَأَنَّ تَرْكَ ذِكْرى يُقْسِى الْقُلُوبَ»[1].

قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسا يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلاّ حُفَّتْ بِهِمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[2].

قَالَ صلى الله عليه وآله: «مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُرِيدُونَ بِذلِكَ إلاّ وَجْهَهُ إلاّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ قُومُوا مَغْفُورا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ»[3].

قَالَ صلى الله عليه وآله: «مَا قَعَدَ قَوْمٌ مَقْعَدا لَمْ يَذْكُرُوا اللّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ إلاّ كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةُ يَوْمِ الْقِيامَةِ»[4].

قَالَ دَاوُدُ عليه السلام: «إلهى إذَا رَأَيْتَنى أُجَـاوِزُ مَجَـالِسَ الـذَّاكِرِينَ إلـى مَجَالِسِ الْغَافِلِينَ فَاكْسُرْ رِجْلى دُونَهُمْ فَإِنَّها نِعْمَةٌ تَنْعُمُ بِها عَلَىَّ»[5].

قَالَ صلى الله عليه وآله: «اَلْمَجْلِسُ الصَّالِحِ يُكَفِّرُ عَنِ الْمُؤْمِنِ أَلْفَىْ أَلْفِ مَجْلِـسٍ

١- الكافي: ٤٩٧/٢، باب ما يجب من ذكر الله عزّ وجلّ، الحديث ٧؛ عدة الداعين ٢٥٤..

٢- المحجة البيضاء: ٢٦٩/٢، كتاب الاذكار والدعوات بالباب ١ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١: ١٥٤، ذكر الخوف.

٣- المحجة البيضاء ٢٧٠/٢، كتاب الأذكار والدعوات، الباب ١.

٤- المصدر.

٥- تاريخ مدينة دمشق: ١٠٥/١٧، بتفاوت يسير.

مِنْ مَجَالِسِ السُّوءِ»[١].

قَالَ أَبُو جَعْفَرعليه السلام: «إِنَّ ذِكْرَنَا مِنْ ذِكْرِ اللّهِ وَذِكْرِ عَدُوِّنَا مِنْ ذِكْرِ الشَّيْطَانِ»[٢].

قال الإمام الباقرعليه السلام:

مكتوب في التوراة التي لم تغيَّر ان موسىعليه السلام سأل ربّه قال: يا ربِّ أقريب أنت مني فأناجيك أم بعيد فأناديك. فأوحى الله عزّ وجل إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني، فقال موسى: فمن في سترك يوم لا ستر إلا سترك؟ فقال: الذين يذكروننني على فأذكرهم ويتحابون فيَّ فأحبّهم فأولئك الذين إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم فدفعت عنهم بهم[٣].

ياحبّذا شحن الخاطر بنور العلم

إخراج الظلمات عن هذا الإقليم

كموسى التنوّر بنور التجلّي

تكليم الله في الجبل والسهل

تطهير السذات من تلوّثات الأرض

منزل للسكنى في الاقطار كالشمس

١- المحجة البيضاء: ٢/٢٧٠، كتاب الاذكار والدعوات، الباب ١.

٢- الكافي: ٢/٤٩٦، باب ما يجب من ذكر ا لله عز وجل الحديث ، بحار الأنوار: ٧٢/٤٦٨، الباب ٩٥، ا لحديث ٢٠.

٣- المصدر، الحديث ٤؛ بحار الأنوار: ١٣/ ٣٤٢، الباب ١١، الحديث ٢٠.

جعل العقل تـاجراً فـي سـوق الوجـود

ربـح الـنفس فـي هـذا السـوق غَـبن

تبديل أيٍّ نحاس إلى ذهب بدون الكيمياء

بـدون الجـوهر والـذهب امـتلاك

كنز قارون الصيرورة في معدن المعنى جوهراً ينير العالم

كـل حـين اشـراق آخـر[1]

عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إنّ للّه عزّ و جلّ ملائكة سيّاحين في الأرض فضلا عن كتّاب النّاس فإذا وجدوا قوما يذكرون اللّه سبحانه تنادوا هلمّوا إلى بغيتكم، فيجيئون فيحفّون بهم إلى السّماء الدّنيا فيقول اللّه تبارك و تعالى:

علي أيّ شيء تركتم عبادي يصنعونه؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك و يمجّدونك و يسبّحونك، فيقول: و هل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: كيف و لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك لكانوا أشدّ تسبيحا و تحميدا و تمجيدا، فيقول لهم: من أيّ شيء يتعوّذون؟ فيقولون: من النّار، فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشدّ هربا منها و أشدّ نفورا، فيقول: و أيّ شيء يطلبون؟ فيقولون: الجنّة، فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشدّ حرصا عليها فيقول: فإنّي اشهدكم أنّي قد غفرت لهم، فيقولون: كان فيهم فلان لم يردهم إنّما جاء لحاجة، فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[2].

١- پروين اعتصامي.

٢- المحجة البيضاء: ٢٧٠/٢، كتاب الأذكار والدعوات، باب ١.

ثواب لاإله الله المحير:

عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ: «يَا مُوسى لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَعَامِرِيهِنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فى كَفَّةٍ وَلا إلهَ إلاّ اللّهُ فى كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لا إلهَ إلاّ اللّه»[1].

نعم، فما قدر مجموع السموات والأرض قبال مسألة التوحيد أي التجلّي في القلب؟

فهل يمكن مقارنة العالم بأجمعه بتجلي التوحيد في القلب، ليس للسماوات والأرضين وسكانها من مادّة سوى التراب أو النار أو النور، أين التراب والنار والنور من حقيقة التوحيد؟

من يقول حقيقة «**لا إله إلا الله**» واعتقد بهذا الشعار الرفيع لجميع الأنبياء والأئمة عليهم السلام وعشاق الحقيقة، فله من القدر ما ليس لمجموع العالم.

ليس ثمة في كل العالم أعزّ وأرفع وأثمن واعلا مقاماً من الموحّدين، أهل التوحيد، ذلك التوحيد الخالص من التلوّث بالشرك حتى بقدر أصغر ذرة، هؤلاء أثمن كائنات الله.

الذي يقول «**لا إله إلا الله**» بالحقيقة، يتمتم لحمه ودمه وجلده وعروقه وعصبه «لا إله إلا الله» كما قالت سيدة النساء الزهراء عليها السلام والإمام السجاد عليه السلام.

إنه إنسان أزاح عن نفسه وبكل قوة، كل معبود باطل باطنياً وخارجياً وليس له من إله وحبيب وعشيق غيره تعالى وكل ما يبغيه في الحياة فله تعالى وحده فقط وفقط.

١- وسائل الشيعة: ٢٠٩/٧، باب ٤٤، حديث ٩١٣٢؛ بحار الأنوار: ١٩٦/٩٠، باب ٥، حديث ١٨؛ ثواب الاعمال: ١٥؛ التوحيد: ٣٠، باب ١، حديث ٣٤.

هذا التوحيد وهذه المعرفة كما والازالة هذه للشرك والنفاق هي ما تتوق قيمته دون شك على السماوات وسكانها والأرض.

نقل في كتب أهل السنة والشيعة عن رسول ا لله ﷺ أنه قال: لو وضع إيمان علي عليه السلام في كفّة وأعمال الثقلين في كفّة أُخرى، لرجح إيمان علي عليه السلام، لماذا؟ لأن إيمان علي عليه السلام إيمان خالص ومعرفته، معرفة كاملة وكما وإنّ أعماله وأخلاقه وسلوكه طوال عمره، صدى ذلك الإيمان وتلك المعرفة، لذا قال صلى الله عليه وآله في شأن عمل واحد لعلي عليه السلام أي في نزاله في معركة الأحزاب:

«ضَرْبَةُ عَلِيٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ»[1].

ذلك أن منبع ذلك العمل، هو التوحيد والمرعفة والإخلاص.

معنى «لا إله إلا الله»:

«لا إله إلا الله» أي ختام حكومة الهوى على النفس في الكيان، أي تطهير صفحة النفس من كل الرذائل الأخلاقية؛ أي التحلّي بالمحاسن الأخلاقية أي الخلوص والطهر؛ أي البصيرة والباصرة، اي كالأنبياء مكافحة جميع الطواغيت حتى قلعهم من الجذور، أي إخراج جذر كل الذنوب من أرض وجوده وغرس نبتة العمل الصالح، بدلاً منها.

«لا إله إلا الله» أي مجانبة كل المسالك والالتحاق بمنهاج الأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ أي فهم القرآن والعمل به.

«لا إله إلا الله» أي تقضية الأيام بالطهر وامضاء الليل بالطهر والطهارة والعبادة؛ أي

١- الإقبال: ٤٦٧.

نبذ اللاإكتراث بما يواجهه المسلمون من حوادث، أي حلّ مشاكل عباد الله، إرضاءً له تعالى.

كل هذا الثواب، ليس لخصوص التلفظ باللسان وليست تكمن أرجحيته على السماوات السبع والأرض في مجرّد النطق به، بل انّ هذه الأرجحية في تجلّي حقيقة «لا إله إلا الله» في كيان وعمل وأخلاق الإنسان.

ارتباطها بحقيقة «لا إله إلا الله» في حدّ قدرتنا وتمكننا وتكليفنا ينبغي أن يتماثل مع علاقة الأنبياء والأئمة عليهم السلام والعشاق بذلك.

إقرأوا الآيات والروايات بشأن أهل التوحيد وأهل الإيمان ودققوا النظر فيها كي تقفوا على قدر أولئك والارتباط الحق بالتوحيد.

عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ:« اَلْمُوْجِبَتَانِ: مَنْ مَاتَ يَشْهَدْ أَنْ لا اِلهَ إلاّ اللّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكْ بِاللّهِ دَخَلَ النَّارَ»[1].

من المصاديق البارزة للشرك، قبول حكومة الهوى والرغبات والميول والغرائز وقبول حكومة وتدخل الطواغيت في الحياة. فأتباع بني أُمية وبني العباس، أتباع فرعون ونمرود وأتباع أمريكا وروسيا وفي أي لباس كانوا ويكونون، فهم مشركون وفق صريح الآيات الإلهية، وبقول القرآن الكريم فإنه بدر منهم الظلم العظيم ولا محل لهم في القيامة إلا الجحيم.

الشرك هو محاربة الله والحق، الشرك هو محاربة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، الشرك هو محاربة الحسنات وموافقة السيئات، ليس ثمة ذنب أكبر وأقذر من ذنب الشرك، الشرك جذر الكفر والنفاق وسبب تلوّث الإنسان بجميع المعاصي والذنوب.

الإمام الصادق عليه السلام وفي روايات كثيرة، أعلن بطلان الأعمال الحسنة وعبادات بني

١- جامع ا لأخبار: ١/ ٥٠، الفصل ٢٤، بحار الأنوار: ٤/٣، الباب ١، الحديث ١٠.

أمية وبني العباس وأتباعهم بحكم صريح القرآن في كثير من آياته، قائلاً لأصحابه، بأن لا ينخدعوا بهذه البكاءات وتطويل الركوع والسجود والصوم والحج والزكاة، وإذ هؤلاء لأجل قبولهم حكومة بني أمية وبني العباس، هم مشركون ولا يقبل منهم يوم القيامة عمل[١]

روي جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله، فانها تهدم الذنوب، فقالوا: يا رسول الله، فمن قال في صحته؟ فقال: ذلك أهدم وأهدم، إن لا إله إلآ الله أنس للمؤمن في حياته وعند موته وحين يبعث، وقال رسول الل صلى الله عليه وآله: قال جبرئيل: يا محمد، لو تراهم حين يبعثون، هذا مبيض وجهه ينادي: لا إله إلآ الله والله أكبر، وهذا مسود وجهه ينادي: يا ويلاه، يا ثبوراه[٢]

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «ثَمَنُ الْجَنَّةِ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ»[٣].

وفق الآيات والروايات فالجنة تعطى للعباد، لقاء التقوى والعمل الصالح، والاتصال بحقيقة الكلمة الطيبة، يورث التقوى والعمل الصالح، من قد اشتمل نورالتوحيد على كل وجوده، لا يمكنه العيش بتلوّث ولا يسعه عدم تطبيق الواجبات الإلهية.

ما لم يحلّ المرء في مقام اليقين وما لم يستنرقلبه بالسر في الآيات الآفاقية والأنفسية والسير في دقائق الشرع الطهر وبنور المعرفة، وما لم يجتنب جميع المحرّمات بعزم الإرادة وبشدّة وما لم يقلّ بالواجبات وامتثال أعمال الصلاح، فليس تلفظه لـ«لا إله إلا الله» ثمن الجنة.

١- ترون الروايات الكثيرة بهذا الشأن في الكافي باب الحجة وفي بحار الأنوار.

٢- وسائل الشيعة: ٤٥٦/٢ باب ٣٦، الحديث ٢٦٣٨.

٣- ثواب الأعمال: ٢، ثواب من قال لا إله إلاالله، بحار الأنوار: ٢٠١/٩٠، الباب ٥، الحديث ٣٣.

قيمة التوحيد بالمعرفة:

جاء في روايات كثيرة أنّه سُئل الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الطاهرون عليهم السلام كراراً: ما أفضل الأعمال؟ فأجابوا: المعرفة[1]

إن هذه «**المعرفة**» التي قيلت في إجابة السائلين، ذات معنى جامع ومطلق، هي في الحقيقة معرفة الذات، معرفة الله، معرفة العالم، معرفة الإنسان، معرفة الزمان والعصر، كل ذلك مندرج في مفهوم المعرفة. المعرفة سبب العشق والعشق سبب الحركة والحركة تتم وفق العشق والمعرفة مفتاح سعاد الدارين وثمن الجنة الإلهية.

إن كان مجرّد النطق البسيط لـ «**لا إله إلا الله**» ثمن الجنّة، فأكثر الناس من أهل الجنّة، بينما الأكثرية بمعزل عن التقوى والعمل ووجودهم عار على العالم والأدمي وحياتهم وعيشهم لا مردود له سوى مزاحمة الآخرين وأكل حقهم!!

في اعتقاد أيقاظ الطريق، خاصة الأنبياء والأئمة والأولياء والشامخين والعرفاء الكاملين، فإن شرف وفضيلة وكرامة الإنسان على سائر كائنات العالم لأجل استعداد المعرفة، خاصة المعرفة والعرفان بالله.

موضوع المعرفة أو العرفان، كان ولا يزال أحد أهم المسائل مدى حياة الإنسان في الكرة الأرضية، بل في رأس جميع المسائل والهدف والغرض الأصلي من خلقة الإنسان.

ارتباط المعرفة بالنواحي الأربعة للإنسان:

انّ هذه الحقيقة، أي معرفة الله ذات صلة بنواحي وجود الإنسان الاساسية الأربع التي عليها إنسانية الإنسان وباقي النواحي، تتبعها وتكون أشعة منها، النواحي الأربعة

١- إرشاد القلوب: ١٤٥/١، الباب ٤٦.

تلك عبارة عن: القلب، الروح، النفس والعقل.

١ ـ القلب:

لكلمة القلب استعمالات: أحدهما العضو الصنوبري الشكل الهام الواقع في يسار القفص الصدري، بخصوصيات حياته التي يتكفّل بيانها علم التشريح ووظائف الأعضاء وباقي المباحث الطبية والعارف لا شأن له بهذا القلب الذي تمتلكه الحيوانات أيضاً، بل العارف يلحظ ثاني معاني القلب والمقصود منه، لطيفة روحانية عبارة عن حقيقة الإنسان، وهذه الحقيقة هي العالم المدرك والعارف والمخاطب والمعاقب.

لهذا القلب علاقة وصلة هي من الأسرار بالقلب الجسماني، لا يتأتى بوضوح بيان كيفية تلك العلاقة والصلة، القدر المسلّم انّ سنخ هذه العلاقة والارتباط ليس مادياً ولا علاقة لذلك بلحم ودم القلب، بل من قبيل علاقة الوصف بالموصوف مما لا يقف على خصوصياته إلا أهل الكشف.

القلب بهذا المعنى هو تقريباً ما أسماه الحكماء منذ القدم «النفس الناطقة» ومهمته وعمله الإدراك أكثر منه الإحساس، بينما المخ لا يمكنه نيل معرفة الله على الحقيقة، بينما القلب قادر على إدراك باطن وملكوت وحقيقة وذات الأشياء.

من مسائل العرفاء الهامة بل أهمها موضوع العرفان هذا، وهو في اعتقاد العرفاء الوصول، مقدورية الوصول الكامل التام إلى المعرفة، بمعنى إن يستنير القلب بنور الإيمان والمعرفة، يتنزّه الإنسان عن الرذائل ويتجلى بالمحاسن وخاصة التقوى، عندئذٍ سيغدو مرآة تجلية كل المعارف الإلهية ولذا قال في الحديث القدسي:

«لا يَسَعُنى أَرْضى وَلا سَمائى ولكن يَسَعُنى قَلْبُ عَبْدِىَ الْمُؤْمِنِ»[1].

١- عوالي اللآلي: ٧/٤، الحديث ٧.

بيدَ أنّ هذا الصفاء والكمال يندرُ أن يحصل، إذا القلب غالباً ما يكون محجوباً بسبب الغفلة ومظلماً أثر المعصية، أي تلوّثه الصور والنقوش المادية والشهوانية.

القلب في صراع بين العقل والهوى، بمعنى انّ قلب الإنسان معترك انفصال جنود الله والشيطان وتسعى كل فئة من سبيل إلى تسخيره، من منفذ معرفة الله ومن منفذ آخر وساوس الحس وقد كثر ورود هذا المعنى في الروايات وقدّم شرح وافي، بشأن هاتين المرحلتين، لأجل ذلك قال الملائكة:

الآدمي معجون طريف مجبول من الملك والحيوان

لو رغب في هذه اذن صار بعده ولو رغب في ذلك صار ذلك خيراً منه[1]

من ناحية يمكنه أن يكون أضل من الحيوان؛ إذ الحيوان يفتقد إلى المعرفة وليس بوسعه قهراً أن يترقّى وينال الكمال ومن ناحية أخرى يمكنه أن يتجاوز الملك، إذ الملك يفتقد إلى الشهوة ولا يسعه أنْ يتنزّل.

«مولوي» له تفسير لطيف بشأن الحديث المنقول عن الرسول ﷺ وفي بعض الكتب عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أحدهما قال:

إن الله ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم[2]

جاء في الحديث انّ البارئ المجيد قد خلق العالم بثلاث خلقات

فريق كلّه عقل وعلم وجود ذلك الملك ولا يعرف غيرالسجود

١- سنائي.

٢- وسائل الشيعة: ٢٠٩/١٥ ـ ٢١٠،باب وجوب غلبة العقل على الشهوة وتحريم الكس، الحديث ٢.

ليس في عنصره حرص وهوى نور مطلق حيٌّ من عشق الله
فريق آخر عرايا من العلم كالحيوان في استسمان بالأعلاف
انه لا يرى غير المربط والعلف غافل عن الشقاء وعن الشرف
الآدمي والبشر من الثالث نصفه من الملك ونصفه من حيوان في الأصل حمار
نصفه الحماري ينزع نحو السفل النصف الآخر ينزع إلى العُلوّ
حتى يغلب أحدهما في النزال صاحبه من هذين الاثنين أيهما يجوز قصب السبق
إن غلب العقل فقد ارتفع هذا البشر عن الملائك في الاختبار
إن غلبت الشهوة فهو أقلّ من البهائم هذا الإنسان ذلك أنه أبتر

٢ ـ الروح:

الروح أيضاً تستعمل بمعنيين؛ أحدهما بمعنى بخار لطيف مصدره تجويف القلب الجسماني ونتج عن حرارة القلب وبثّته العروق في جميع البدن وهو سبب الحياة الجسمانية.

والروح بهذا المعنى، الروح الحيوانية ذاتها والبحث فيها يخصّ علم الطب.

يقول «الجرجاني» وهو من كبار علماء الإسلام، معرّفاً الروح:

«اَلرُّوحُ الْحَيَوانى جِسْمٌ لَطيفٌ مَنْبَعُهُ تَجْويفُ الْقَلْبِ الْجِسْمانِىِّ وَيَنْتَشِرُ بِوَاسِطَةِ الْعُرُوقِ الضَّوارِبِ إلى سائِرِ أَجْزاءِ الْبَدَنِ».

المعنى الآخر للروح وهو مراد الأنبياء والأئمة عليهم السلام والعرفاء المتّبعين لهم،

عبارة عن: لطيفة الإنسان المدركة وهي مصداق ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِي﴾[1] ونزلت من عالم الأمر ووصف أمرها وشرح تفاصيلها ابن سينا في قصيدته المعروفة تلك. الروح بهذا المعنى، من أسرار القلب والبعض ما يستوحيه من معنى من كلمة القلب يستوحيه ذاته من كلمة الروح، يقول الجرجاني في تعريف هذه الروح:

«الرُّوحُ الأِنْسَانىّ هُوَ اللَّطِيفَةُ الْعَالِمَةُ الْمُدْرِكَةُ مِنَ الأِنْسَانِ الرَّاكِبَةُ عَلَى الرُّوحِ الْحَيَوانىِّ نازِلٌ مِنْ عَالَمِ الْأَمْرِ تَعْجُزُ الْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ وَتِلْكَ الرُّوحُ قَدْ تَكُونُ مُجَرَّدَةً وَقَدْ تَكُونُ مُنْطَبِقَةً فِى الْبَدَنِ».

٣ ـ النفس:

النفس أيضاً تطلق بمعنيين، أحدهما معنى جامع لقوّتي الغضب والشهوة، أي مصدر وأصل الصفات الذميمة، بحيث أوجب الإسلام مجاهدتها واعتبرها النبي ﷺ أعدا الأعداء.

وبالمعنى الآخر عبارة عن: لطيفة الهية وعناية ربانية وهي بهذا المعنى حقيقة وذات الإنسان وبعبارة أُخرى فإنّها بالمعنى الأول شيطانية ومذمومة وبالمعنى الثاني، رحمانية وحميدة.

٤ ـ العقل:

استعمل «العقل» بمعاني مختلفة، أهل القلب يستعملونه غالباً بمعنى مدرك العلوم، أي مرادفاً لثاني معنيي القلب، كما يلاحظ من بين مجموع هذه المصطلحات قد اهتمّ أكثر بشأن القلب، والقرآن المجيد أيضاً يؤيد هذه الحقيقة، إذ سلامة القلب، سبب سلامة النواحي الثلاثة الأخر، وانْ سُقمه بسبب سقم تلك النواحي الثلاث.

١- الإسراء ١٧ :٨٥

القلب بمعنى اللطيفة الروحانية والسماوية وبنحو الإجمال آلة الارتباط الروحاني الهامة، القلب؛ أي ان القلب يصل إلى معرفة الله والروح وهي أحد أسرار القلب تغدوا عاشقة ومجذوبة لله والسر أي باطن الروح ينال مشاهدته تعالى معنوياً.

العارف، يبغي معرفة الله ويريد من خلال تلك المعرفة توفيق نفسه مع أوامره تعالى وصفاته ومحصّل قوله أنّ الإنسان لا يقدر على بلوغ معرفة الله بالحواس، ذلك انّ وجوده المقدس أجل من الزمان والمكان والمادة، إنه وجود غير ممدود ولا يستطاع فهمه وتصوره ولا يقتدر المنطق والعقل البشري إطلاقاً على تجاوز المحدود، الفلسفة حولاء ولا يقنع القيل والقال الضمير والفكر الباحث عن الحقيقة يظلمّ بالكلمات الجوفاء والمكرّرة والحاصل انّ المرء يتقيد بالأسم وينأى عن المسمّى.

بتعبير مولوي العارف:

الخلق أطفال غير الذي في سكر الله ... ليس ثمة بالغ غير الناجي من الهوى
قال ان الدنيا لهو ولعب وأنتم ... أطفـــال وصـــدقاً يقـــول الله
حرب الخلائق مثل حرب الصبيان ... كلـه دون معنـى ولا مغـزى لـه
الجميع مر بهم بالسيف الخشبي ... الجميـع نغمـتهم فـي لا ينبغـي
كلهـــم قـــد امتطـــوا قصـــبة ... حاسين انّ هـذا براقنـا أو دلـدل
مـــزوّرون وقـــوامهم الجهـــل ... ظانين أنفسهم راكبين في المسير محمولين
كُن حتى اليوم الذي محمولو الحق ... يعبرون فيه من الطباق التسع ممتطين خيولهم مجدّين
يعـرج الـروح إليـه والملـك ... من عروج الـروح يهتـزّ الفلـك

مدار المسالك الإلهية العرفاني:

المدار العرفاني النابع من المنهج الأصيل للأنبياء والأئمة عليهم السلام ثلاثة أمور:

١ ـ **معرفة الله** وذلك أصل وجذر كل حقيقة وواقع.

٢ ـ **معرفة الذات**، أي البحث في الهوية والشخصية والنفس الإنسانية وموقعها في عالم الخلقة وخصائصها والبحث في المصالح والمفاسد الإنسانية.

٣ ـ **تخيّر السبيل الصحيح نحو الكمالات**، أي معرفة التكاليف العبادية والواجبات الأخلاقية وتشخيص الحياة السليمة والسلوك المعتدل وتصفية النفس وتزكيتها وصولاً إلى السعادة والخير حيث لا محالة يصل إلى الإسلام الحقيقي كل بغاة السبيل، ولينالوا بتسبيبه، الكمالات والحقائق.

في معتقد العارف ان في التحلّي بالعلوم الإلهية واتخاذها وخاصة تصفية الباطن من كل تلوُّث، يبلغ الإنسان مقام الكشف ويتصل من خلال ذلك بمعرفة الله مباشرة، هذا العلم ليس نتاج القيل والقال الغارّ، بل بعد مجاهدة المرء فان الأمر موقوف على إرادته و فضله وتوفيقه تعالى، أن يعطي ذلك من كان مستعداً لتسلّم المعرفة ونيل الحقيقة.

المعرفة نور الرحمة الإلهية الذي يشرق على قلب السالك المستعد ذي القابلية ويمحو ويزيح بأشعته النورانية جميع تعيّناته وقواه وتجنّبها غيره تعالى.

طلاب الحق تعالى:

في معتقد أيقاظ الطريق، ان طُلاّب الله ثلاث فئات:

الأولى: أهل الزهد والعبادة، الذين يعبدون الله أملاً في الجنّة والأجر الأخروي أو مكافأة روحانية أُخرى كالكرامات، والله تعالى بفضله ولطفه يجلّي لهم.

الثانية: حكماء الحكمة الإلهية الذين يجلّي الله لهم ذاته من خلال جلاله وجبروته، بيد أنّ هؤلاء ليس بوسعهم إدراك الجلال والجبروت الإلهي بالاستدلال

والمنطق وهم حيارى بشأن تفهّم الصفات والآثار الإلهية ومقعدون تماماً عن درك حقيقة التوحيد وحصيلة قولهم أن الذات الالوهية والحضرة الأحدية، مما لا يُدرك ونتيجة علمنا أن نعرف عجزنا عن إدراكه.

الثالثة: العرفاء، الذين يجلي الله لهم ذاته بالإشراق، أي أنّ العارف يبلغ حالاً، بحيث ينقطع عما سوى الله، يخرج عن حدّ التعيّنات الشخصية فيفنى محضاً، ويبقى بالله.

في اعتقاد العرفاء الشامخين وهو محصّل نبوّة الأنبياء وإمامة الأئمةعليهم السلام فإن الإنسان، سبب الخليقة الغائي وثمرة الخلقة إكليل العالم، الإنسان، وإن كان آخراً حسب ترتيب الظهور، بيد أنه الأول في النظرة الإلهية وحسب مقام الشرف.

نطق في الازل اشراق حسنك بالتجلّي ظهر العشق وأشعل النار في كل العالم
تجلّى وجهك فوجد أن الملك لا عشق له أصبح النار ذاتها من هذه الغيرة وألهب آدم
اراد العقل الاستصباح بتلك الشعلة لمَعَ برق الغيرة وبعثر العالم
أراد المدّعي أن يأتي لمحل مشاهدة السرّ جاءت يدُ الغيب وضربت في صدر الأجنبي
الآخرون كانت قرعة قسمتهم التنعّم قلبنا المتوجّع الذي كان نصيبه الغم
النفس العلوية رغبت في البئر بحبلك تمحكت بعروة تلك الطرّة المتلوية
«حافظ»كتب بذلك اليوم كتاب عشقك إذ القلم قد ضرب القلم على أسباب القلب الطرب[1]

ما دام الإنسان أسر الشهوة والرغبات فهو بمنأى عن الله؛ لكن إذ يكثر جذب الحبيب له ويُلقي جانباً عالم الحس والمحسوس ويستنير من باطنه بنور المعرفة، يتفوّق شوق ووجد وصال الحبيب على أي شيء، أي إذ تتم إماتة النفس وإزالة التعيّنات، تهزّ قلبه حلاوة مشاهدة جمال الألوهية.

١- حافظ الشيرازي.

روايات أُخر في عظمة «لا إله إلا الله»:

نعم، إلى جانب المعرفة هذه، فإن قوله «لا إله إلا الله» وهو قول كل كيانه وخاصة قلبه، ثمن الجنّة وعلى هكذا أشخاص يصدق قول رسول الله ﷺ:

«ثَمَنُ الْجَنَّةِ لا إلهَ إلاّ اللّهُ»[١].

قال نبي الإسلام ﷺ:

لاإله إلاالله غرست له شجرة في الجنة من ياقوتة حمراء، منبتها في مسك أبيض، أحلى من العسل، وأشد بياضا من الثليج، وأطيب ريحا من المسك، فيها أمثال ثدي الابكار تعلو عن سبعين حلة[٢]

روى جابر الجعفي عن الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال:

ليس شئ إلا وله شئ يعدله إلا الله، فانه لا يعدله شئ، ولا إله إلا الله فانه لا يعدلها شئ، ودمعة من خوف الله فانه ليس لها مثقال، فان سالت على وجهه لم يرهقه قتر ولا ذلة بعدها أبدا[٣]

يروي أبو الطفيل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

مامن عبد مسلم يقول: لا إله إلا الله، إلا صعدت تخرق كل سقف لا تمر بشئ من سيئاته إلا طلستها، حتى تنتهي إلا مثلها من الحسنات فتقف[٤]

عَنْ أَبى حَمْزَةِ الثّمالى قَالَ: «سَمِعْتُ أَبا جَعْفَرَ عليه السلام يَقُولُ: مَا مِنْ

١- وسائل الشيعة: ٢١٠/٧، الباب ٤٤،الحديث ٩١٣٣.

٢- الكافي: ٥١٧/٢، باب من قال لا إله إلا الله، الحديث، بحار الأنوار: ١٨٢/٨، الباب ٢٣، الحديث ١٤٦.

٣- وسائل الشيعة: ٢٢٥/١٥، الباب ١٥، الحديث ٢٠٣٣٨، بحار الأنوار: ٢٠١/٩٠، الباب ٥، الحديث ٣٦.

٤- التوحيد: ٢١، باب ثواب الموحدين، الحديث ١٢؛ بحار الأنوار: ١٩٥/٩٠، الباب ٥، الحديث ١٤.

شَيْءٍ أَعْظَمُ ثَوابا مِنْ شَهَادَةِ أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ لِأَنَّ عَزّ وَجَلّ لا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ وَلا يَشْرَكُهُ فِي الْأَمْرِ أَحَدٌ»[١].

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «مَا قُلْتُ وَلا قَالَ الْقَائِلُونَ قَبْلِي مِثْلَ لا إله إلاّ اللّهُ»[٢].

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «خَيْرُ الْعِبادَةِ قَوْلُ لا إلهَ إلاّ اللّهُ»[٣].

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَقُولُ لا إلهَ إلاّ اللّهُ إلاّ مُحِيَتْ ما فِي صَحِيفَتِهِ مِنْ سَيِّئاتٍ حَتّى تَنْتَهِي إلى مِثْلِهَا مِنْ حَسَناتٍ»[٤].

عَنْ فُضَيْلٍ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:« أَكْثِرُوا مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللّهِ مِنَ التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ»[٥].

عَنْ أَبِي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَالَ لا إلهَ إلاّ اللّهُ مُخْلِصا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِخْلاصُهُ بِهَا أَنْ يَحْجُزَهُ لا إلهَ إلاّ اللّهِ عَمَّا حَرَّمَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ»

مقدار كبير من الصفحات السابقة شرح هذه الرواية وأمثالها. في الحقيقة ينبغي قول «لا إله إلا الله» بمعرفة وإخلاص؛ إذ قول «لا إله إلا الله» دون أن تتجلى في الإنسان الآثار الإيجابية الإلهية، ليس ثمناً للجنة.

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «آتانِي جَبْرَئِيلُ بَيْنَ

١- التوحيد: ١٩، الحديث ٣، بحار الأنوار ١٩٤/٩٠، الباب ٥، الحديث ٨.

٢- وسائل الشيعة: ٢١١/٧، الباب ٤٤، الحديث ٩١٣٦.

٣- الكافي: ٢ /٥٠٦، باب التسبيح والتهليل، الحديث ٥.

٤- ثواب الأعمال: ٤، ثواب من قال لا إله إلا الله، بحار الأنوار: ٢٠١/٩٠، الباب ٥، الحديث ٣٧.

٥- الكافي: ٥٠٦/٢، باب التسبيح والتهليل، الحديث، بحار الأنوار: ٢٠٢/٩٠، الباب ٥ الحديث ٣٨..

الصَّفا وَالْمَرْوَةَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ طُوبى لِمَنْ قالَ مِنْ أُمَّتِكَ لا إلهَ إلاَّ اللّهُ مُخْلِصا»[1].

كان حذيفة بن اليمان وهو من أصحاب النبي ﷺ يقول:

لا يزال لا إله إلا الله ترد غضب الرب جل جلاله عن العباد، ما كانوا لا يبالون ما انتقص من دنياهم إذا سلم دينهم فإذا كانوا لا يبالون ما انتقص من دينهم إذا سلمت دنياهم، ثم قالوها ردت عليهم، وقيل: كذبتم ولستم بها صادقين[2]

عن علي عليه السلام أنه قال:

أنا وشيعتي يوم القيامة على منابر من نور فيمر علينا الملائكة ويسلم علينا، قال: فيقولون: من هذا الرجل؟ ومن هؤلاء؟ فيقال لهم: هذا علي بن أبي طالب ابن عم النبي، فيقال: من هؤلاء؟ قال: فيقال لهم: هؤلاء شيعته، قال: فيقولون: أين النبي العربي وابن عمه؟ فيقولون: هما عند العرش، قال: فينادي مناد من السماء عند رب العزة: يا علي ادخل الجنة أنت و شيعتك لا حساب عليك ولا عليهم، فيدخلون الجنة ويتنعمون فيها من فواكهها، و يلبسون السندس والاستبرق وما لم تر عين، فيقولون: ﴿الحمدلله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ الذي من علينا بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وبوصيه علي بن ابي طالب عليه السلام، والحمدلله الذي من علينا بهما من فضله، وأدخلنا الجنة فنعم أجر العاملين فينادي مناد من السماء: كلوا واشربوا هنيئا، قد نظر إليكم الرحمن نظرة فلا بؤس عليكم ولا حساب ولا عذاب[3]

١- التوحيد: ٢١، باب ثواب الموحدين، الحديث ١١،بحار الأنوار: ٢٠٦/٩٠، الباب ٦، الحديث ٤ .

٢- ثواب الأعمال: ٥، ثواب من قال لا إله إلا الله مخلصاً، بحار الأنوار: ١٩٧/٩٠، الباب ٥، الحديث ٢٣.

٣- بحار الأنوار: ١٩٨/٧، الباب ٨، الحديث ٧٤..

قال نبي الإسلام ﷺ:

كلكم يدخلون الجنة ، الا من شرد على اللّه شراد البعير على اهله، فقالوا: يارسول الله ويأبى؟ فقال ﷺ: الذي يمتنع عن قول «لا إله إلا الله»، أوصيكم بقول «لا إله إلا الله» قبل ان يحيل بينكم وبين هذه الكلمة الطيبة، فإنها حقاً كلمة التوحيد، والاخلاص، والتقوى، والكلمة الطيبة، ودعوة الحق وحبل الله المتين، وثمن الجنة [١]

نقل عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال:

جاء الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا:

يا رسول الله إن الاغنياء لهم ما يعتقون وليس لنا ولهم ما يحجون وليس لنا ولهم ما يتصدقون وليس لنا ولهم ما يجاهدون وليس لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كبر الله عزوجل مائة مرة كان أفضل من عتق مائة رقبة ومن سبح الله مائة مرة كان أفضل من سياق مائة بدنة ومن حمد الله مائة مرة كان أفضل من حملان مائة فرس في سبيل الله بسرجها ولجمها وركبها ومن قال: لا إله إلا الله، مائة مرة كان أفضل الناس عملا ذلك اليوم، إلا من زاد، قال: فبلغ ذلك الاغنياء فصنعوه، قال: فعاد الفقراء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله قد بلغ الاغنياء ما قلت فصنعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [٢]

الإخلاص في الذكر:

دقّقوا النظر في هذه الروايات وما ذُكر فيها من ثوابات، انظروا هل أنّ مسألة الذكر بهذه البساطة بحيث كل من تلفّظ وصل على كل تلك الثوابات أو أن الثوابات تلك

١- ميزان الحكمة: ٨٢/٢ الحديث ٢٦٤٧، أوردنا أوّل الحديث.

٢- الكافي: ٥٠٥/٢، باب التسبيح والتهليل، الحديث ١، الآمالي، الشيخ الصدوق: ٧٠ المجلس ١٧، الحديث ١.

تخصّ أهل المعرفة وأهل الاخلاص؟!

الذكر بحاجة إلى إخلاص له شروط ويتطلب مقدمات، أفهل له كل تلك العوائد الإلهية دون شروط وإخلاص ومقدمات؟

لاحظوا الرواية أدناه وهي من أهم وأصحّ الروايات:

قال اسحاق بن راهويه:

لما وافى أبو الحسن الرضا نيسابور وأراد أن يرحل منها إلى المأمون، اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له: يا ابن رسول الله ترحل عنا ولا تحدثنا بحديث فنستفيده منك؟ وقد كان قعد في العمارية، فأطلع رأسه وقال: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله عز وجل يقول: **لا إله إلا الله** حصني، فمن دخل حصني أمن (من) عذابي، فلما مرت الراحلة نادانا: بشروطها وأنا من شروطها [1]

نعم، إنّ شرط صحة «**لا إله إلا الله**» هو طاعة الإمام المنصوب من قبل الله، إنّ مطيعي بني أُمية وبني العباس وهارون والمأمون وأمريكا وروسيا وانجلترا وكل طاغوت لو تلفظا يومياً بآلاف «**لا إله إلا الله**»، فسينادَون وفق الرواية أعلاه أيها الكذابون.

كما التفتوا إلى رواية «أبي سعيد الخدري» اللاحقة، وهي غاية في الأهمية قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم جالسا وعنده نفر من أصحابه فيهم علي بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال رجلان من أصحابه،: فنحن

١- الأمالي: الشيخ الصدوق: ٢٣٥، المجلسي ٤١، الحديث ٨؛ معاني الأخبار: ٣٧٠، الحديث ١.

نقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنما تقبل شهادة أن لا إله إلا الله من هذا وشيعته الذين أخذ ربنا ميثاقهم، فقال الرجلان: فنحن نقول: لا إله إلا الله فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله: يده على رأس علي عليه السلام ثم قال: علامة ذلك أن لا تحلا عقده ولا تجلسا مجلسه ولا تكذبا حديثه [١]

يستفاد من المضمون الرفيع لهكذا روايات أنه ليس كل من يقول «**لا إله إلا الله**» هو من الناجين، هذا الذكر بحاجة إلى مقدمات روحية وإخلاص واجتماع شرائط.

لاحظوا أيضاً الرواية البالغة الأهمية، أدناه:

روى أبو الجارود عن عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال: سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير، قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيرانا فتحرقوها، وذلك أن الله عزوجل [٢] يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ [٣].

ماالذي نستفيده من هذه الرواية؟ وبقوله لنا المعصوم هو الرسول؟ كما أنّ ما نستنتجه من رواية مولانا الرضا عليه السلام والرواية التي بعدها والرواية أعلاه، فمحصلة هذه

١- ثواب الأعمال: ٧، ثواب من تقبل منه شهادة أن لا إله إلا الله: بحار الأنوار: ٢٠٢/٩٠ الباب ٥ الحديث ٤١.

٢- وسائل الشيعة:١٨٦/٧، الباب ٣١، الحديث ٩٠٧٤، بحار الأنوار: ١٦٨/٩٠، الباب ٢، الحديث ٣.

٣- محمد ٤٧: ٣٣.

الروايات الثلاثة أنّ مقبولية العمل لها شرائط وأمثال هذه الروايات تقيّد إطلاق تلك الأخرى، أي أن الذكر والعمل ـ أي ذكر وعمل كان الذي له أجر وثواب عظيم، فله شروط سابقة ولاحقة.

في ختام روايات الذكر ينبغي أن تلاحظوا من جديد انّ مولانا الصادق ﷺ قال:

فاجعل قلبك قبلة للسانك لا تحركه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضا الإيمان فأن الله عالم يسرّك وجهرك وهو عال بما في الصدور فضلاً عن غيره.

الأذان تذكار الحقائق الإلهية

يمكن اعتبار الأذان ضمن أذكار قلّ التفات الناس إلى أهميتها. اربع مرات «الله أكبر»، وفي خمسة أوقات، وبصوت عالي، ماذا يعني ذلك؟

أي، يا تائهون، يا غافلون: يا نائمون: ويا غرقى في الماديات والمعاش! ويا ملوّثون بالذنوب! إن ربّكم أكبر وأعظم من كل ما تتصوّرون وما تعلّقت به قلوبكم، ما تعلّقتم به لا شيء مقابل الحبيب الأعلى، ظاهر وزائل، خاوٍ وغير ذي أساس، ضيل وصغير ولا قوام له، ما أرقّ إرادة وأضعف عقل ذلك الذي يدع عظمة لا نهاية اللانهاية ويرفع اليد عن الرحمة اللامتناهية والذاتية التي اجتمعت فيها الصفات الكمالية نافضاً يده من أصل وجذر وأساس البنيان متوجهاً نحو أمور جزئية وأشياء جوفاء وذاهبة، متعلّقاً بها، بالغاً تعلّقه حدّ الغرق.

لم يرَ عشاقه عظيماً غيره ولم يذكروا سواه، وأستفادوا من الدنيا وما فيها بقدر ما أذن فيه العشيق الحق، واغلقوا السبيل أمام تطرّق الغير إلى القلب.

إني حين توضّأت من عين العشق كبّرت أربعاً على كل ما هو كائن

مرّتان «**أشهد أن لا إله إلا الله**» شهادة ينبغي أن يشترك فيها كل كيان الإنسان وكونه ولا يبقى شيء من أجزاء الوجود إلا ويشهد بوحدانية العشيق الحق تعالى على

ما يقول العارف الواله «الفيض» الكاشاني:

ليس في صدف الروح درّ غير الحبيب الحبيب

الـــذي القلـــب حـــيٌّ بـــذكره، هـــو هـــو

ليس مغزى في هذه الأطباق التسع غير عشق الحق

كل ما سوى عشقه فلا يعدو القشر القشر الغشاء الغشاء

قامة الباسقات قائمة بذلك المحسِّن الغنى والبستان

وجه ملائكيوا الهياكل من ذلك الوردي الوجه، وجه وجه

غدا العشق مهنتي صار فـي الشـريان والعـروق

ليس في البـين أنـا إنـي لسـت أنـا هـو هـو

هو كلـه العـزّ والـدلال نحـن كلّنـا ذل وفاقـة

ذلّتنـــا منّـــا عزّتنـــا منـــه منـــه[1]

مرتان «**أشهد أن محمداً رسول الله**» أي أن سبيل الحق تعالى معرفته ومقبولية العمل لديه، مرهون باتصال المرء بكيان رسول الله ﷺ، ذلك الإنسان الكريم الذي عرّف الربّ العظيم البشرية به تبارك وتعالى وبالقوانين والحلال والحرام والجنّة والنار والملك والملكوت والأئمة الأطهار عليهم السلام وقواعد الحياة السليمة ويستحيل على الإنسان بلوغ رتبة أو شيء دون أن يكون أخذاً من تعاليمه وبدون التأسّي به ﷺ، الشهادة برسالته في الحقيقة، نفي لجميع المسالك غير الإلهية وانّ التحقّق العيني لهذه الشهادة في الحياة هو ما يحلّي المرء، بجناحي العلم والعمل ويحلّق به صوب مقام القرب.

مرتان بوصف المستحب المؤكَّد حينما يهدّد حقيقة الإسلام خطر جادٌّ، فواجب

١- الفيض «الكاشاني».

إلهي: «**أشهد أنّ علياً وليُّ الله**»، أي أنّ بعد النبي ﷺ وسبيله ومنهاج القرآن والشرع الإلهي وصراط الله بالمستقيم وحقيقة وحلاوة الدين وسبب الأسباب في اتصال الآدمي بالله، فذلك علي عليه السلام.

مرّتان «**حيّ على الصلاة..**» تلك الحقيقة التي تنهاكم وتصدّكم عن الفحشاء والمنكر، الحقيقة التي تسبّب اتصالكم بالحبيب تعالى، تلك العروة الوثقى التي بدونها فباب الدنيا والآخرة موصدة بوجهكم.

مرّتان «**حيّ على الفلاح**» مرّتان «**حيّ على خير العمل**» ومن جديد مرّتان «**الله أكبر**» كما مرّتان «**لا إله إلا الله**» يقول هذه المؤمنون هذه الأذكار الرفيعة كل صبح وظهر وعصر ومغرب وعشاء، وينبغي أن يقولوها كي يشنّفوا آذان أرواح العباد من خلال ذلك ويدعوهم إلى الرب ويصدّوا وجوههم عن غير الحبيب المتعال ومع أنهم عالمون بالاستحباب للسامع وبكل كيانه أن يكرّر مع المؤذّن تلك الجمل النورانية، ثم يُعدّ نفسه للمثول أمام المولى تعالى.

ثواب الأذان ومقام المؤذن:

لأجل إدراك ثواب المؤذن ومن يستمع له، فراجعوا ما ورد في الكتب الحديثة الرفيعة من روايات، إننا هنا وللتيمّن والتبرّك نورد رواية عن «**من لا يحضره الفقيه**» للشيخ الصدوق، انتبهوا:

يقول عبد الله بن علي:

حملت متاعي من البصرة إلى مصر فقدمتها فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بشيخ طويل شديد الادمة أبيض الرأس واللحية، عليه طمران أحدهما أسود والآخر أبيض،

فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا بلال مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخذت ألواحا فأتيته فسلمت عليه فقلت له: السلام عليك أيها الشيخ، فقال: وعليك السلام، قلت: يرحمك الله تعالى حدثني بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: وما يدريك من أنا؟ فقلت: أنت بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فبكى وبكيت حتى اجتمع الناس علينا ونحن نبكي، قال: ثم قال: يا غلام من أي البلاد أنت؟ قلت: من أهل العراق قال: بخ بخ، ثم سكت ساعة، ثم قال: اكتب يا أخا أهل العراق " بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المؤذنون أمناء المؤمنين على صلواتهم وصومهم ولحومهم ودمائهم، لا يسألون الله عزوجل شيئا إلا أعطاهم، ولا يشفعون في شئ إلا شفعوا.

يقول الإمام الخميني رحمه الله تعقيباً على الجمل أعلاه، ناقلاً عن بعض العلماء المعاصرين في إيضاح المؤذن أمين، ما يلي.

انّ قبول شفاعة وطلب المؤذن، لقاء ما على عاتقه من واجب ثقيل، مثل أنّ الشرطة في الشارع والوحدات العسكرية في الصحاري، يحرسون أموال ونفوس الناس بيد أنّ قبال هذه المسؤولية الثقيلة فإنّ تأييد وتوثيق الشرطة والعسكر لأمر ما، له القيمة والاعتبار لدى ذوي المناصب الحكومية العليا.

كذلك المؤذن، إنّ بأذانه في المدينة أو الناحية أو القربة.. يعلن لجيش الإسلام أو بمن يمرّ من الناس هناك، أنّ أهل هذا المنطقة مسلمون، أيّها المارّون: بوسعكم ان تتناولوا من لحم سوق هؤلاء وأن تقتنوا مما يبيعونه من جلد وحذاء، بوصفه بضاعة طاهرة وانّ جميع الناس يمسكون في شهر رمضان ويفطرون بأذان المؤذن ويؤدون الصلوات الخمس في أوقاتها حسب إعلانه، هؤلاء الذين هم أمناء بهذا النحو على أمور المسلمين فينبغي لهم دوماً جعل تحمّل السهر والنظم في الأمر، برنامجاً لهم، وفي ذلك متاعب ومشقة على المؤذن ولقاء هذا الأتعاب، كان الله العزيز المتعال يقبل

شفاعتهم وما يتقدّمون به إليه.

يقول الشيخ الصدوق في تتمة الرواية:

قلت: زدني يرحمك الله.

قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من أذن أربعين عاما محتسبا بعثه الله عزوجل يوم القيامة وله عمل أربعين صديقا عملا مبرورا متقبلا ".

قلت: زدني يرحمك الله، قال: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم " سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من أذن عشرين عاما بعثه الله عزوجل يوم القيامة وله من النور مثل زنة السماء ".

لو وقع بقلبك وفي رودك نور عشق الحق تعالى

بالله وتالله ستكون أفضل من شمس الفلك.

قلت: زدني يرحمك الله، قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من أذن عشر سنين أسكنه الله عزوجل مع إبراهيم الخليل عليه السلام في قبته، أو في درجته ".

قلت: زدني يرحمك الله عزوجل، قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من أذن سنة واحدة بعثه الله عزوجل يوم القيامة وقد غفرت ذنوبه كلها بالغة ما بلغت ولو كانت مثل زنة جبل احد ".

قلت: زدني يرحمك الله قال: نعم فاحفظ واعمل واحتسب " سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول: من أذن في سبيل الله صلاة واحدة إيمانا واحتسابا وتقربا إلى الله عزوجل غفر الله له ما سلف من ذنوبه ومن عليه بالعصمة فيما بقي من عمره، وجمع بينه وبين الشهداء في الجنة ".

قلت: زدني يرحمك الله حدثني بأحسن ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ويحك

ياغلام قطعت أنياط قلبي، وبكي وبكيت حتى أني والله لرحمته، ثم قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا كان يوم القيامة وجمع الله عزوجل الناس في صعيد واحد بعث الله عزوجل إلى المؤذنين بملائكة من نور ومعهم ألوية وأعلام من نور يقودون جنائب أزمتها زبرجد أخضر، وحقايبها المسك الاذفر يركبها المؤذنون فيقومون عليها قياما تقودهم الملائكة ينادون بأعلا صوتهم بالاذان.

«الاهتمام بشأن بيان الزمام والرجل، لأجل أنّ الرجل والرأس رمز المبدأ والمنتهى، الأذان الذي يبتدئ بتعظيم الله ويختتم بكلمة التوحيد فمن المناسب تماماً في عالم تجسّم الأعمال وتحوّ ل الاعراض جواهر، أن يصبح كمركب من النور زمامه ومقدَّمهُ، جوهر ثمين عظيم كالزبرجد وباللّون الأخضر وهو لون أوّل تحول للجماد إلى كائن حي وكون منتهاه ورجله من المشك الإذفر وهو رمز التعطُّر لورد التوحيد في فضاء الروح»

ثم بكى بكاء شديدا حتى انتحبت وبكيت فلما سكت قلت: ممن بكاؤك؟ فقال: ويحك ذكرتني أشياء سمعت حبيبي وصفيي عليه السلام يقول: " والذى بعثى بالحق نبيا إنهم ليمرون على الخلق قياما على النجائب فيقولون: " **الله أكبر، الله أكبر** " فإذا قالوا ذلك سمعت لامتي ضجيجا، فسأله اسامة ابن زيد عن ذلك الضجيج ما هو؟ قال: الضجيج التسبيح والتحميد والتهليل، فإذا قالوا: " **أشهد أن لا إله إلا الله** " قالت امتي: نعم إياه كنا نعبد في الدنيا، فيقال: صدقتم، فإذا قالوا: " **أشهد أن محمدا رسول الله** " قالت أمتي: هذا الذي أتانا برسالة ربنا جل جلاله وآمنا به ولم نره، فيقال لهم: صدقتم هذا الذي أدى إليكم الرسالة من ربكم وكنتم به مؤمنين، فحقيق على الله عزوجل أن يجمع بينكم وبين نبيكم، فينتهى بهم إلى منازلهم، وفيها مالا عين رأت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر[١].

ثم نظر إلي فقال: إن استطعت - ولا قوة إلا بالله - أن لا تموت إلا وأنت مؤذن فافعل، تتمة الروا ية في وصف ا لجنّة وهي مفصّلة جداً ولعلّنا نوردها بمشيئة الله في شرح بعض روايات أبواب ا لكتاب الآتية.

على أي حال، فالذكر الواقعي أن يدرك الإنسان مفهوم وحقيقة الذكر، بمعونة عقله وقلبه وبقوله عن رغبة ايمانية وبين حياته بكل شؤونها وذلك الذكر؛ إن قال: «**سبحان الله**» أن يدرك المعنى وأنّ مولاه منزّه من كل عيب ونقص، فينبغي أيضاً لعبد هكذا مولى ووفق قابليّته واستعداده، التنزّه عن العيب، إن قال: «**الله أكبر**»، يتنبّه حقيقة إلى أن العالم والآدمي أجمعين، صغيرٌ أمامه تعالى ولا كبير إلا هو ولا يرفع يده عن الكبير فيتمسّك بالصغير، إن قال: «**لا إلا إلا الله**»، فلينفِ بعد ذلك وبكل كيانه، غير الله تعالى غير متّخذ من حياته إلا العشق لله واحتضان سيادته، وكذلك في جميع أذكاره سواء الواجبة والمستحبة، هكذا تعامله، كي يمكن أن يقال له «**الذاكر الحقيقي**».

١- الآمالي للشيخ الصدوق: ٢١٠، المجلسي ٣٨، الحديث ١ ؛ من لا يحضره الفقيه:٢٩٢/١، باب الأذان والإقامة، الحديث ٩٠٥.

«وَكُنْ كَالنَّازِعِ رُوحَهُ أَوْ كَالْواقِفِ فِى الْعَرْضِ الْأَكْبَرِ غَيْرَ شاغِلٍ نَفْسَكَ عَمَّا عَناكَ مِمَّا كَلَّفَكَ بِهِ رَبُّكَ فى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعيدِهِ»

حال الإنسان حين الذكر:

لدى الذكر أو دائماً؛ كن كالمحتضر؛ الشخص الذي لا قدرة له على إتيان أي لغو وفعل عابث، الإنسان الذي لا يلتفت في ذلك الحال إلا إلى لطف وعطف وفضل الباري تعالى معرضاً عن غير ذلك من اشتغالات غير مستعين بسواه ولا طامع بمن عداه. إن جعلت نفسك في كل الحالات، سواء في البيت أو خارجه، في السفر أو الحضر، سواء لدى التكسّب أو في المعاشرة أو حين الأكل أو النوم، اعتبرت نفسك كالمحتضر، فتيقّن أنّك لن تكون مستعداً ولو للحظة أن تترك المحاسن ولا تقبل طرفة عين التلوّث بالقذارات!!

أو اعتبر نفسك في هذه الدنيا وفي كل اللحظات، ماثلاً للحساب، الحساب والسجل الذي قاضيه والحاكم بشأنه هو الله وعاقبته إما الجنّة أو ا لنار.

عزيزي: تيقظ واغتنم فرصة العمر الثمينة ولا تدع التمسك بالعروة الوثقى للهداية وتاجر بالدنيا مكزرعة للآخرة، العمر سريع المرور، البرزخ والقيامة لا تعزلهما عنك مسافة، الدنيا أيضاً كالآخرة، محضر الله وانظر أنّك على أي حال وأي اشتغال بهذا المحضر؟ راقب أن لا تشغل نفسك بما لم تُكلَّف به من قبل الله من أمر ونهي ووعد ووعيد، إذ هذا الاشتغال شيطاني ولا عاقبة له سوى الحسرة والندامة والضرر والخسران. ابذل العمر في امتثال الأوامر واجتناب المحرمات الالتفات إلى ما وُعد عليه

بالجنّة والامتناع مما وُعد عليه بالنار.

كما يقول العارف المتحرّق، «الإلهي القمشه اي» رحمه الله:

قم ليلة في السَحر ضجّ ساعة بعين رطبة
تأوّه واعزم على الارتحال عجّل يا قلبُ في سبيل الوفاء
إرفع الرأس من النوم الثقيل بحرقة الباطن بعين تتصبب
يا روح هيا للالتهاب في السحر سفراً هيا نحو إقليم البقاء
عمراً وأنت في سكر الغرور فشراب ليلة من قدح الطهور
حيث من التراب بلوغاً إلى عالم النور هيا! خروجاً من بلدة الفناء وهذه
الجلوس بغفلة جنون التطرُّق هو الحكمة
لصٌ درب العشق إذ من داخل البيت فلا تراقب غير النفس والهوى
لو صرت عبداً بمحضر الحبيب تستنير مشرقاً من شمس وجهه
تشعّ كالشمس يا ظلمة من أنوار الهدى
صيّاد الأزل في عالم البدن في تسعة أقفاص هذا الفك ذي القدم
قد شدّ الآن بأبي وجناحي سيحرّر بكرمه هذا الطائر
انفلت من مصيدة العالم أصبح تراب باب ذلك الصياد
إذ قلبي مسرور وهو ذو الغمّ ينتهي حزني والجفاء
يا ربّ أبلغ ناراً حيناً ما كشعلة الطور أحرق التشهّيات
حرّر طائر القفص فننفلت من مصيدة الفراق[1]

١- الهي القمشه اي.

«وَاغْسِلْ قَلْبَكَ بِماءِ الْحُزْنِ وَلا تَشْغَلْها بِدُونِ ما كَلَّفَكَ»

غسل القلب بدموع الندم:

إغسل قلبك من متعلقات الدنيا وما فيها ومن كل تلوّثات القلب بماء الحزن والحسرة على ما مضى من العمر وبدمع العين الثمين الذي يجري في سبيل الله وخاصة في ظلام الليل على ظاهر وجهك.

جاء في الرواية: ان قطرة دمع واحدة ندماً، تطفئ بحراً من الغضب الإلهي في الحديث أن:

يوم القيامة يحضرون شخصاً للحساب، كان فعل خلال عمره أعمال خير ظاهراً، يعرضون أعماله على الله، يردّ الباري تعالى كلاً من أعماله لعيب وتقصير، ثم يؤمر به إلى جهنم، تقول أحد رموش عينه بعد إذن المولى تعالى: إلهي! ان هذا الشخص في إحدى الليالي ذكر تقصيراته واحتراق قلبه وجرى على خديه دمع الندامة حدّ أن غرقت في ذلك الدمع، فيعفو الرحمن عن عبد في ثمن ذلك الدمع وينقذه من النار.

ان الإنسان ولو قضّى جميع لحظاته في الخير، لكن عليه أن لا يعتبر نفسه وأعماله شيء أمام عظمة الله ويداوم الحزن في خلوة القلب، متأسفاً على الماضي، حدّ أن يبكي بذكر الماضي وخلوٍّ سجلّه مما في شأن المولى من أعمال ويتسبب في صفاء روحه، بدموع العين مراقباً أن لا يتقضى عمره فيما لم يكلّف به.

كما يقول الإلهي القمشه اي، فيما ورد عن إمام العارفين أمير المؤمنين عليه السلام من جملة «قلوبهم مخزونة» في وصف العشاق:

مملوءة حزناً قلوب العشاق تلك نعم زوج غم رفيقه الطاق
في كل قلب مشتعل بنيرو تقل إذ يحرقون شمعه بشرر الغم
أي غم؟ غم الدين، دين الحبيب الذي من ذلك الغم فلا يرتح خاطر
علامة المعرفة القلب الحزين قلب الأطهار قرين بوجع الغم
شجرة المعرفة تحمل ثمرة التألّم وتقطر حمراوات على صفرة الوجه
من كل غم فخاطر مهموم غم الرفيق وغم الجسم وغم الروح
غم الدين سرور الدارين الاغتمام للدنيا الدنية خسران
ما أحلا قول ذلك الحكيم ذي الذوق إغتم للدين، لا تحزن لغيره
اغتمّ للدين إذ الدنيا لا تجدر بالغم عروس ليلة فاردة ليس يقام لها مأتم

«وَاجْعَلْ ذِكْرَ اللّهِ مِنْ أَجْلِ ذِكْرِهِ لَكَ فَإِنَّهُ ذِكْرُكَ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكَ فَذِكْرُهُ لَكَ أَجَلُّ وَأَشْهى وَأَتَمُّ مِنْ ذِكْرِكَ لَهُ وَأَسْبَقَ»

ذاكر الله:

تذكّر وجوده المقدس، لأنه يذكرُك وبما أنّ ذكره للعبد دائم، في جميع اللحظات وليس ثمة في محضره غفلة ونسيان، فلقاء هكذا ذكر إيّاك، اذكره أنت أيضاً دائماً وكل حين في سكناتك وحركاتك.

تيقظ، كيف الحبيب المتعال لك؟ خلقك وكلّما احتجت وهبك ويعطيك كل ما تعتازه مع كل غناه عنك، أي لحظة غفل فيها الاله عنك ولم يذكرك؟

هذا ظلم عظيم ان يذكرك الحبيب دائماً ولا تذكره أنت وخاصة أن لا تعتني بأمره ونهيه.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء ابي حمزة الثمالي وهو من أهم أدعية الشيعة، متحدثاً عن تفضلات الباري تعالى:

«سَيِّدي اَنَا الصَّغيرُ الَّذي رَبَّيْتَهُ، وَ اَنَا الْجاهِلُ الَّذي عَلَّمْتَهُ، وَ اَنَا الضّالُّ الَّذي هَدَيْتَهُ، وَ اَنَا الْوَضيعُ الَّذي رَفَعْتَهُ، وَ اَنَا الْخائِفُ الَّذي آمَنْتَهُ، وَ الْجايِعُ الَّذي اَشْبَعْتَهُ، وَ الْعَطْشانُ الَّذي اَرْوَيْتَهُ، وَ الْعاري الَّذي كَسَوْتَهُ، وَ الْفَقيرُ الَّذي اَغْنَيْتَهُ، وَ الضَّعيفُ الَّذي قَوَّيْتَهُ، وَ الذَّليلُ الَّذي اَعْزَزْتَهُ، وَ السَّقيمُ الَّذي شَفَيْتَهُ، وَ السّائِلُ الَّذي اَعْطَيْتَهُ، وَ الْمُذْنِبُ الَّذي سَتَرْتَهُ، وَ الْخاطِئُ الَّذي اَقَلْتَهُ، وَ اَنَا الْقَليلُ

الَّذي كَثَّرْتَهُ، وَ الْمُسْتَضْعَفُ الَّذي نَصَرْتَهُ، وَ اَنَا الطَّريدُ الَّذي آوَيْتَهُ».

وسيد المظلومين، سيد الشهداء جميعاً، الإمام ا لحسين عليه السلام يخاطب المولى في دعاء عرفة، الذي لا نظير له:

«يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الَّذِي أَنْعَمْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَحْسَنْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَجْمَلْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَفْضَلْتَ، أَنْتَ الَّذِي مَنَنْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَكْمَلْتَ، أَنْتَ الَّذِي رَزَقْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَعْطَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَغْنَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَقْنَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي كَفَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي عَصَمْتَ، أَنْتَ الَّذِي سَتَرْتَ، أَنْتَ الَّذِي غَفَرْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَقَلْتَ، أَنْتَ الَّذِي مَكَّنْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَعْزَزْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَعَنْتَ، أَنْتَ الَّذِي عَضَدْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَيَّدْتَ، أَنْتَ الَّذِي نَصَرْتَ، أَنْتَ الَّذِي شَفَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي عَافَيْتَ، أَنْتَ الَّذِي أَكْرَمْتَ، تَبَارَكْتَ رَبِّي وَ تَعَالَيْتَ، فَلَكَ الْحَمْدُ دَائِماً، وَ لَكَ الشُّكْرُ وَاصِباً».

«فيض» ذلك العاشق الهائم، يقول بشأن أن كلّ ما تشاهد وكل ما تتصوَّر، فالجذر والأصل، لديه تعالى:

العارفون إذ يستشمون عطرك من مغنى القدس ... يجرونّ أنفسهم دون عقل وسكارى إلى زقاقك

إذ يشاهد مبصرو الحقائق الشمس ... يزيحون برقع عين الشمس عن وجهك

المتعبون فيك إن مرّوا في الظلمات ... يمدّون أيديهم كل جانب ليمسكوا بشعرك

العشاق بكبد ملتهب وعين قد غمرها الماء ... ظماء ماء الحياة، يستخرجونه من ساقيتك

كل ما يرون يشاهدون من جمالك فيه ... صورة كل شيء ومعناه نحوك يجرّونه

السَّرو إذ يتصورونه فمن ذكرهم إياك يطوفون حول مغنى الورد، إرادة استشمام عطرك

كل ثناء أيٌّ من يقوله في حقّ أيٍّ كان فجميعه ينسبونه إليك بـ «له الملك وله الحمد»

نهارهم حين ينظرون إليك إليك حيث يُمسكون بجعد شعرك[1].

نعم، اذكره بهذه الألطاف والتفضّلات التي أولاك إيّاها إذ أنه مع كل غناه عنك تماماً، فهو يذكرك وإنّ ذكره لك أعظم من ذكرك إياه وأشهى وأتم واسبق فليس من الحق ان ينظر هكذا إليك بعين اللطف والتفضّل وأنت تغضُّ عنه!

١- فيض الكاشاني.

«وَمَعْرِفَتُكَ بِذِكْرِهِ لَكَ يُورِثُكَ الْخُضُوعَ وَالأِسْتِحْياءَ وَالأِنْكِسارَ وَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذلِكَ رُؤْيَةُ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ السَّابِقِ وَتَخْلُصُ لِوَجْهِهِ وَتَصْغُرُ عِنْدَ ذلِكَ طاعاتُكَ وَإِنْ كَثُرَتْ فى جَنْبِ مِنَنِهِ»

استصغار الأعمال أمامه تعالى:

حين تُدرك انّ الوجود المقدس الالوهي ليس يغفلك ولو للحظة، وهو الذي كما غمر سمَك البحر بالماء، بنعمه وفضله وكرامته وهو الذي أغاثك في جميع المواقف، وأعدّ لك كل مستلزمات الحياة والراحة، فهذه المعرفة تورث وتتسبّب في ثلاث حقائق، تتأدى إلى أن تخضع له تعالى في كل أبعاد حياتك ولا تستكبر عن أوامره ونواهيه كما تتسبّب في أن تستحيي منه في الخلوة والعلن في أمورك جميعاً كما تؤدي الغفلة إلى أن تطاطأ معفّراً أمام قدمه، راس العجز والانكسار.

وعباداتك وإن أكبرتها أمام نعمه فإنها تصغر إثر هذه المعرفة وتحقر، حدّ أن تخجل وتستحيي من عباداتك أمام عظمته، مهما كثرت تلك العبادات، حقاً ان فعل الكائن الممكن، الضعيف، الحقير، الوضيع، وإن كثر، فما قدره واعتباره أمام فضل ولطف واجب الوجود؟

الأعمال الناقصة بمحضر الرب الكامل:

أيها العزيز! الأعمال التي تصدر عنك تجاه الحبيب تعالى وهي تامة في حسبانك، فمن الممكن أن تكون معيوبة، ولم تتكشف لك وخفيت عليك.

نقل عن عطاء السلمي وهو أحد مشاهير ذوي الأحوال بأن:

كان أولاً نساجي ويتكسّب من خلال ذلك.

حاك يوماً قماشاً، قماشاً بذل في حياكته وقتاً كثيراً ودقّق للغاية في ذلك معتقداً أنه بمنتهى الإحكام والجودة.

أخذ القماش إلى السوق، فعرضه على بزاز متخصص في القماش وثمنه، كانت القيمة التي وضعها البزاز دون ما حسبه عطاء؛ إذ كان في القماش عيوب أشار إليها البزاز وكانت خفيت عن عين عطار.

بعد العلم بالعيوب، انفجر عطار بالبكاء، وسط السوق، ندم البزاز على فعله، قائلاً لعطاء: اعذرني، اشتريه منك بأي ثمن تريد، قال عطاء: ليس بكائي من قلة ثمن القماش، بل لأجل أني مع كل ما بذلته من جهد كبير في حياكة هذا القماش، وإذا به معيوب وأنا غافل عن عيبه.

لعل أعمالي مثل هذا القماش مليئة بالعيوب وإذ يلاحظها يوم القيامة الخبير البصير، وإذا تظهر عيوبها، بينما أنا غافل عن ذلك، فماذا أفعل يومئذٍ؟

آية الله البروجردي، كان أحد أعاظم علماء الشيعة وفقهاء المذاهب الكبار، أدّت شخصية المتازة العلمية والعملية إلى أن تتوفّر الحوزة العلمية بقم على عظمة بحيث بلغ صدى علم ومذهب التشيع كثيراً من بقاع العالم.

كان الإمام الخميني رحمه الله يولي آية الله البروجردي رحمه الله إجلالاً واحتراماً خاصّاً. يُنقل أن: يوماً كان مجموعة من علماء البلاد بمحضر آية الله البروجردي، فتكلّموا أمامه عن خدماته القيّمة وتحدّث كل واحد عن جانب من برامجه الهامة سواء في التقدم بالفقه، أو إعظام الحوزة، طبع الكتب العلمية، تأسيس دار التقريب، بقاء المساجد والمدارس، إرسال رجال التبليغ الديني إلى دول الخارج، وكان سماحته

يستمع إلى تلك الأحاديث بدقة، لم يسكت عن التطرق لتلك الأحاديث سوى عالم متقدّم في السن لا يعرفه أكثر الحضور وكان بيّناً أنه قدم إلى زيارة السيد من أحد نواحي إيران.

قال له آية الله البروجردي: أنت أيضاً قل شيء، وإذا به وبكل خضوع وانكسار، يقول:

«أخلص العمل فأنّ الناقد بصير»[1].

يا آية الله إن ما قالوه لا يعود عليكم بنفع، أخلص العمل إذ الصائغ الذي عنده محك الأعمال، يقظ متيقظ.

قد سجّلوا أنّ المجلس أصيب ببهت وانفجرت الدموع على وجهه.

نعم، أين أعمالنا من عطائه وفضله، أساساً فإن أعمالنا نحن البشر لا قدر وقيمة لها لنستطيع التحدّث بشأنها أمام عطاء إلاله تعالى!!

كما يقول الإلهي ذلك العارف الحكيم واليقظ الفريد:

كل ما هو غير حياة العشق ففناء فناء	كل ما هو غير العبودية للحبيب المتعال فهوى هوى
عشاق الغم والحزن عندهم صفاء وصفاء	العارفون الألم والوجع عندهم دواء دواء
عطف الشمس على الذرات حسن حسن	عشق وحيرة الذرات مستحسن مستحسن
طاعتنا خاطئة ونقص وذنب ذنب	رحمته كرم وجود وعطاء عطاء
كرم الحبيب علينا لقاء السعي والعمل	هذا في العقل خطأ خطأ
تكرّم على المستعطين بتُرس العشق، تكرّم	الحسن اللامحدود لوجه الإله ليس عجيباً ليس عجيباً
لو أنّه ينظر إلى «الالهي» بلطف، نظرا	فإن رحمته تعمُّ الملك والمستعطي[2]

١- بحار الأنوار: ١٣/ ٤٣٢، باب قصص لقمان وحكمه، الحديث ٢٣.

٢- الهي القمشه اي.

«وَرُؤْيَتُكَ ذِكْرَكَ لَهُ تُورِثُكَ الرِّيا وَالْعُجْبَ وَالسَّفَهَ والْغِلْظَةَ فى خَلْقِهِ وَاسْتِكْثارِ الطَّاعَةِ وَنِسْيانَ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ»

تنبّه إلى أن ذكرك الله، فمن توفيقه، فلا تظن أنه من صُنعك، إذ لا تقدر أنت على صنع شيء، إن لم يكن لطفه وفضله عليك، فليس بمقدروك إنجاز ذكر واحد أو ركعة من العبادة.

لو رأيت ذكرك، فستصاب تدريجياً بالرياء والعجب والسفاهة والحدّة مع الخلق وستستكثر طاعتك وذكرك وتنسى كرم وفضل ربّك عليك، حينئذٍ حيث تكون على شفا السقوط وسوء عاقبة أمرك.

«وَلا يَزْدادُ بِذلِكَ مِنَ اللّهِ إلاّ بُعْدا وَلا يَسْتَجْلِبُ بِهِ عَلى مُضِيِّ الْأَيّامِ إلاّ وَحْشَةً»

«وَالذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ خالِصٌ بِمُوافَقَةِ الْقَلْبِ، وَذِكْرٌ صادِقٌ يَنْفى ذِكْرَ غَيْرِهِ كَما قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إِنّى لا أُحْصى ثَناءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ فَرَسُولُ اللّهِ ﷺ لَمْ يَجْعَلْ لِذِكْرِهِ مِقْدارا عِنْدَ عِلْمِهِ بِحَقيقَةِ سابِقَةِ ذِكْرِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ قَبْلِ ذِكْرِهِ لَهُ»

أقسام الذكر:

الذكر قسمان:

الأول: **الذكر الخالص**، وهو الذكر الذي لا يحفّ به سوى الحال الإلهي للقلب.

الثاني: **الذكر الصادق**، وهو الذكر الذي مهما وصف فيه الذاكر الله تعالى من صفات فهو ايضاً يعمل بمقتضى ذلك واعلم حقيقة أنّك مهما بلغت في العلم والمعرفة، فأنت عاجز عن الذكر اللائق بشأنه تعالى كما انّ النبي ﷺ كان يقول في مقام العجز والانكسار مخاطباً الرب تعالى: فإني لا أحصي ثناءً لك.

مع مناعة شأن رسول الله ﷺ وقربه من الله تعالى، يظهر العجز والقصور، وليس ذلك العجز والقصور إلا لعلمه ﷺ انّ القدرة البشرية لا تنال كنه الحقيقة الالوهية، وذكر العبد غاية في القصور ولا شيء قبال الله تعالى.

«فَمَنْ دُونَهِ أَوْلى فَمَنْ أَرادَ أَنْ يَذْكُرَ اللّهَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ ما لَمْ يَذْكُرِ اللّهُ الْعَبْدَ بِالتَّوْفيقِ لِذِكْرِهِ لا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلى ذِكْرِهِ»

حيثما عزم العبد أن يذكر ربه، فعليه أن يعلم بأنه ما لم يذكره الباري تعالى فلن يوفّق ويقدر على ذكر الله.

يقول الالهي ذلك العارف الحكيم:

إننا نمد لك وحدَك عين الحاجة يا حبيب

عتبة لطفك مفتوحة للجميع يا حبيب

لا يقدر قلبي السقم على تحمـل فراقـك

إما أقتل بسهم التدلّل أو أعطف يا حبيب

كل الليل كالشمعة أضحك وابكي من شوق

في قلبي من عشقك حريق والنهاب ياحبيب.

ديـن الالهـي العشـق ذكـرك تسـبيحي

قبلة روحي أنت عند الصلاة يا حبيب

الباب

(٦)

في بيان الشكر

«قال الصادق عليه السلام:

فى كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِكَ شُكْرٌ لازِمٌ بَلْ أَلْفٌ أَوْ أَكْثَرُ وَأَدْنَى الشُّكْرِ رُؤيَةُ النِّعْمَةِ مِنَ اللّهِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يَتَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِها دُونَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالرِّضا بِما أَعْطى وَأَلاَ يَعْصِيَهُ بِنِعْمَتِهِ أَوْ يُخَالِفَهُ بِشَيْ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ بِسَبَبِ نِعْمَتِهِ.

وَكُنْ لِلّهِ عَبْدا شَاكِرا عَلى كُلِّ حالٍ تَجِدَ اللّهَ رَبّا كَريما عَلى كُلِّ حالٍ، وَلَوْ كانَ عِنْدَ اللّهِ عِبادَةٌ يَتَعَبَّدُ بِها عِبادُهُ الْمُخْلِصُونَ أَفْضَلُ مِنَ الشُّكْرِ عَلى كُلِّ حَالٍ لَأَطْلَقَ لَفْظَهُ فيهِمْ مِنْ جَميعِ الْخَلْقِ بِها، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلُ مِنْها خَصَّها بَيْنَ الْعِباداتِ وَخَصَّ أَرْبابَها فَقَالَ تَعالى: وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ.

وَتَمامُ الشُّكْرِ إِعْتِرافُ لِسانِ السِّرِّ خاضِعا لِلّهِ تَعالى بِالْعَجْزِ عَنْ بُلُوغِ أَدْنى شُكْرِهِ لِأَنَّ التَّوْفيقَ لِلشُّكْرِ نِعْمَةٌ حادِثَةٌ يَجِبُ الشُّكْرَ عَلَيْها وَهِيَ أَعْظَمُ قَدْرا وَأَعَزُّ وُجُودا مِنَ النِّعْمَةِ الَّتى مِنْ أَجْلِها وُفِّقْتَ لَهُ فَيَلْزَمُكَ عَلى كُلِّ شُكْرٍ شُكْرٌ أَعْظَمُ مِنْهُ إِلى مَا لا نِهايَةَ مُسْتَغْرِقا فى نِعَمِهِ قاصِرا عاجِزا عَنْ دَرْكِ غايَةِ شُكْرِهِ.

وَأَنّى يَلْحَقُ شُكْرُ الْعَبْدِ نِعْمَةَ اللّهِ وَمَتى يَلْحَقُ صَنيعُهُ بِصَنيعِهِ وَالْعَبْدُ ضَعيفٌ لا قُوَّةَ لَهُ أَبَدا إِلاّ بِاللّهِ. وَاللّهُ غَنِيٌّ عَنْ طاعَةِ الْعَبْدِ قَوِيٌّ عَلى مَزيدِ النِّعَمِ عَلَى الْأَبَدِ فَكُنْ لِلّهِ عَبْدا شَاكِرا عَلى هـذا الْأَصْلِ تَرَى الْعَجَبَ».

قال الصادق عليه السلام: «فى كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِكَ شُكْرٌ لازِمٌ بَلْ أَلْفٌ أَوْ أَكْثَرُ»

دققوا في الجملة اعلاه، جملة هي عين الحقيقة وتجلى فيها حق الحقيقة انكم تتنفسون وتظنون أنّكم أضفتم إلى بدنكم مقداراً من الاوكسجين عبر جهاز التنفس وتدفعون أثر الاحتراق، ثاني أوكسيد الكاربون، لا، ليس بهذه البساطة، لأجل نفس واحد لكم تعمل مليار مليار عجلة دورة في مصنع الكون العظيم هذا وتتحرّك كي يتم لكم نفس واحد، إذ يدخل النفس فهو يُمد الحياة وإذ يخرج مفرّح الذات، ثمة في كل نفس مليارات النعم ويجب الشكر على كل نعمة كما ويجب الشكر على التوفيق لأي شكر، إلى أن يخرج عدد وجوب شكر الله عن حد التناهي وهنا حيث صرخ جميع الأنبياء والأئمة عليهم السلام والأيقاظ أن:

من ذا تستطيع يده ولسانه أن يخرج من عهدة شكره[1]

وعلى حد قول «فيض» ذلك العارف الواله:

الـذي عـين قلبـه يقظـة يـديم النظـر إلـى الحبيـب
إلى حيث نظرت العين التي تبصر الله فهي تلحـظ جمـال العشـيق
نظـر فـي نظـر يحظـى بـه إذ له في القلب عـين باصـرة
ماذا يخشى من ظـلام الجعـد إذ يستضـئ بشـمع وجهـه

١- سعدي الشيرازي.

يا عمر أمهل «فيض» يومين لقلبه مشغل مع التحبّب[1]

هل تعلمون كم من نعم ينبغي أن تكون لأجل اتمام نفس واحد يتنفسه الإنسان. يجب أن تطوف الأرض بالشمس كي تتهيأ الفصول، تدور على نفسها كي يتحصل الليل والنهار، على الشمس أن تشرق على الأرض، كي يتبخر قسم من الماء، كي تنمو الأشجار والنباتات، كي تستمر الكائنات الحية في حياتها، كي تنعدم الميكروبات والفايروسات الضارة، كي يتم أخذ الكربون من قبل آلاف مليارات النباتات والأشجار، ويتم تأمين أوكسجين الأرض، كي يحصل التوازن بين الاوكسجين والنيتروجين وبعد ذلك ينبغي أن تعمل داخل البدن مليارات الخلايا في نظام واحد كي يتمكن جهاز التنفس من العمل كي يكون مقدوراً انجاز تنفس واحد، إن رغبتم في مطالعة تفصيل هذه العملية وهذه التفاعلات المترابطة مما لم تذكر منه واحداً من الألف، فعليكم ان تطالعوا ذلك في الكتب المعنيّة، كي تتضح لكم ماهية تنفس واحد يتّم، فستعلمون ان ثمة خلف كل نفس مليارات النعم، فلكل نفس ينبغي مليارات من الشكر ولكل شكر أيضاً ينبغي شكر، فاي قدرة في هذه الخليقة، تقوم لذلك وتستطيع آداء شكر ربها كما ينبغي؟ إننا لو أردنا، اتخاذ الانصاف في قضية الشكر، فعلينا أن نقول: نحن لم نؤدِّ حق شكر المولى تعالى ولو بشأن نعمة واحدة قد نستسهل أمرها.

الشكر مسبّب عن معرفة النعمة ونحن بشكل خاص فلأي نعم الله بادرنا إلى التعرف، كي بعد المعرفة بموقع النعمة من حياتنا، ننهض لتأدية الشكر؟

وكما يقول العارف العاشق «الالهي».

إن كان هذا العمر هو ما تفلّت منّا فيا حسرتا فقد ذهب فناءً

١- فيض الكاشاني.

يـا حسـرتا فـرأس مـال الحيـاة ذهب سدىً وذهبـت بـه الـريح هبـاءً
مضـت بالباطـل أيـام عمـر تقضى دون ذكر الله وذهبت في الأهواء
ذهـب بلعـب عهـد للشـباب يا ويل إذ هكذا جـوهر بـات دون ثمـن
إسألوا يا شباب العصر من العجلة الدوارة أن أيـن صـار عهـد شـباب الشـيوخ
ينقضي العمر وتبقى الحسرة والغم لـذلك القلـب الـذي غفـل عـن ذكـر الله[1]

جهاز التنفس وعوامل النفس:

قال الإمام الصادق عليه السلام في أوّل رواية باب الشكر: في كل نفس من انفاسك شُكر لازم بل ألف أو أكثر.

انّ هذه المسألة بحاجة حقاً إلى توضيح وشرح ويلزم في هذا الخصوص الأعزاء الراغبين في اكتساب الحقائق أن يحصّلوا معلومات هامة في المجالات ذات الصلة بالشكر.

إذ الشكر بما أنه يتصل بالنعم المعنوية والمادية، النعم التي يحتك بها الإنسان مباشرة أو مع الواسطة، فإن أردنا بحث ذلك مفصلاً، فسيتجاوز الأمر مجلّدات الكتب ولعلّ ما لا يحصى من المجلّدات وهذا ما لا يتيسر إنسان واحد بهذا العمر القصير ومختلف الاشتغالات، اذن ينبغي استغلال ما أمكن من طاقة وقليل من الدقة ومطالعة ذوي القلوب ومهما أمكن فالنظر إلى الموضوع في الوجه الكلي والمنظر الاجمالي، في القسم الأول، ينبغي توضيح مجمل عن جهاز التنفس وهو اداة تنفس الإنسان وأشار الإمام الصادق عليه السلام في أولى مراحل الرواية إلى مسألة النفس وشكره، ثم المبادرة إلى شرح باقي الحديث الشريف بالاستعانة بالقرآن والروايات بمشيئته تعالى.

١- الهي قمشه أي.

نقرأ في كتاب «فسلجة الإنسان» وهو كتاب تحقيقي وعلمي أُلف على أساس تحقيقات وتجارب علمية وعملية لآلاف الأخصائيين[١]:

أبسط تعاريف التنفس أنه عبارة عن أُسلوب تتم به التبادلات الغازية بين خلية حيّة ومحيطها.

إذن، يشمل التنفس كيفيات أخرى عدا العمل الميكانيكي للتنفس، جهاز الدورة الدموية مع كل ماله من أهمية، ليس بمقدوره حمل الاوكسجين وثاني أوكسيد الكاربون إلى أو من الخلية، ما لم ينجز جهاز التنفس عمله، أي وضع الاوكسجين في متناول الدم وأخذ ثاني أوكسيد الكاربون منه، إذن فالتنفس مجموعة من عدة أعمال ويشمل تعاون وتشارك العديد من أعضاء البدن.

طريقتان من التنفس:

ينقسم التنفس أولاً إلى مرحلتين متمايزتين:

١ ـ التنفس الخارجي.

٢ ـ النفس الداخلي.

التنفس الخارجي يشمل حركة الهواء إلى داخل الرئتين وبالعكس، انتقال الاوكسجين من الرئتين إلى الدم وانتقال ثاني أوكسيد الكاربون من الدم إلى الرئة، الادوات التي بها يتأدى الأوكسجين إلى الخلايا والأدوات التي تُعيد ثاني اوكسيد الكاربون من الخلايا إلى الرئة.

التنفس الداخلي يتم عبر الأوكسجين وانتاج ثاني أوكسيد الكاربون، من قبل الخلايا ويسمّى غالباً التنفس الخلوي. التنفس الداخلي تتولى شرحه كتب الكيمياء

١- فسلجة الإنسان: ٢٩١، القسم التاسع.

ونحن هنا نعرض عن ذكره.

التنفس الخارجي، يتم بحثه تحت مظلة العناوين أدناه:

١ ـ الحركات التنفسية.

٢ ـ التحكّم بالتنفس.

٣ ـ كيمياء التنفس.

الحركات التنفسية: ثمة في التنفس حركتان أساسيتان هما عبارة عن: الشهيق يتم به ادخال الهواء إلى الرئتين وفعل الزفير الذي يتم به دفع الهواء من الرئتين إلى الخارج. فعل الشهيق، يبتدئ بانقباض الحاجز الصدري (ديافركم) والعضلات الخارجية بين الجوانح، يتم هذا الانقباض من خلال الأمواج العصبية للجهاز العصبي المركزي والتي يتم نقلها عبر أعصاب (فرنيك) إلى الحاجز الصدري وعبر الأعصاب بين الجوانحية إلى العضلات الجوانحية.

يتسبّب انقباض الحاجز الصدري في حركة هذه العضلة إلى أسفل، وذلك ما يمدّد القفص الصدري من أعلا إلى الأسفل.

العضلات البطنية ترتخي تدريجياً بنزول الحاجز الصدري. يرفع انقباض العضلات بين الجوانحية، الجوانح إلى أعلى وبالتزامن يعيطها قليلاً من الدوران وبذلك تدفع إلى الأمام عظم الصدر، ينتج عن ذلك ان يزداد حجم القفص الصدري من الطرفين كما من الأمام إلى الخلف.

ازدياد حجم القفص الصدري يحدث انخفاضاً في الضغط داخل هذه المحفظة، بحيث ينقص الضغط في الرئتين عن الضغط الجوّي فيتدفق الهواء بشدة إلى داخل الرئتين، يستمر تدفّق الهواء إلى داخل الرئتين حدّ أن يتساوى الضغطان الرئوي والجوي.

استمرار تيار الهواء نحو الرئتين يرتبط باختلاف الضغط الجوّي وضغط الهواء داخل الحبيبات كما له ارتباط أيضاً بمقاومة المجاري الهوائية مقابل تيار الهواء أكبر مقاومة يواجهها تيار الهواء، هي في الأنف!!

الزفير في التنفس الوادع، عمل غير فاعل (باسيو) أي كنتيجة لانتهاء انقباض عضلات الشهيق والعودة الارتجاعية للرئتين الممتدتين تدريجياً يقل حجم القفص الصدري، في العودة إلى حجم الاستراحة. الانقباض وبالتزامن يدفع عضلات الأحشاء البطنية ويعين على ارتفاع الحاجز الصدري مما يتم مع انتهاء الانقباض.

يفوق الضغط الرئوي أثر هذه الأعمال على الضغط الجوّي، بما أنّ الرئتين على ارتباط مباشر بمحيط الخارج، لذا تفرغ الرئتان الهواء إلى أن يتساوى مرة أخرى ضغطا الرئة والجو وبذلك تكتمل عملية الزفير، أما الزفير العميق فهو بحاجة إلى انقباض قوي للعضلات التنفسية.

إثر الحركات التنفسية العادية، يتجدّد قسم من الهواء الحال في الرئتين مع كل شهيق ويخرج الهواء المتبقّي مع كل زفير، اذن يكون الهواء الذي تحويه الحبيبات طازجاً نسبياً. «ايها القراء الأعزاء لاحظوا أنه لأجل نفس واحد والذي لا نعدّه شيءً، أي افعال عجيبة وغريبة ومراحل مدهشة تتم؟ حقاً، أيُّ إنسان يقدر على أداء شكر نفس واحد؟

انقباض العضلات التنفسية حين الشهيق، يوفّقها من توسيع الصدر وهذا ما يسبّب تدفّق الهواء إلى داخل الرئتين.

حين ترتخي عضلات الشهيق ويستعيد القفص الصدري حجم استراحة، ينجّه الهواء نحو الخارج، يرتبط تيار الهواء باختلاف ضغطي الجو والصدر.

ثمة ناحيتان في الصدر تحدث فيها تغيّرات الضغط، أحداهما الفضاء داخل

الجنبي والأخرى في الرئتين، سيساعد الفهم الأفضل لتغيرات الضغط هذه في إدراك كيفية تحرك الهواء نحو الرئتين داخلاً والعكس.

الضغط داخل الجنبي، الضغط الذي بين طبقتي الجنب أو بين جدران القفص الصدري والرئة، الضغط داخل الجنبي في التنفس الاعتيادي أقل دائماً من ضغط الجو، إذ القفص الصدري أكبر من الرئتين التين لأجل ميزتهما الارتجاعية، ينزعان إلى التناوم على بعضهما. إن هذه العودة الارتجاعية للرئة تسجد باستمرار جدران القفص الصدري، تدريجياً ومع ازدياد حجم القفص الصدري في الشهيق، يصبح الضغط داخل الجنبي سلبياً أكثر، إذ يكثر ابتعاد جدار الصدر عن الرئتين، لكن على الرئتين متابعة حركة جدران الصدر وهي نحو الخارج واذن تتسعان، الضغط داخل الجنبي تدريجياً ومع اخلاء الرئتين بالهواء، تقل سلبيته.

الناحية الثانية التي تشهد تغيرات الضغط، المجاري الهوائية وحبيبات الرئتين، هذا الضغط يدعى الضغط داخل ريوي، حينما ليس ثمة أي تيار هواء إلى أو من الرئة، فالضغط في الحبيبات يعادل ضغط الجو.

حين الشهيق، حيث الضغط داخل الرئة أثر اتساع الرئتين تبعاً لاتساع حجم القفص الصدري، يقلّ عن ضغط الجو ويُضحّ الهواء في الرئتين حدّ التعادل من جديد بين ضغطي الرئة والجو، تدريجياً ومع تقلّص حجم القفص الصدري إثر انقباض عضلات الشهيق، وتتناوم الرئتان الارتجاعيّتان على بعضهما، يزداد الضغط داخل الرئة من ضغط الجو، فيتدفق تيار الهواء نحو الخارج إلى أن يعادل الضغط داخل الرئة، ضغط الجو، من جديد، وهنا تكتمل دورة تنفسية.

العامل الكبير ذو الاهمية في امتلاء الرئتين هواءً، هو الجذب السطحي، كلٌ سطحين رطبين يلتصقان ببعضهما بشدة بسبب الجذب السطحي، يتسبب الجذب

السطحي في أن لا ينفصل عن بعضهما غشاءا الجنب (الغشاء الذي يغطي الرئة والغشاء الذي يفترش القفص الصدري).

حين اتساع القفص الصدري ترغم الرئتان على التوسع، أي انّ الرئتين ينبغي أن يتابعا حركات القفص الصدري.

كما أنّ الجذب السطحي يصدق أيضاً في السطوح المرطوبة داخل الرئتين فيساعد هذه السطوح على الالتصاق ببعضها وتحديد اتساع الحبيّبات.

بهذا الجذب يمانع تأثير مادة ليبوبروتينية وتدعى «سرفكنت» او مخفضة الضغط السطحي، وتقلّل الجذب السطحي بين السطوح الرطبة للأنسجة الرئوية وتُسّهل بذلك نسبياً عملية اتّساع الحبيبات.

الهدف الغائي لجهاز التنفس، هو ايصال الهواء الطازج إلى الحبيبات لأجل نقل الاوكسجين الذي فيه إلى الدم، هذا من ناحية واخراج الهواء المستهلك، من ناحية أُخرى. تبادل الهواء في مستوى الحبيبات، يدعى التهوية «الآلوئولية» وطبعاً ليس كل الهواء الذي يلج المجاري التنفسية يبلغ الحبيبات وقسم كبير منه إنّما يملأ المجاري التنفسية التي كوّنت لنقل الهواء وليس لتبادل الغازات بين الهواء والدم.

ثمة ضرورة إلى تناغم تام لانجاز فعل قبض العضلات التنفسية في الزمان المناسب وبما يتناسب مع متغيّرات احتياجات البدن إلى الاوكسجين يتحتّم مركز تنفسي لكي ينسّق بين أداء العضلات التنفسية وهكذا مركز يشمل الأقسام الشهيقية والزفيرية، قد تموضع في بصيلة المخ الغامقة، المركز التنفسي بإمكانه أن يتأثر حسب الأمواج العصبية لمختلف مكوّنات الجهاز العصبي والأمواج العصبية الصادرة عن أي نقاط البدن كما بالتركيبة الكيميائية ودرجة حرارة الدم المار، بعبارة أخرى، يتم التحكم في التنفس من خلال العوامل العصبية كما وعبر العوامل الكيميائية.

يمكن لحاظ التحكم العصبي بالنفس كعامل تنظيمي؛ إذ انّه يمكن جهاز التنفس من توفير متطلبات البدن المتغيرة، هذا من جهة ومن ناحية أخرى يمكن اعتبار التنظيم الكيمياوي كقاعدة أساسية أيضاً؛ إذ هو يفرض على الشخص، مع ما قد يبذله من جهد إرادياً في تنظيم للامساك بالتنفس، أن يديم التنفس وهذا مايستمر بالنفس متواصلاً حتى حينما ينخفض النشاط التنظيمي العصبي إلى أدنا مستواه، مثلاً حين النوم.

كان أخصائي الفسلجة ولفترة طويلة يتصورون، ان ثمة مركزاً تنفسياً في بصيلة المخ الغامق هو المسؤول عن ارسال منتظم للأمواج العصبية عبر أعصاب حركة في العضلات التنفسية وهو مركز االتحكم بالتنفس.

إننا نعلم اليوم ان ثمة مراكز هامة أخرى على ارتباط بالمركز التنفسي ليصل المخ الغامق ضرورية أيضاً للتنفس الطبيعي.

حالياً يسلّم الجميع انّ ثمة ثلاثة مراكز أساسية ينبغي توافقها وتعاونها لتتسق عمليات انقباض وانبساط العضلات التنفسية واذن يتوفر للبدن تجديد هواء طازج ودفع ماتبقى من هواء في الرئتين.

المراكز المشار إليها عبارة عن:

١ـ مركز يصل المخ الغامق الذي بامكانه تمشية الحركات الشهيقية الزفيرية بانتظام وتوالي وان لم تحكِ هذه الحركات، ما يُدعى لدينا حركات طبيعية.

٢ـ مركز آبنوشيك وهو في الجسر الدماغي وفي حال لم يتأثر بسائر المراكز الأخرى، فهو يسبّب «اسپاسم» شهيقي دائم أو آبنوز.

٣ـ مركز بنوموتاكسيك وهو أيضاً متموضع في الجسر الدماغي ويعمل بمعية أعصاب معنّية على قطع مرتّب للأمواج العصبية الصادرة من مركز آبنوستيك.

الأعصاب المعينة المشار إليها، ذات دور كبير في عملية التنفس، وذلك أن أمواج المركز العصبية المنتجة في الرئتين يتم نقلها عبر هذه الأعصاب إلى المركز التنفسي

في بصيل الدماغ القاتم.

الغشاء المخاطي الذي يفترش المجاري التنفسية، يحتوى على امكانيات استلام حساسة بالنسبة إلى المواد المحركة، فمادة محركة كالفلفل تحدث عطاساً في الأنف. وقوع قطعة من خبز في الحنجرة تتسبب في حملة سُعال، ردات الفعل التي تنتج عن تحريك مخاط المجاري التنفسية هي من النوع الحفاظي وتهدف إلى طرد الجسم المحرك عن البدن.

عمليات التنفس الميكانيكية التي تنظم كيفية حركة الهواء إلى داخل الرئتين وبالعكس، كما والتحكم بحركة عضلات التنفس الذي ينجزه الجهاز العصبي المركزي من خلال الردّات التي تبتدئ في متحسسات الضغط والمتحسسات الكيمياوية، يمكن تلخيصها كالتالي:

مركز التنفس في بصيل المخ الغامق، يرسل الأمواج العصبية عبر أعصاب الحركة إلى العضلات بين جوانحيه والحاجز الصدري، يتأثر حجم إفراغ مركز يصل المخ الغامق بالمركزين المجاورين في الجسر الدماغي ويُدعى أحدهما مركز آبنوستيك والآخر مركز بنوموتاكسيك كما وكما وتؤثر في ذلك المتحسسات الواقعة في الرئتين وأيضاً المتحسسات الكيمياوية التي في بصيل المخ الغامق والأجسام.

تتغيّر أمواج المركز العصبية وفق ما ترسله هذه المتحسسات، التي على أساسها تنظم دفعات وقوّة التنفس حسب ما يُمليه تعير احتياجات البدن إلى الأوكسجين ولدفع ثاني أوكسيد الكاربون.

تتعاون مختلف المنظّمات مع مختلف المتحكمات بنسبة الاوكسجين وثاني أوكسيد الكاربون في الدم والأنسجة، تتعاون مع بعضها حفاظاً على النسب اللازمة لهذه الغازات في البدن.

أيها القراء الأعزاء! كان هذا جانب شديد الاختصار عن الجهاز التنفسي العظيم الذي أولاه الله الرحيم، الإنسان وانّ أدنى اختلال في هذا الجهاز يسبب غاية الشدة للإنسان.

أليس يجب لكل نفس شكر؟ أو كما قال الإمام الصادق عليه السلام:

وفي كل نفس من أنفاسك شكر لازم بل ألف أو أكثر لكن مسألة نعمة الهواء، الذي يحتاجه جهاز التنفس، فهي حقيقة بالوقوف عليها يغمر الإنسان، عجباً ودهشة ولو كان ذا إنصاف، لاستعدّ وبكمال العشق أن يعفر وجه المذلّة بتراب العبادة وبكل كيانه، أمام عظمة خالق العالم.

نعمة الهواء:

إن الهواء بما له من دور ضروري في حياة الإنسان والكائنات، فهو من النعم الإلهية العظيمة جداً.

الذين شكروا هذه النعمة وسائر النعم، هم أولئك الذين يحيون متوافقين مع طلبات الحبيب. الطغاة والعصاة، هم مغتصبون حسب القرآن الكريم وإنّ مصيرهم المحتوم هو خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

تعريفاً بالهواء وارتباطه بالمحيطات ووضع الكرة الأرضية ودوره في حياة الكائنات الحية، طرح العلماء مسائل هامة من اللازم والواجب الاطلاع عليها للتعرف على النعم الإلهية، تطرّقاً إلى أداء شكرها.

مؤلف كتاب سر خلقة الإنسان، أكثر تحقيقات ومسائل كتابه، تتطابق مع الآيات القرآنية وبعض خطب «**نهج البلاغة**» ويتصور المرء لدى قراءة كتابه أن هذا العالم الأجنبي إلمام تام بالقرآن و «**نهج البلاغة**» وبعض الروايات[1]، يورد في حديثه بشأن الهواء:

١- الحقائق بشأن الطبيعة وخلقة الإنسان، التي اكتشفت بجهود العلماء، تجدها جاهزة قرآنياً وفي الروايات الإسلامية، وان ذلك يدلل إعجاز القرآن وحقانية الدين الإسلامي المبين.

لو فرضنا أنّ حرارة الأرض لدى انفصالها عن الشمس كانت تعادل حرارة الشمس نفسها أي أثني عشر ألف درجة، إذن قد كانت جميع العناصر الأرضية في حالة الخلوص ولم يكن عليها أيّ تراكيب كيمياوية ملحوظة.

تدريجياً ومع تبرّد الأرض و قطعاتها المتناثرة، ابتدأ امتزاج العناصر وكانت النواة المركزية الأرضية التي نعرفها اليوم.

لم يكن ممكناً للأوكسجين والهيدروجين أن يمتزجا ببعضهما، إلى أن بلغت حرارة الأرض أربعة آلاف درجة فارنهايت عندئذٍ امتزج هذان العنصران وبسرعة لينتجا بذلك ماء.

ما نعرفه اليوم تحقيقاً أن في هذه الفترة من تكوين الأرض ينبغي أن الهواء المحيط بها وجوّها كان غليظاً ثقيلاً إلى الغاية.

كل البحار كانت في السماء وكل العناصر التي تركبت مع بعضها كانت متناثرة في الجو.

الماء كان قد توفّر في الهواء، خارج سطح الأرض، فانساب نحو الأرض.

لكن حيث انّ الهواء المحيط بالأرض كانت درجة حرارته أكبر بكثير من هواء عدة آلاف كيلومتراً أعلى من سطح الأرض، لا محالة كان الماء يتبخر بمجرد اقترابه من دون أن يصل سطح الأرض منه شيء، تدريجياً إذ برد جوّ الأرض أكثر، كان البحر المعلّق في الهواء ينحدر نحو الأرض [1] والسيول آنئذٍ كانت خارج نطاق تصورّنا و افتراحنانا، كانت الأرض ولملايين السنين تعجُّ بالتقلّبات الجوية والطوفانات العظيمة وفي خضمّ هذا البعث العجيب كان غاز الاوكسجين يتركّب مع مواد أُخرى كانت تكوّن قشر الأرض الخارجي ومن ذلك يتمزج بغاز الهيدروجين الأرضي فيكوّن البحار.

١- ﷺ الآيات ١٤ إلى ١٦ من سورة النبأ والخطبة الأولى من «نهج البلاغة».

لا شك أنّ مقادير عظيمة من غاز الهيدروجين قد تفلّتت من تأثير الجاذبة الأرضية فيما قبل التبرّد وخرج عن نطاق جوّها وإلا فكان حجم الماء في كرتنا يبلغ حدّ من الكثرة بحيث يستوعب كل سطح الأرض وإلى ارتفاع الكيلومترات. ثمة احتمال انّ في حدود المليار عاماً سابقاً، هَدأتْ تقلّبات وسيول الأرض ونتيجة ذلك أن حدث الوضع الحالي من يابسة صلبة وبحار وجوّ.

تركيب العناصر وتمازجها قد تمّ بنحو من الكمال بحيث أنّ ما تبقّى منها، أي الهواء يشمل الأوكجسين والنيتروجين ـ لا يمثّل سوى الواحد من المليون ونصف المليون من مجموع وزن الأرض.

لكن لماذا لم يتم جذب كل هذه الغازات ولم تخرج عن محيط الأرض؟ أو لماذا لم تكن نسبة مقاديرها أكثر بكثير ممّا عليه الآن؟ إذ في كل من الحالتين أعلاه، كانت تتعذّر الحياة الإنسانية وحتى لو فرضنا حدوث الحياة تحت وطأة مثل ذلك الضغط لم يكن الإنسان ليتكون بشكله وهيئته الحالية، إنّنا لا نسترسل أكثر في هذا الخصوص، انّها تُلفت إلى نكتة انّ هذا التبدّل لمواقع العوامل الطبيعية هذا، ينطوي على غاية الدقة واللطافة. مثلاً لو كانت قشرة الكرة الأرضية الخارجي أسمك مما عليه الآن، بعشرة أقدام، لم يكن الاوكسجين أي المادة الأساسية للحياة، ليحدث أو لو كانت البحار أعمق بعدة أقدام مما عليه الآن من عمق، كان كل أوكسجين ونيتروجين الأرض يتم جذبه ولم يُعدْ أي مجال لحياة نباتية أو حيوانية فوق التربة. من المحتمل بقوة، ان قشر الأرض وماء البحار كان يجتذب كل الأوكسجين وكان على الإنسان لنموّه وترعرعه ان يجلس بانتظار نمو النباتات يكتسب منها ما يحتاجه من أوكسجين.

تفيد الحسابات الدقيقة في هذا الشأن انّ الأوكسجين للتنفس الإنساني قد يستحصل من عدة موارد، لكن النكتة الهامة انّ مقدار هذا الأوكسجين مائل في الهواء

بمقدار حاجتنا، لو كان الهواء المحيط بالأرض أرق قليلاً مما هو الآن عندئذٍ كانت الاجرام السماوية والشهب الثاقبة التي تصطدم به يومياً بأعداد مليونية وتنفجر وتتلاشى في فضاء الخارج ذاك، كانت ستصل سطح الأرض على الدوام مصيبة كل نقطة منها.

سرعة حركة هذه الاجرام الفلكية من ستة إلى أربعين ميلاً في الثانية وحيثما أصابت تحدث انفجاراً وحريقاً.

لو قلّت سرعة حركة هذه الاجرام عما هي عليه، مثلاً لو ساوت سرعة طلقة البندقية لكانت تصل جميعاً إلى الأرض ومعلوم كم كان ينتج منها من دمار، من ذلك أنها لو كانت ـ أصغرها ـ لتصطدم بإنسان فإنها كانت ستشظيّ الإنسان وأشلاءه لما لها من حرارة وسرعة تفوق سرعة الاطلاقة تسعين مرة.

غلظة هواء جوّ الأرض في حدّ تسمح بعبور الأشعة الكونية نحو الأرض، بمقدار ما تستلزمه حاجة ونمو النباتات وتقدم كل الجرائيم الضارّة في الفضاء ذاته، مستحدثة الفيتامينات النافعة. مع كل الأبخرة المختلفة التي تصاعدت خلال القرون المديدة عن أعماق الأرض وانتشرت في الأرض وأغلب ذلك غازات سامّة، لكن هواء جوّ الأرض لا يتلوّث وبقي على الدوام في حالة تعادل وبالتكيّف مع ما يتطلبه استمرار الحياة الإنسانية.

الجهاز العظيم الذي يحدث هذه الموازنة العجيبة ويحافظ على التعادل هو البحر والمحيطات والتي تنبع من عطائها المواد الحياتية والغذائية والمطر واعتدال الهواء والنباتات وختاماً الإنسان [1].

أيها القراء الأعزاء ! انّ قضية تشكّل الهواء، تعادل الهواء، نفع الهواء، وعظمة هذه النعمة و موقعها في حياة الكائنات الحية و الجمادات ايضاً، قد لاحظتموه، وعرفتم أيّ

١- انظر الآية ٣٠ من سورة الأنبياء والآيتين ١٤ و٦١ من سورة النحل.

عوامل مختلفة أدّت وبإرادة الله تعالى، خلال مليارات السنين أن يحدث الهواء ولمستم حقيقة أن لأجل نفس واحد لنا ثمة مليارات النعم مما يكون الخلفية، اذن من كل هذه الحقائق نصل إلى مقال الإمام الصادق عليه السلام: «**في كل نفس من أنفاسِك شكر لازم بل ألف أو أكثر**» لكن أين الإنسانِ الذي يقتدر على أداء شكر نفس، إنّنا إذ لا نستطيع أداء شكر نفس واحد، تعالوا على الأقل لنمتنع عن استهلاك النفس في سبيل مخالفة المولى تعالى ونتوب عن ماضي ذنوبنا بكل حجل واستحياء.

إنّي الفقير المضطرب والمعتذر بمحضر الحبيب الحق، نظمت تائباً:

أغثني فقد انتهى أمري ... قد كسر الذنب يا حبيب ظهري

لا تعرض عني بوجه رحمتك ... لا ترضَ بذل ودناءة عبدك أكثر من هذا

صُبّ في فمي من شراب عشقك ... كي أسكر إلى الأبد من حرارته

كل قلب نزع إلى زقاقك ... تحرّر من قيد العالم ومن غلّ الأنا

الدنيا بدونك سجن كل شهم ... ليهنأ للعبد جلوسه في زقاقك

يا حبّذا الانقطاع عن العالمين كليهما ... أحلا من ذلك قلت اتصل بك

كل ما هو بمعزل من رحمتك ... فإنّه بائس مولول معدم

أمل قلب المسكين مقصدي ... أسكرني من عشقك

القرآن ومسألة الشكر:

يشير القرآن في آيات عظمته إلى مسألة الشكر، مصرحاً في مسائل عدة بملامحه. في بعض الآيات، بلغت إلى وجوب الشكر وانّ على من توفّر على النعمة شكر المنعم، بيد أن الإسلام لا يرى انّ اشكر النعمة، التلفظ بـ «**الحمد لله**»، الحمد لله لفظ الشكر،

بل أهم مراحل الشكر هو العمل وذلك ببذل النعمة في السبيل الإلهي.

تشير إلى ذلك بعض الآيات، بأنّ أحد طلبات الأنبياء والأولياء الهامّة، كانت ان يوفّقهم الله بفضله إلى شكره تعالى.

بعض الآيات تدلّل حقيقة أن الشكر كثير النفع للشاكر ومدعاة لرضا الخالق تعالى عن عبده كما وزيادة النعمة.

تشير بعض الآيات إلى هذه النعم، مبدية شديد العتاب للأكثر لأجل غفلتهم عن شكر النعمة، ينبغي هنا إيراد نموذج قرآني، لمفردات تلك الموارد:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[١].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٣].

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٤].

﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٥].

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٦].

١- لقمان ٣١: ١٢.

٢- البقرة ٢: ١٥٢.

٣- البقرة ٢: ١٧٢.

٤- النحل ١٦: ١١٤.

٥- العنكبوت ٢٩: ١٧.

٦- سبأ ٣٤: ١٥.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١].

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٤].

﴿نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾[٥].

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾[٦].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٧].

﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٨].

١- سبأ ٣٤: ١٣.

٢- النمل ٢٧: ١٩.

٣- الأحقاف ٤٦: ١٥.

٤- النمل ٢٧: ٤٠.

٥- القمر ٥٤: ٣٥.

٦- لقمان ٣١: ١٢.

٧- إبراهيم ١٤: ٧.

٨- المائدة ٥: ٦.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَاتَشْكُرُونَ﴾[١].

﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[٤].

يشير القرآن الكريم إلى أنحاء النعم المادية والمعنوية التي قد أولاها المولى الحق للإنسان بفضله تعالى ورحمته، مرشداً الإنسان إلى سبيل استهلاكها، متماً الحجة في ذلك على الناس.

يمقتضى حكم العقل وقراره فإن على الإنسان المبادرة إلى أوامر شكر النعم الإلهية وبذل النعم فيما وافق إرادة الحق المتعال، مجتنباً أي تخلّف وعصيان، تجاه النعم الربوبية ويعلم كما تقرر ذلك آيات القرآن، أنّه إن أذى شكر النعم الإلهية، فستزداد وتثبت وتدوم وان كفر النعمة فستزول عنه كما سيعاقب بشدة.

١- الأعراف ٧: ١٠.

٢- النحل ١٦: ١٤.

٣- النحل ١٦: ٧٨.

٤- البقرة ٢ :٢٤٣.

«وَأَدْنَى الشُّكْرِ رُؤيَةُ النِّعْمَةِ مِنَ اللّهِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يَتَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِها دُونَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ»

أدنى مراحل الشكر:

أدنى وأوّل مراحل الشكر أن تعلم أن جميع النعم سواء المادية والمعنوية، فهي مباشرة من الله تعالى ولا يتعلق قلبك وينصرف إلى عدا هذه الحقيقة بشيء.

يقول القرآن المجيد بشأن تمامية وكمال النعم الإلهية على الإنسان، في سورة لقمان.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1].

القرآن الكريم إضافة إلى أنه يقرر تمامية وكمال النعم المادية المعنوية بشأن الإنسان، فإنه وفي كثير من الآيات ينبّه غلى أن جميع هذه النعم هي من الله تعالى ولم يشركه أحد في صنع النعمة وتقديمها إلى الإنسان.

يُعير القرآن الإنسان وما أوتي من نعم في عالم الخلقة، موقعاً رفيعاً، مُعلياً إياه بلحاظ القابلية ما بالقوّة على كثير من الكائنات الغيبية والشهودية. الإنسان ضيف الله، المعزّز في منزل الخليقة وباقي كائنات العالم فأنهم وفق تعبير القرآن الكريم، في خدمة الإنسان، حول مائدة العالم.

تموقع الإنسان بين الله تعالى وجميع النعم، لا يتقدّمه شيء ومهمّته وواجبه ومسؤوليته الثقيلة في أن يحتوي على النعمة وفق الأمر ويبلغ بذاته بتملية نفسه بالنعم

١- لقمان ٣١: ٢٠.

والتي تتحول في كيانه إلى الاقتدار، إلى مقام قرب الحبيب الحق المتعال.

كل النعم الإلهية في السبيل إلى الكمال، ولكن لأجل نيل الكمال ينبغي تمريرها من معبر وجود الإنسان، إذن فكل النعم تنتظر أن يحتوي الإنسان عليها والله سبحانه يتوقّع من الإنسان أن يبلغ بنفسه بعد استهلاك هذه النعم، إليه تعالى.

في الحقيقة ينبغي أن تعود النعم إلى الله تعالى ولا سبيل لها إلا التوسّل بالإنسان وصولاً من خلاله إلى الله.

الويل لمن يغفل عن هذا الأمر، لا يرى النعمة من الله ويستهلكها ثم يُسيِّرها في مدار الذنب، عندئذٍ يمنع النعم عن نيل الكمال ويخون. في الحقيقة ففي جميع النعم المستهلكة خيانة تِندّ عن استيعاب المرء لها.

لو كان مصنع كيان الإنسان مستضيء بنور المعرفة، متحلّياً بحقيقة التربية، لأستفاد من الهداية الإلهية، فما يستهلك من نعمة يتأدى به إلى نتيجة إيجابية.

النعمة، في الحقيقة نور وضياء، لو أن الإنسان ذا التربية المتوجّه نحو الله، اكتسب النعمة من الطريق الشرعي، فيما أنّ الطريق الشرعي أيضاً نور في الحقيقة، فقد اكتسب النور بالنور، وإذ هكذا اكتسب النعمة واتخذ النور مساراً لدى استهلاكه النعمة، أي بذلها فيما وافق إرادة الحق تعالى، فإنّ هذا البذل عبادة في الحقيقة ونور في الذات، لا شك أنّ هكذا انساناً، ما يصدر عنه، لأجل موافقته الأمر الإلهي، فإنّ للصادر عنه مقام العلوّ وعمله عبارة عن عباداته لله وخدماته للخلق، ينزع إلى الرفعة والسير نحو منبع النور وأثر العمل فإنه يوصل نفسه إلى القبول والرضا الإلهي ويقدّم إليه ذلك الرضا في القيامة في هيئة الجنة الإلهية التي تتوفّر على نعم الخلود، إذ يدخل المرء الجنّة. فيبصر تلك النعم، فينادي فجأة: هذه النعم هي التي كانت من نصيبي في السابق، أي حين كنت في الدنيا ! نعم، حينما تتحول النعمة عبادة، تصبح العبادة قبولاً والقبول يتبدّل

جنّة وذلك ما يعبّر عنه القرآن الكريم:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِىْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوْا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِىْ رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

قضية النعم وما فيها من عجب:

قضية النعم وخاصة فيما للإنسان صلة به، من أكبر دواعي الدهشة وأعجب الحقائق.

ليس ثمة من يقدر على احصاء النعم ولا من بإمكانه استكناه حقيقة إحدى نعم الله ولا ثمة من يقدر على تأدية شكر نعمة واحدة وإن كانت مقدار خردلة!!

حينما يدقّق في النعم جميعاً، يلحظ بعين القلب مشاهدة الله فيها، بوضوح، وبيان القرآن أيضاً من النعم هو التطريق لكسب المعرفة وأداء الشكر للمولى تعالى، إذ كل ما ثمَّ فمنه تعالى ولا ثمة دار لا وجود للحبيب فيها، بتعبير «فيض» لك السكران من قدح العشق:

يا مَن فداء لعشقك إيماننا ... ويا مَن هالِكُ عفوك عصيانا

لو ربّيت إيماننا ... سيغدو العشق ختاماً إيماننا

نار خوفك ماء العيون ... من ماء الحكمة نار طغياننا

يا مَن ظهرت فينا آثار صنعك ... ويا مَن اختفيت في باطن روحنا

يا مَن أنت مبدأ ومنتهى الخلق ... يا ظاهر ويا خافي عينا

١- البقرة ٢: ٢٥.

سمع الآذان وبصر العيون في قلبنا وفي روحنا إيماننا
يا مَن جَمالك كعبة ذوي الشوق و يا من كمالك قبلة نقصاننا
عاجزون عن شكر نِعَمِك انظر عجزنا، تجاوز عن كفراننا
يا مَن منّا السوء ومنك الحُسن غطِّ الذي لنا بالذي لَكَ
ارو «الفيض» من فيضك يا جنّتنا وكوثرنا والرضوان لنا[1].

نعمة ا لحياة:

سرُّ الحياة ليس مكشوفاً لأحد ولم يستطع أحدٌ بعد أن ينال حقيقة مسألة الحياة، إلا انّ العقلاء يعلمون ثمة حياة ووجود كون؛ غير أنهم لا يعرفون حقيقة ذلك.

يقول مؤلف «سرُّ خلقة الإنسان»:

ثمة نكتة في أسرار ظهور الحياة، نكته عجز عن إدراكها العلماء واختاروا الصمت لأجل افتقادهم الدليل الموضح بهذا الخصوص. بشأن الحياة ذاتها (آثارها) قدمّت بيانات كثيرة وأدلة علمية، بيدَ أن ابتداء الحياة أو كيفية ظهورها محفوظة لدرجة بالأسرار والغرابة والنتائج الناجمة منها في حدٍّ من التفاوت والاختلاف بحيث تفوق الفهم المتعارف وبقي حتى أعلم أخصائيي علم الحياة، حيارى تجاه أسرارها.

يرى كبار العلم عياناً أثر تجاربهم واختبارات الآخرين أنّ جميع كائنات هذا العالم نشأت عن خلية أحادية مجهرية وتنمو وتتكامل تدريجياً.

فُوّض إلى خلية الحياة هذه الأولى قدرة عجيبة، لكي تتوالد وتتكاثر بسرعة لا تصدَّق وتملأ تمام سطح الأرض وجوانبه وزواياه، بالآف أنواع وأشكال الكائنات الحيّة.

١- فيض الكاشاني.

يتفق العلماء بشأن هذه الخلية الحية التي تكوّن أساس الحياة، بيد أن الخلية هذه ذاتها، عالم عجب ودنيا تحيّر العقول تنطوي على حقيقة عليها تُقام الحياة.

ذلك ما يعلو على خلقة الارض والكواكب وحتى الكون والمكان باستثناء وجود الباري الخالق كل شأنه!!

هذا الشيء الهام الذي كوّن عالم الإمكان وهو مدين له، هي ذرة متناهية في الصغر لا ترى، تدعى «**پروتوبلاسم**» أو جرثومة الحياة وهي جسم شفاف له قوّة تحرك ويتقوى من أشعة الشمس.

هذه الذرة وعبر استخدام نور الشمس، تجزّئ ثاني أوكسيد الكاربون المتوفر في الجو وتحطّم ذراته ثم تأخذ الهيدروجين من الماء لتصنع الكربوهيدرات وتكتسب عبر ذلك موادها الغذائية من أحد أغمض تركيبات العالم الكيماوية.

هذه الذرة الأحادية الخلية وهذه القطرة الشفافة التي تشبه البخار، تنمّي في داخلها المادة الأصلية للحياة بإذن ربّها تعالى، وهي قادرة على تفويض خلقة الحياة إلى جميع الكائنات الحية بهذا العالم من صغير وكبير وكل من شرفته بحلية الحياة، لائمت بيئته مع شرائط دوامه معيشته، سواء كان في عمق البحار أو في أعالي الجوّ.

قد صبّ وقولب الزمان والمحيط جميع كائنات الأرض الأحياء في صور متنوّعة ومتفاوتة، كي تنسجم مع مقتضيات الأقليم والمناخ وتتلاءم مع لون المحيط ولو فقدت خلال هذه التحولات بعض خصائصها الوجودية فهي في المقابل تتناسب وتتأنس مع بيئتها، قوة وطاقة هذه القطرة الغير ملحوظة للحياة؛ تفوق كل الأحياء التي تستنشق هواء الأرض؛ إذ علامة الحياة تتجذر في القطرة هذه ولم يكن ليوجد بدونها أي كائن حي.

الإنسان أيضاً وكسائر الحيوانات، طفل رضيع وَجَد في منبع الحياة السرمدي إكسير

الحياة وشرع يمشي في العالم وإن يضعف وضعة؛ بيد أن له رفعة على كل الكائنات الحيّة الأخرى.

بنية بدنه غاية في التعقيد والدقة ودماغه ومُخهُ جهّز بنحو يسهل اشراف عقل الكل أو ما يدعى «**الروح**»، فيه.

الحياة المليئة بالأسرار، حقيقة إلهية نفخت في هياكل جميع الكائنات وإيجادها واعطاؤها يتوقف على حريم قدس الكبرياء.

ثبت حالياً بكل القواعد العلمية أنّه مهما وافق ولاءم المحيط الحياة، فليس بالإمكان أن يُحدث ذلك حياة، كما أنه ليس يمكن إيجاد جرثومة الحياة بأي نحو من مزج وتركيب المواد الكيمياوية، قلنا سابقاً: حدث في أوّل ظهور الحياة في الكرة الأرضية حادث عجيب كان له بالغ الأثر في حياة كائنات الأرض.

اتصفت إحدى الخلايا بخاصية عجيبة وهي انّها تجزّيءُ عبر نور الشمس بعض التراكيب الكيمياوية وتوفّر بذلك، مواداً غذائية لها ولباقي الخلايا المشاكلة.

اخلاف وأحفاد احدى هذه الخلايا الابتدائية تغذوا بما انتجته أُمّهم من غذاء وكوّنوا نسل الحيوانات، بينما أخلاف خلية أخرى كانت أصبحت نباتاً، كونوا نباتات العالم وهي تغذي اليوم كل المخلوقات الأرضية.

هل يمكن تصديق أنه لمجرد الصدفة، أصبحت خلية أساس الحياة الحيوانية خلية أخرى أسّست للنباتات؟!

بتعبير «**الالهي**» ذلك العارف المهذّب:

ليس منعكساً في مرآة كون الكائنات، إلاّ هو تعالى:

أنت ترى الشمس والقمر أنا وجه الحبيب

أنت الليـل المظلـم وأنـا جَعْـد الرفيـق

أنـت تـرى الـورد وأنـا الوجـه المـورد

أنت السنبل أنا تجاعيد ذلك الشَعر المديد

أنت ترى الليل والنهار أنا الوجه والشعر

مـن نقشـه تـراءى ليـل ونهـار

لـذلك فالليـل عنـدي خيـر مـن النهـار

إذ ضـاهى ظلامـه جعـد الحبيـب

في العالم ليس غير وجه العشيق الجميل

لا أرى يظهـر لعـين القلـب[1].

النكتة الملفتة هي التعادل الدقيق للغاية والعجيب بين الحياتين الحيوانية والنباتية.

تقسّم الخلايا بين النبات والحيوان، موضوع عام وأساسي جداً لأجل الحياة وبدونه لم يكن مقدوراً أن تدوم الحياة، أي لو كانت الحياة مقصورة على الحيوانات، كان اوكسجين الأرض يستهلك تماماً ولو اقتصرت على النبات كان ثاني أوكسيد الكاربون الأرضي سينعدم، ونتيجة ذلك هو موت وفناء الطبقتين الحيّتين كليهما.

أُشير سابقاً إلى أنّ في بدء تكوّن الأرض لم يكن ثمة أوكسجين بنحو حرّ في الجو وكان اوكسجين الأرض في قشرها الخارجي وفي ماء البحار مختبئ وداخل ثاني أوكسيد الكاربون.

إذن، كل ما نستهلكه اليوم من أوكسجين فهو مما وفرّته لنا النباتات، إذ وكما نعلم فإن النباتات تستهلك ثاني أوكسيد الكاربون ويصدر عنها الأوكسجين، الأعجب من ذلك أنّ في العالمين الحيواني والنباتي ظهر منذ ابتداء الحياة، الجنسان الذكر والأنثى:

١- إلهي القمشه اي.

﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِكُمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

كي بذلك تتوالد وتستمر كل طبقة من الكائنات، وفق خصائصها وسننها.

يبدو أن مجاميع الخلايا لو تموقعت بالقرب من بعضها، يمكنها العيش أفضل، ولذا تم تخالطها وتمازجها بعضها ببعض في فئات ثنائية، رباعية، مئوية، ألفية وختاماً في فئات عدة مليونية.

كان لكل خلية واردة، مهمة ودور وما أن ابتدأ الآحاد ممارسة مهامهم، قامت فئات الخلايا أيضاً بمزوالة تلك المهام ذاتها.

كان بعض هذه الخلايا قد أوكل اليها توفير الغذاء وآخرون أن يستهلكوا ذلك، البعض ينقل الغذاء من ناحية في البدن إلى أخرى، آخرون أنيطت بهم مهمة الدفاع عن الكائنات وأوكل إليهم واجب تكوين قشر الشجر وجلد بدن الإنسان، كما أوجد آخرون عظم جسم الإنسان خشب جذل الأشجار.

بعبارة أُخرى فقد نشأ كل متحرك وكائن حي على الأرض، من خلية بمفردها، وأجبرت الخلية تلك كل أعقابها وتبعاً لقوانين الخلقة، أن تنتج خلايا جديدة بذات الشكل والخصوصية والمهام الأولية.

من المسائل جدّ عجيبة انّ الخلايا ملزمة بمناغمة شكلها وهيئتها وحتى طبيعتها الأصلية مع مقتضيات البيئة وما تعيشه من حاجات وهي جزء منه.. كل خلية تحدث في بدن الكائنات الحية، عليها إعداد نفسا لتصبح حيناً لحماً أو جلداً أو تتكون منها الأسنان أو دمع العين أو الأنف أو شحمة الأذن.

على أي حال فكل خلية مكلَّفة أن تتشكل وتتكيّف بالنحو الذي ينسجم مع مهامها[2].

١- يس ٣٦: ٣٦.

٢- راجعوا الآية ١٤ من سورة المؤمنون وهي من عجائب آيات القرآن الكريم.

للخلايا بشكل عام قابلية الانعطاف والتلوّن وفق المحيط، لذا ففي أي نقاط البدن حلّت مثلاً في الأذن السرى أو اليمنى، تتكيف تماماً بالهيئة الذاتية لذلك العضو وبما أن آذاننا في جانب إلى اليمين وفي آخر إلى اليسار، خلايا الأذنين تتشاكل تماماً ولا تتخالف إطلاقاً.

تفصيل حكاية الحياة، لا يتسع لها آلاف الكتب في خصوص مسألة خلقة الإنسان ـ لوحدها ـ وخلايا بدنه وما للخلايا من مهام وتناغم جميع نواحي الكون مع بعضها، قد ألّفت آلاف الكتب وهي تعجز عن بيان أحد جوانب وجود الإنسان، يقول القرآن الكريم:

﴿هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ الْبَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

إن شرح وتوضيح هذه الآية بحاجة إلى آلاف الصفحات، وليس من قبل فرد واحد، بل يتحتم اشتغال مجاميع مختلفة من العلماء في قضية الخالقية والبارئة والمصوّرية، لكي يصلوا إلى المعالم الظاهرية للآية، نعمة الحياة من أعظم النعم الإلهية وأسرارها ورموزها كثيرة للغاية، كلّما هنالك أنّنا بما لدينا من معرفة إجمالية، علينا المبادرة إلى الشكر وشكر ذلك بأنْ نبذل الحياة لنفس واهبها.

جانب آخر من نعمة الحياة:

يقول «كارليل» في كتابه القيّم «الإنسان ذلك المجهول» بشأن جهلنا بهذه النعمة العظمى، المقرونة بآلاف المسائل التي تحير العقول:

معلوم انّ البشرية بذلت جهداً كثيراً للتعرف على نفسها؛ لكن ومع أننا اليوم نرث

١- الحشر ٥٩: ٢٤.

كنوزاً من دراسات العلماء والفلاسفة والعرفاء والشعراء، ليس في متناوَلنا بعد سوى معلومات ناقصة بشأن الإنسان وهي أيضاً وليدة أساليب تحقيقنا ولا تزال حقيقة وجودنا مجهولة وسط مجموعة أشباح من إنتاجنا نحن.

في الحقيقة، إنِ جهلنا بأنفسنا كبير وثمة نواحي كثيرة من دنيا باطننا، ما زالت غير مكشوفة وان أكثر الأسئلة التي يوجهها دارسو حياة الإنسان تبقى من دون إجابة.

كيف تنال جزئيات الأجسام الكيمياوية في البنية المعقدة الموقّتة الخلوية نصيبَها وقديم حياتها؟

كيف تظهر وتعيّن الجينات التي في نواة الخلايا الجنسية الخصائص الوراثية؟

كيف للخلايا بما لها من تكتلات ان تستحدث الاشكال النسيجية والعضوية؟

يبدو أن هذه أيضاً وكالنحلة والنملة، تعلم مسبقاً بما لها من مهمة في المجتمع؛ لكنّنا لا نعرف الطرق التي تتخذها لإحداث بدن معقّد وسهل في ذات الوقت.

ما الماهية الحقيقة للعمر البشري، أي الزمان النفسي والزمان الفسيولوجي؟

وإن كنا نعلم إنّأ تركيبة من الأنسجة والأعضاء والهرمونات والنفس العاقلة، بيد أنّ كيفية علاقات الأعمال النفسية بخلايا المخ فمما يخفى علينا وإنّنا لا اطلاع لنا حتى على فسلجة خلايا المخ.

في أي نطاق للإرادة أن تؤثر في تغيير الوضع الماثل؟ كيف تؤثر حالة الأعضاء معنوياً؟ كيف للخصائص العضوية والنفسية التي يرثها كل شخص عن أبويه أن تتغير بتغير المواد الكيمياوية للأغذية والمناخ ومبادئ الفسلجة والأخلاقية؟

إننا لا نزال نجهل العلاقات بين نمو العظام والعضلات والأعضاء وبين الفعالية النفسية والمعنوية لنا، كما أننا لا نعرف عامل تعادل بين الجهاز العصبي والممانعة مقابل الأمراض والتعب.

إلى أي مدى الأهمية النسبية لفعالياتنا الفكرية والأخلاقية والجمالية والعرفانية؟ أي شكل خاص طاقي يتسبب في «التله باتي»؟ لا شك أنّ ثمة بعض العوامل البدنية والنفسية التي يعود إليها بؤس وسعادة أي أحد؛ لكنها مجهولة لدينا.

واضح تماماً أنّ مساعي جميع العلوم التي درست الإنسان، لم تتأدَّ إلى شيء ولا تزال معرفتنا بأنفسنا تعاني من نقائص كثيرة.

أيها الأعزة، هذه صفحة كوننا ووجودنا التي يعجز علماء العالم عن بيانها وشرحها، لماذا؟ لأنها دنيا فسيحة جداً، لا يطلع على جميع نواحي وجودها إلا خالقها وقد أولانا مصنع العظمة هذا مقروناً بنعم أُخرى كي نتعبد له تعالى في كل شؤون الحياة وتكون في الحقيقة هذه العبودية شكرنا تجاه تفضله تعالى.

تعالوا نندم على ما مضى من عمر ونضجَّ مولولينَ مما بذلنا في غير سبيل حضرة الحبيب من عظيم نعمة الحياة ونحتضن ليلة الغمّ ونرطّب اللسان بالمناجاة أدناه وهي حرقة قلب مشتاق كسير القلب، متمتمين:

إظلمّ وتكثف القلب من الـذنب ذيل كل مغنـى روحـي المـورد
ذهـب عنـي العمـر الثمـين حان حين الموت وأنا صفر اليدين
يومي وعامي وشهري قد تمّ لم استحصل بعمري غير الآه
أين العمـل الصـالح وإيمـاني أيـن قلبـي ذهـب روحـي أيـن
لمانا أنا أسبر لدى الشيطان والوحش لمـاذا فـاق الحـدّ ذنبـي
لماذا غدوت غريق بحر النفس ويلي وويل القلب وويل النفس
يا من لـي عـين فضـل وكـرم ظل لطفك على رأسي من الوفاء
خـالقي، حـاكمي، برفيقـي مع الأنفاس يا صديقي أنت تتحّنن عليَّ

يا ساتر عليَّ نور قلبي وروحي الفيض الذي يغمرني أنت حبيبي
يـــا ربّـــي الغفـــور الـــودود يا من بك قام الكـل فـي الكـل
يا مَن كرمُك نور مصباح الوجود تشمل مرحمتُك الغيب والشهود
إن لم تأخذ بيـدي أنـا التعـب فسينكسر ظهر وجودي بأجمعـه
يـــا ســـبيلي عشـــقي ودينـــي في العالمين كليهما حبّك منهاجي
ألق نظرة على هذا المسكين المولول كـــــي يتحسّـــــنَ دهـــــري

خلقةُ الإنسان:

تمكّنتم في السطور أعلاه من مشاهدة مجمل منظر الحياة واستنتجتم انّ مسألة الحياة، مسألة ذات ضوضاء تقصر عن فهم أسرارها أيدي كل الكائنات وبتعبير «حافظ»: كل ما هناك أنّ صوت جرس يُسمع.

هنا من اللازم، الإشارة مرة أُخرى إلى نعمة خلقة الإنسان، لحد أن يتراءى مجمل عن تفصيل كتاب وجود ا لإنسان، كي تروا أن خالقكم الرحيم، لأجل إيجادكم، أي عجلات عظمى فعّل في عالم الخلقة ويتحتّم عليكم ذكره تعالى وأداء شكر ألطافه.

نقرأ في كتاب «**أسرار عالم الخلقة**»:

بشأن خلقة الإنسان، فقد كشف تطور العلم، أسرار يتم التنويه بها، كي نطلع على مجريات كون أنفسنا ونعلم أن خلقة الإنسان وهو أحد بدائع الخلقة العظام، من فعل القدرة والإرادة والفضل وحب بارئ العالم سبحانه.

مراحل تكون ا لإنسان في رحم الأُم:

عندما ترد نطفة المرء رحم المرأة، تحدث تحولات وينتج كائن جديد، ستستغرق

مجريات تكوينه نحو إثنتي عشرة ساعة.

تتكون نطفة المرء من خلايا مدورة قطرها أقل من نقطة هندسية! النطفة، سائل مرتجف عديم اللون لو كان شفافيته أكثر، لم يكن ليرى بالعين إطلاقاً.

لأجل أن نتمكن من تصوّر نمط بنية النطفة، فلنتخيلها بقدر وحجم كرة منضدة. في مركز النطفة، ثمة نواة بحجم الحمصّة مثلاً، لونها غامق وقشرها أسمك من باقي النقاط.

تلك النواة، نقطة بادي لونها، استقرت حبة مدورة في وسطها هي عبارة عن أربعة وعشرين كروموزوم.

تشمل الكروموزومات مائة ألف مادة مولّدة تُدعى «الجين» لم يتشخص بعد عددها بشكل قطعي، وتزدوج مع بويضة المرأة وبذلك التمازج يحدث كائن يرث أبويه، شكلاً وطبعاً، ومن حيث لون العين والشعر.

في ابتداء العادة النسوية الشهرية، تنفجر إحدى الغدد (النتوءات التي تعلو مبيضات المرأة) وتخرج فيها البويضة وتنعدم باقي النتوءات وتعود المبيضات إلى حالتها الأولى.

للنساء مبيضان، يشبهان لوزتين طول إحداهما ثلاثة إلى أربعة سنتيمترات يقع المبيضان في أعلا حفرة حوض الإنسان، تنتج النسوة طوال النسنة بويضة كل ثمانية وعشرين يوماً ولا يتجاوز عدد البويضة الواحد إلا في الموارد الاستثنائية، هذه العملية غاية في الدقة وتكتمل بويضة إلى حدّ النمو كل ثمانية وعشرين يوماً وتخرج من الغدة، بين كل ثمانية وعشرين يوماً، وتماماً طبق ا لحساب تستعد بويضة وتنعدم.

ما أن تخرج البويضة من مبيض المرأة، فإنّ تلك الذرة الحية التي لا ترى بالعين لتناهي صغرها ودقتها، تحتار في فضاء الرحم لتدور حول نفسها وتتحرك وهي تدور حتى ترد في النهاية أعلا أحد خرطومي أنبوب يدعى «فالوب» الفالوب انبوبان يصل

مبيضي المرأة من الجهتين برحم المرأة.

طول كل واحد من الأنبوبين، عشرة سنتيمترات وقطره نصف سنتيمتر. في داخل الأنابيب نبت شعر دقيق مجهري وما أن تدخل البويضة أحدها يتموج ذلك الشعر وأثر ذلك التموج، تتيسر حركة البويضة نحو الخرطوم.

بما أن الخرطوم ليس مستقيماً مستوياً بل له تحدّب وإلتواء، ما إن تدخله البويضة، تحدث في جداره حالة انقباض وانكماش وتتمكن البويضة من التقدم في ذلك المسار المليء اعوجاجاً والتواءً.

من حين خروج البويضة من المبيض وتحركها وحتى تدخل خرطوم أنبوب، تمضي اثنتا عشرة ساعة وعلى أي حال فها هنا حيث تتلاقى بإذن الله نطفة الرجل وبويضة المرأة وتغدو المرأة حاملاً.

نطفة الرجل والمرأة كلاهما خلية بسيطة وعدا تشابههما ينبغي معرفة الفروق بينهما. بويضة أو نطفة المرأة تكبرُ نطفة الرجل خمسة وثلاثين أو أربعين مرة، وهي خامدة لا تتحرك بينما نطفة الرجل نشطة نبهة تتحرك بسرعة تعادل ثلاثة ميليمترات في الدقيقة الواحدة، مقابل كل نطفة نسوية ثمة مئات الملايين من نطفة الرجل.

اختبروا النطفة أو المني بالمجهر الالكتروني، هذا الجهاز يكبّر النطفة حدّ اتضاح تفاصيل وجزئيات بنيتها وشكلها ثم يعرضونها على جدار السينما، بحيث ترى بوضوع أدنا تحركاتها.

تشبه نطفة الرجل تماماً الشكل ا لأولي للضفدع، رأسها بيضوي، بدنها دقيق اسطواني وذنبها طويل.

طول الذنب يفوق النطفة ذاتها عشرة مرات وتتقدم ما دامت حيّة بحركة ملتوية مستمرة، تمتد حركة النطفة وهي سريعة نسبياً، ليومين وليس بين اعضاء بدن الإنسان

كهذه الخلايا الصغار في البساطة والنشاط.

كما ذكرنا يبلغ عدد نطفة الرجل مئات الملايين، تتقدم نحو الرحم وبمجرد ورود رأس الرحم تركض حيرى تائهة، نحو كل جانب وبقوة أكبر، لكي تجد الطريق الضيق المظلم إلى عنق الرحم، المؤدي إلى المبيض، ثم لا يمضي إلا قليل حتى تلج أنابيب الرحم وتتموج في محلّها أو تدور حول نفسها.

يتفق كثيراً، أن يتلف في حموضة الرحم كثيراً من النطف خلال ساعات، فتنعدم من الثلاثمائة مليون نطفة، نحو مئتين وتسعة وتسعين مليوناً وسبعمائة ألف ويدخل الباقون ممن سلم عنق الرحم ليتموقعوا هناك؛ بيد أن المسيرة لم تنته بعد وينبغي قطع مسافة تفوق سبعة سنتيمترات كي تتجاوز النطف أنابيب الرحم وتستقر في أحد خرطومي الفالوب.

الرحم بشكل كمثّري مقلوبة قطر أعرض أبعاده لا يتعدى الخمسة سنتيمترات، عضو صغير يتّسع أكثر حين الحمل، وسيكون مكاناً متناهياً في الكبر لسكنى النطفة الصغيرة.

في كل من الخرطومين ثمة ثقب عدسيّ الهيئة دقيق، في أحدهما بويضة المرأة، لذا تهجم نحوه حيامن الرجل وتدخل غالباً الخرطوم الآخر الخالي من البويضة، أولئك الواصلون إلى المحل المناسب، لم تنته رحلتهم بعد.

يواجهون في طريقهم موانع كثر، من ذلك المرور من جدار الأنبوب ومصادفة انقباض وانكماش جدار الأنبوب، في هذه الحالة يدور الحيمن على نفسه ويرتجف ويتقدّم، يظهر مانع آخر وهو المرور من المنعطفات وكثرة اللتواءات ونتوءات الأنبوب المخاطي ثم تتجاوز الحيامن في النهاية هذا المانع أيضاً لتصل نحو مائة منها مقصدها النهائي دون حدوث لقاح بين الحيمن وبويضة المرأة.

ثم على الحيمن تخطّي آخر سدٍّ في مسيرها وهو بقايا غدد المبيض التي تحيط بحواشي مبيض المرأة، ورتقها وتجاوزها أمر في غاية العسر بالنسبة إلى الحيمن الصغير وتضطر إلى المكوث في محلها.

هنا حيث تنّبأ الصانع الأزلي، خالق الكائنات، لرفع أي مشكلة، فقد وهب الحيمن هنا ذرة سائل يدعى «**هيالورونيدار**» خاصيته أن يؤدي إلى نعومة واسترخاء الغشاء الذي يحفظ البويضة، ثم الحيمن بعد ذلك مستعيناً بالسائل ذاك، يفتح لنفسه منفذاً في غشاء البويضة فيدخل فيها ليلج رأس الحيمن البيضوي، في البويضة الأنثوية وينقطع ذنبه، حينئذٍ تشهد بويضة المرأة تحوّلات وتغلّف وتغدو بحيث لا تؤثر فيها هجمات باقي الحيامن ولا تستطيع ولوجها في هذا السباق العام للحيامن ولا يفوز إلا أحدها.

لا يبقى في بويضة المرأة من مختلف تراكيب منيٍّ الرجل المختلطة غير سائل متقطع وذلك هو المادة النامية والنواة التي كانت في نطفة الرجل والآن تقارب نواة بويضة المرأة ثم تتكون خلية وتكون المرأة لا محالة حاملاً، تنتهي هذه المجريات المدهشة خلال اثنتي عشرة ساعة، وينتج بالقدرة الإلهية كائن ينمو ويتكامل بنحو مذهل وبسرعة تثير العجب.

بعد تكون الخلية المشار إليها، تنقسم جزءين وكل منهما ينقسم بدوره إلى جزءين فتتحصل أربعة أجزاء ويستمر هكذا تجزّؤ وانقسام الخلايا حتى يبلغ عددها المليارات خلايا لتصنيع أعضاء الجنين وتحدث في دنيا الأسرار تلك سلسلة تحولات مدهشة، ليتجلى الأمر ختاماً في كائن جديد في هيئة وسورة الإنسان.

خلال الشهر الأول: النطفة أو البذرة النامية أي تلك الذرة التي لا تنالها العين، هي في أول أشهر الحمل، كائن لا يتعدى طوله نصف السنتيمتر وخلال ثلاثين يوماً بكبر خمسين ضعفاً ويثقل ثمانية آلاف أضعافاً.

يتوفّر له تدريجياً رأس، وبدن وذنب، قلب ينبض يجري فيه الدم، وسيحصل على يدء ورجل، عين، أُذن، معدة ومخ.

تتبدى قليلاً في هذا الشهر الأعضاء التي يحتاجها الإنسان طوال عمره وبعض آخر مما سينعدم قبل الولادة، وتحصل هذه التحولات في ا لشهر الأول.

بعدما استقرت النطفة في الرحم وحصل تلاقح الحيمن بالبويض وتحمّل الرحم، فإنه يشهد انقلابات وتحولات غريبة، فتنقسم بويضة الأنثي، إلى خليتين وكل منهما وكما ذكرنا تنتظر بدورها إلى جزءين، لينتج عن ذلك أربع خلايا، وهكذا تتكثر الخلايا، حتى يتوفّر ما يكفي من خلايا لانتاج الجسم.

بينما يتم انتاج وتكثير الخلايا، تأخذ أيضاً النطفة الجنينية بالنمو ويظهر حولها غشاء من مادة مغذية تدعى «**بروفوبلاست**» تدخل المبيض فتأكل نسيجه وتستقر هناك، ثم تصنّع كيساً هو السُخد تجتذب البروفوبلاست الدم وتوصله إلى الجنين عن طريق الحلقة المتصلة بالصرّة وهو في المقابل يعيد إلى المشيمة رسوبات الدم الغذائية ويدخل من ثم دم الأم، فتدفعه كليتها!!

بعدما دخل البروفوبلاست المبيض، يتغير شكل وهيئة النطفة وتصبح تلك الخلية الصغيرة المدوّرة في صورة معقوف معلّق ذي ثقبين، في وسط الثقبين في محل تقاطع المعقوف تظهر حبّة على أسفلها، فوقها بذلك صغيران. المعقوف التحتاني مخزن خالي قد يدعى ستارة البيوض وينفصل في الشهر الثاني ويتحول المعقوف الفوقاني إلى غلاف يمتلئ بسائل يدعى «**آميوز**»، يحفظ نطفة الجنين التي بداخل الغلاف، ويستقر كل الجنين غير السُخد، داخل الغلاف، ويبقى سامجاً في سائل الآميوز، ويأمن الصدمات والضربات التي من الممكن أن تواجهها بطن الأُم.

بعد الاستقرار في الغلاف والأمن من الأخطار، فإن الجزء الحقيقي من الجنين الذي

قد تحول من النطفة إلى ما عليه الآن، يبتدئ نشاطه ونموّه وتكامله عبرها حتى يُتصور إنساناً.

من عجائب الخلقة انّ أوّل أعضاء هذا الكائن الجديد نموّاً هما القلب والمخ حيث يظهران في بساطتهما وبدائيّتهما.

من اليوم السابع عشر للحمل، تتكون أول الخلايا، فتجتمع هذه الخلايا إلى بعضها، تتصل وتلتحق ببعض، لتكوّن في محل الحبّة المذكورة، الرأس وتخاطيط القلب، وطبعاً ستحصل لاحقاً تحولات كثيرة ولا يستغرق تظاهرها زماناً طويلاً.

أثر تكرر الارتعاشات الحاصلة، تبدأ بنية القلب نتيجة لانقباضاته الموزونة المنتظمة، يدخل الدم حبة الجنين فيتحرك القلب ويستمر في عمله بانتظام حتى حين الموت.

بالتزامن مع ذلك، تتكوّن سلسلة الأعصاب، يظهر إلى جوار التِرتر أو الفلس الصغير قشر محكم جوانبه تنمو مسنّنة تتصل ببعضها ويتكوّن خلف حبة الجنين أنبوب، سيتكون لاحقاً في أحد طرفي الأنبوب، مخ الرأس وفي الطرف الآخر المخ الحرام.

في رابع أسابيع الحمل، يقوم هذا الأنبوب بوضع سلسلة الأعصاب والطرح الأولي للمخ الذي هو من أهم وأثمن أعضاء البدن الرئيسية.

بعد ذلك يتوجّه نشاط الجنين الخلاق، نحو بنية أنبوب الهضم، وسط فقرة الجنين، ويتكوّن الغلاف المعقود على الجانبين، سرعان ما ينفتح المنتهى الأمامي للغلاف، فيظهر رأس الطفل وتركيبة الفم هناك ويبقى الرطف الآخر للغلاف، معقوداً إلى فترة. بعد مضي خمسة وعشرين يوماً من الحمل، يحدث كائن صغير لا يبلغ كل طوله نصف السنتيمتراً، له رأس وذنب، ظهر وبطن؛ لكنه دون يد ورجل ورقبة وقلبه ومخّه متّصلان ببعضهما وهو في هذه التكوينة لا يشبه الإنسان، ذلك الشبه.

ثم يبتدئ جهاز الماكنة الداخلية في النمو. يحدث في الجزء الأمامي أنابيب

الهاضمة، تقعّر قليل وتنمو الرئتان، ثم يأتي دور تظاهر الكبد الذي يوجد من التورم والتحدّب الذي لدار هذا الأنبوب ذاته خلف القلب؛ بعد ذلك ترد نطفة الجنين مراحل عمليات معقدة متداخلة ثم بعد سلسلة من التحولات، تتصنع الكليتان.

تكوين وتصنيع الكليتين من المسائل المدهشة المحيّرة في الخلقة. نطفة الجنين، بدَل أن تصنّع هذا العضو دفعة، تصنع أوّلاً كلية بسيطة تشاكل كلية أحد المخلوقات الأدون كالسمكة ثم تعدمها، لتصنع كلية أخرى ككلية الوزغ وهي أكثر تكاملاً مقارنة بكلية السمكة وتعدمها هي الأخرى، وتصنع من بقايا ذلك الكليتين الأصليّتين.

هذه المجريات تشبه عمل بنية جهاز الحديث اللوكوموتيف، حيث يصنّعونه اوّلاً كالنموذج القديم وبعد الملاحظة والمتابغة والاختبار، يرفعون الأدوات القديمة ويعبئون فيه أدوات جديدة وبعد عدة مرات من اختبار تبديل وتغيير القطعات، يكملون ختاماً النموذج المستجد ولعلهم يصنعونه من فلزات أفضل وأكثر استحكاماً، يرى العلماء أن مسألة نمو وتكامل الكليتين وتجديد بنائها، هو مما يختص به الإنسان أشرف المخلوقات.

في نهاية الشهر الأول، تبلغ النطفة الجنينية حدود نصف السنتيمتر وتبدو بشكل دائرة مكتملة نسبياً تنحني وتتحدّب، وهي حينئذٍ ذات ذنب محدّد الرأس يقع تحت البطن وثمة شقوق صغار في جانبي الذنب تعتبر الطرح الأولي لليد والرجل.

حول رقبة الجنين الصغيرة، تظهر أربعة ثقوب كأذن السمكة، عند ذاك يبتدئ تكون أجزاء البدن، تظهر العينان في الرأس وتتبدّى تجاعيد هي مقدمة ظهور المخ الحرام.

في السطح الأمامي للراس، يبرز نتوء فيتراءى أنف، بقرب كل عين، تبرز الأذنان وهذه ليست تظهر الأذنين وإنّما هي أنسجة السمع الحساسة، التي ستتوفر لاحقاً على

حاسة السمع، الحاصل أن مع تقدم المجزيات أعلاه، يضاف كائن جديد إلى ميدان حياة البشر.

فترة الشهر الثاني: في ثاني اشهر الحمل، تتحول أعضاء الكائن الجديد من شكل وهيئة الوزغ إلى الإنسان؛ بيدَ أن تلك الهيئة مدوّرة محدودية الرأس، طويلة الذنب، وتوفرّها على طرح غير مهذّب لليدين والرجلين، لم تتصور بعد في صورة الإنسان، مع ذلك ففي نهاية الشهر الثاني، يتغير شكل الأعضاء بنحو أوضح، بيد أن الذنب الطويل لا زال باقياً.

في هذا الشهر، يتضاعف الجنين ستّ مرات، يبلغ طوله أربعة سنتيمترات، ويزداد وزنه خمسمائة ضعفاً، بين الجلد والأعضاء الداخلية ينمو العظم، ينمو وجهه ورقبته، ينكمش فمه تدريجياً وتنمو جبتاه بنحو أفضل، تتصل تجاعيد الأنف ببعضها ويكبر الأنف، تأتي العينان من على الرأس إلى الأمام وفي آخر اسابيع هذا الشهر تنتج جفون العين ولا يمضي شيء حتى تقترب من بعضها.

تبرز الجبهة عادة، إذن يكبر المخ ويشغل مساحة أكثر من ذي قبل، في الجمجمة، من الممكن لاحقاً وإلى أن يصل الطفل حدّ البلوغ، أن يزول بروز الجبهة ويظهر على الوجه تناسب وتعادل.

تشهد اليدان والرجلان تدريجياً تحولات عجيبة، ابتداءً تظهر نبتات التبرز شيء فشيء وترتفع ويستوى منتهاها ويتسطح وتشكّل في هيئة لوحة تلوين الرسامين، على سطحها تحصل خمسة خطوط ناتئة متوازية يفصلها عن البعض تقعرات غير ذات عمق، بعد ذلك ستنفصل وتتجزأ عن بعضها لينمو بذلك أصابع خمس وتتبدّى حفر ممتدة في سطح اليد والرجل فيتشخص محل المرفق، معصم اليد، الركبة وصابونة القدم، في خامس أسابيع الحمل، يبلغ الذنب ذروة طوله، له كذنب الحيوانات

عضلات تحريك. يتحرك، يتناقص طوله تدريجياً وينمحي حتى حين ولادة الطفل. يتناقص طول الذنب مع ابتداء نمو العظام.

تتصنع العظام اوّلاً كغضروف، وهو مادة ناعمة نصف شفافة وبعد أن يحيط بها من الجوانب اللحم، تتحول تدريجياً إلى عظام.

تستمر عملية تغير وتحوّل واستحكام العظم من حين أن الطفل في بطن أمه وحتى الولادة والنمو والبلوغ، مع سنّ البلوغ يكتمل الهيكل العظمي.

من جملة حقائق الشهر الثاني الملفتة، ظهور مسألة الجنسية، في أول هذا الشهر يتعذر تشخيص جنسية الجنين، لكن في أواخر الشهر الثاني، يتعين جهاز الجنسية ويظهر جزؤها الخارجي تدريجياً ومن عجائب الخلقة أن جهاز جنسية الذكر والأنثى متشاكل في أول التظاهر، حتى أن غدد الثدي متماثلة.

الخالق المتعال، لأجَل تكثير النوع يهب كل فرد إنساني، كلا نوعي الأعضاء الجنسية، ينمو أحدها وتبقى الأخرى راكدة، وفي النتيجة يصبح الجنين ذكراً أو أنثى دون أن يكون له تأثير في هذا الأمر.

على كل حال، تنقضي ثاني أشهر فترة الحمل وتتحول النطفة الجنينية إنساناً وبعد ذلك يدعى ذلك الكائن الجديد في الأشهر السبعة الآتية، طفلاً ويبتدئ نموه وتكامله.

حقاً ما الخبر وكم لنعمة الخلقة هذه من عجائب! يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله**» لاحظوا الآن هذه المسائل بدقة وانظروا أن ذلك لا يتم إلا بإرادة البارئ الحكيمة وهل أن شكر كل هذه النعم واجب على الإنسان، أو لا؟ وإن لم يشكر ولم يؤدّ حق النعمة فما جزاؤه؟!

ثالث أشهر الحمل: بعد انقضاء الشهر الثاني، يبتدئ في الشهر الثالث طرح عشرين سناً حليبياً وتتبيّن حفرة اللثّة لتتصلب وتستحكم تدريجياً، ثم تنمو وتتكامل الأوتار

الصوتية، وان يستغرق الأمر إلى حين ولادة الطفل ستة أشهر أخرى، ليسمع صوت بكائه، وبعد الشهر السادس تتقوى الأوتار الصوتية وتأخذ شكلها النهائي.

الأوتار الصوتية، قبل ولادة الطفل سميكة ليّنة وخلال فترة الحمل حيث الطفل في بطن أمه، لا يدخل الهواء إطلاقاً من الحنجرة إلى رئتيه، إذ كما ذكرنا سابقاً ان الجنين يسبح في سائل يدعى «آميوز» وإذا ما تنفس ستمتلئ رئتاه من ذلك السائل.

أنابيب الهضم، تبتدئ نشاطاً طفيفاً، الخلايا البزاقية لها شيء من الترشح، الكبد أيضاً يصب الصفراء في الأمعاء والكليتان تصفيان أولى مواد الدرار مما يذهب من المثانة نحو سائل «آميوز»، مع ذلك، فإنّ أكثر الترسّبات وما يتم دفعه مما ينتجه الجنين يذهب إلى المصل ليرد دم الأم.

يتسارع نمو العظام والعضلات، تحيط بجوانب الأعضاء الداخلية، يشهد شكل الجنين تحولات وتتدوّر جوانبه ويتقوى.

تنمو عظام فك الجنين والأنف، والمنظر المنكمش لذلك الكائن الصغير، ويكتسب وجه إنسان.

تظهر في غضاريف اليد والرجل، مراكز تكوين العظم، لكن لا أثر من ذلك في معصم اليد وصابونة رضغة الرجل.

حينئذٍ ومع أُخريات الشهر الثالث، فالجنين ودون شبهة هو مخلوق حي يعد من أفراد البشر، يبتدئ قلبه ورئتاه وكبده بممارسة عمله، تستحكم عضلات اليد والرجل وتتقوى أكثر وتتحرك قليلاً.

فترة الشهر الرابع: في هذه الوقت يبلغ طول الطفل خمسة عشر سنتيمتراً. وهو ما يعادل نصف طول الوليد، بعد ذلك يقلّ نموّه تدريجياً.

في الشهر الرابع، لا يشاكل بعد الجنين إنساناً صغيراً، بل هو كائن ذو رأس حجيم

جداً ونصف علوي بالغ التوسع ورجلين قصيرتين.

الطفل بعمر شهرين، رأسه يعادل نصف طوله، في الثلاثة إلى خمسة اشهر يوافق الثلث، حين الولادة يساوي الربع ولدى البلوغ نسبته إلى كل الطول، العشر.

مع ذلك، فلا يعدم الجنين في شهره الرابع اللطافة والجمال، رأسه وظهره منتصب تقريباً ويشبه الوليد المتعارف، وجهه عريض، لكنه متناسب، العينان واضحتان تماماً، اليدان والرجلان بارزة وبادية، أصابع اليد والقدم سمينة، أصابع اليد طويت إلى الداخل عادة، في منتهى الأصابع طرح تخاطيط الجلد، واضح.

مما ينبغي ذكره أن وضع وشكل الخطوط على جلد بدن آحاد البشر متفاوتة بقدرة الله اللامحدودة بحيث ليس ثمة ولو فردان من البشر، تتماثل الخطوط التي على جلدهما، ختاماً ففي الشهر الرابع انّ لذلك الكائن الصغير مميزات لا تنمحي.

جلد البدن في هذه الفترة ذو تجاعيد ولونه أحمر غامق، حمرة الجلد هو بسبب سريان الدم الخالص الرقيق الشفاف في عروق البدن وينبغي التنبيه إلى أن الجنين قبل الشهر السادس، لا يشتمل بدنه على شحم وتكديس دهن.

الجنين الذي كان منذ بدء الحمل وحتى الشهر الرابع صامتاً قارّاً من الآن فصاعداً سوف يتحرك وتكثر حركته ويفتح ويجمع يديه ورجليه.

أوّل حركات الطفل، بسيطة وهادئة، شيء فشيء تشتد ويوجّه لكمات قوية إلى جدار رحم الام وينبهها أنّ إنساناً صغيراً يقطن بطنها.

خلال الشهر الخامس: الإنسان مثل مزيج يتكون من مختلف المواد وتراكيبه الممتزجة مما يتعذّر تجزئتها.

يتكون الآدمي من مليارات الخلايا وممّات الأعضاء المختلفة والخلايا في استبدال وتجديد دائماً، تموت وتعوَّض مع ذلك فإن شخصيّته المرموزة أو الروح ثابتة باقية.

يمكن تشبيه الإنسان بشركة تعاونية، يتعاون فيها الشركاء والأعضاء ويتساعدون فيما بينهم ويدعمون بعضهم ويكافحون المؤثرات الخارجية، يستفيدون من مزايا وإيجابيات الشركة ومسؤوليتهم مشتركة تجاه الأعمال وهم مساهمون في ربح الشركة وخسارتها.

كما أن في المجتمعات البشرية كان تقسيم العمل وتخصص الأفراد وتبادل المنتجات، أمراً هاماً جديراً بالتأكيد، كذلك فإن هذه المبادئ تتخذ في مجتمع الخلايا وأعضاء البدن ولا تخلّف عنها.

جهاز الهضم، يجتذب الأغذية ويجعلها في هيئة ما يلزم من مواد لتستهلك في انتاج الخلايا، السوائل السارية في البدن تتوفر لنقلها شبكة وسيعة.

الأعصاب وما إليها، ومثل أسلاك الهاتف أجهزة الإبراق، تتصل بالمخ أي المركز.

غدد الترشحات الداخلية بنشاطها المستمر، تثبت الطاقة في البدن، الجلد حافظ وحارس مجتمع الخلايا وأعضاء البدن الداخلية تيعتبر مراسلها.

في ظل هذا النظام، يتموقع كل من أعضاء البدن في محل وموضع معين، الجلد أيضاً ينمو ويتكامل حتى ينال شكله ووضعه النهائي.

جلد البدن يتكون من خلايا شديدة ومحكمة، تمثل سوراً بالنسبة إلى البدن، تحفظه وتحرسه، الخلايا الخارجية مثل ما بعد الولادة، تتقشر وتنعدم فيحل محلّها خلايا جديدة مستحدثة تخرج من تحت الجلد، أثر النشوء والنمو المستمر.

ثم تحدث غدد التعرق وغدد انتاج الدهون، ليترشح من أصل كل من نوابت الجلد، سائل ومادة دهنية.

خلال الشهر الخامس تمتزج تلك المادّة الدسمة مع الخلايا المعدومة وتشاكل الجنين، ثم تتورّق صفائح فتغطي، جوانب جلد الطفل، يعتقد العلماء، انّ الحكمة في

ذلك فصل الجنين عن سائل «آميوز» الذي يسبح فيه الطفل، في الشهر الخامس له رسوبات من الممكن أن تحدث في جلد الطفل الرقيق، تشقّقات وخروق. مشتقات الجلد أيضاً تنمو بنمو ملحوظ. في الرأس تنبت شعيرات دقيقة السمك، تظهر أظافر أصابع اليد والقدم، نتأ ومغارس الأسنان الحليبية تتظاهر أكثر ويتشخّص في اللثة أثر الغطاءة اللؤلؤية للأسنان وبياضها وعظامها.

من حقائق هذا الشهر، استواء ونهوض فقرات الظهر، كما قد مرّ ذكره، ففي ابتداء الشهر الثاني، تكون نطفة الجنين مدوّرة، ذات ذنب يصل طوله إلى محاذاة الجمجمة، في الشهر الثالث يزداد الذنب طولاً والحال أنّ للظهر قليلاً من التحدّب في الشهر الخامس يستقر الرأس جيداً على الرقبة المستجدة ويقل تحدّب الظهر.

الوليد رأسه منتصب عندما يولد وفقرات ظهره قائمة وممتدة ولن يبقى الامتداد على تلك الحالة وبعد أن يتعلم الطفل الجلوس والمشي، يتجدد ظهور التحدب ويحصل بذلك تغيّر في العمود الفقري لا يخلو من تأثير على تناسب هيكل الطفل.

فترة الشهر السادس: في الشهر السادس تتفتح أجفان العين وكانت متصلة منذ الشهر الثالث، تتكون أنئذٍ بيضة العين ومنذ الشهر السابع فبإمكانه إدراك الضوء، الرموش والحواجب تنمو بشكل عام في الشهرين السادس والسابع.

تنمو على اللسان وسقف الفم وفي الحلق الثآليل المختصة باستشعار طعم المأكولات وهذه النتوءات أكثر جداً مقارنة بما لدى غير البالغين أو الشيوخ، عجباً فالجنين الذيّ ليس بحاجة الأكل وتذوق طعم الأغذية تُعد له كل هذه التجهيزات ويتوفّر على كل هذه الحُبيبات الحساسة.

هنا حيث بالتدقيق في هذه الأوضاع العجيبة وهي جانب صغير جداً من هذا العالم العظيم، يغمر المرء الأعجاب ليصرح كل كيانه: «**لا إله إلا الله**»،«**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

هنا حيث يستشعر الإنسان حقيقة أنّه لا يرى في الكون كله إلا الله ويطلب إلا إياه.

وكما يقول «فيض» ذلك العاشق الهائم:

هـذا العـالم هـل لـه رب غيـر الله، كـلا

هل ثمة ديار غير الحق تعالى في الديار، كلا

لـيس للعرفـاء إلفـة بغيـر الله

هل للعرفاء شغل غير ذكر الحبيب، كلا

اعقد قلبك على عشق الحق تعالى، اِنفر من غيره

هل ثمة غير عشق الحق وغير الحق شغل أو مشغله، كلا

اغدُ ثمل الحق تعالى كي تكون واعي عصرك

هل ثمة في العالمين كليهما من واعٍ غير ثماره، كلا

دع اختيـارك لهوتجـاوزه عـن الاختيـار

هـل للعبـد غيـر تخيـره، كـلا

إن كان لك غم فتعال اجلبه اعرضه على لطفه

هل ثمة من ملاذ للمتعبين غير لطفه، كلا

العمـر مـا بذلتـه فـي الطاعـة والتقـوى

هل ثمة من ليل ونهار غير عهـد العبوديـة، كـلا

اللامغمومون الذين ليس لهم شـأن سـوى التبـدّن

أنظر إلى أكفّهم هل ثمة من غبار البـدن، كـلا[1].

١- فيض الكاشاني.

فترة الشهر السابع: الجنين وبسكون وهدوء ينتظر وصول يوم الولادة وهو في مسار تحولات، ستتأدى ختاماً إلى تحرره من ذلك ضيق المظلم وصولاً إلى دنيا أفسح.

وان كان عليه ان يبقى شهرين آخرين ببطن الأم، لكنه مع ذلك في حالة بإمكانه الاقلاع.

لو وُلد الطفل سباعي الأشهر، فمع ملاءمة الظروف قد يستمر في حياته، فلماذا لا يبقى الأجنة الغير مكتملون أحياءً؟ يبدو أنه للنقص وعدم اكتمال سلسلة الأعصاب وخاصة المجرى التنفسي، حيث ينبغي أن تنقبض العضلات وتعمل ماكنة انتاج الحرارة.

سلسلة الأعصاب شبكة مفصلة ودقيقة تتكون من العصب وتصل كل أجزاء البدن بالمخ والشحنة النخاعية وهو مركز ارتداء التيارات العصبية؛ أي التيارات التي ترد من ناحية أعضاء البدن والقوى الحساسة والتيارات التي تنتقل إلى العضلات.

منذ الشهر الثالث للحمل، تنشأ وتنمو في الرأس أنحاء خاصة أحدها محل المخ أو الدماغ الصغير وهو موضع توسيع القوى الفكرية والآخر نصفا دائرة بغلافين سميكين توأمين وذلك من مختصات وامتيازات القوة العاقلة ومن أهم وأثمن أعضاء البدن في الشهر السابع يحيط ذلك الغلافان بكل مجال الرأس وتبتدئ الخلايا الصغيرة والسلاسل العصبية بالتغير والتحول كما أنّ المخ في تكامل وسلسلة الأعصاب قد تجهزت، كي تؤدي واجباتها.

فترة الشهرين الثامن والتاسع: الطفل الذي في بطن أمه وان كان أكمل توّاً، مع ذلك فهو يستعد شيء فشيء ليلج دنياه الجديدة، لكن مع هذا فعليه المكوث شهرين آخرين هما الثامن والتاسع، في الضيق والظلمات تلك كي يتفتح ويتجمل أكثر ويبلغ حدّ التكامل.

في الشهر الثامن تنمو بسرعة قشرة من الدهن والشحم تحت الجلد وتزيل الشقوق

والتجاعيد، الجوانب والاطراف تتدوَّر، تزول حمرة الجلد تدريجياً ويتحول اللون إلى وردي خفيف.

تلوين الجلد وتغيرات ذلك، من جملة المسائل المرموزة الغير مكشوفة، لا ينبغي تصور أنّ الجنين حين انتظار ولوج دنيا الخارج الترابية هادئ ودون حركة، على العكس فإنه في بطن الأم وحيث الضيق والظلمة يتحرك، يفتح ويجمع يديه ورجليه، يغير محله،حركاته وسكناته متناوبة، مثل أن ينام حيناً ثم يستيقظ.

الخلاص من سجن الرحم: لا علم وخبرة صحيحة للإنسان بعد بشأن نظام الولادة الطبيعي والمجريات التي تسبّب تهيّؤ الطفل للولادة.

تستشعر الأم خلال الأسابيع قبل الولادة، ضغوطاً في الرحم، خفيفة منتظمة وتشاكل ما يعانيه الفرد عقيب عمل شاق مضني، هذه المعاناة والضغوط موقتة ولا تسبب للأم خلال الأسابيع قبل الولادة أذى كثير.

في وقت معين تكبر تلك الضغوط والإنكماشات الرحمية دفعة، وتشتد حركات الجنين وخلال ساعات ينحدر الطفل ويطأ العالم الجديد.

ما السبب في هذا النزول القهري للجنين وقد كان مستقراً لفترة مديدة في بطن أمه بحال اعتزال؟

هذا أيضاً من أسرار خلقة الإنسان قبل الولادة، ومما لم يتضح بعد بنحوتام، يقال: التحولات السريعة الحاصلة في آخر الأمر، تتأدى إلى تفاعلات كثيرة في الرحم، وخاصة فإنّ فاعلية الغدد المقوية ذات الترشحات الداخلية إذ تصب الهرمونات في المجاري وشرايين الدم وتتسبب في تحريك عضلات الرحم وأثر الضغوط الشديدة الحادة، يولد الطفل.

ما أن وُلد الطفل، يتنفس كم مرة، يلج الهواء رئتيه ويسمع أول صوت لذلك،

الصوت هذا إما لأجل الصدمة التي واجهها بدنه حين ورود العالم الجديد أو ناجم عن لمس ومسح القابلة التي ساعدت في مجيئه إلى الدنيا.

على كل حال فالطفل متصل بعد عبر حبل السرة بالسُنجد وبعد الولادة ونزول السُنجد حيث انتهى دور هذين، يقطعون حبل السّرة سيسقط قريباً ما تبقى منه ويلتحم الجرح.

محل السرّة وعلامتها يدلّل أنّ الآدمي كان فترة يعيش في بطن الأم طفيلياً وعليه أن يبالغ في احترام أمه، كما كثر في القرآن الكريم والروايات الشريفة التنويه بذلك وقدِّرت له بوضعه حكماً إلهياً، أهمية بالغة.

هذا الوليد ليس كائناً مكتملاً بعد، لأجل مناغمة وضعه السابق مع بيئته الحالية، يشهد تحولات وتطورات سريعة في كيانه.

حين الولادة، فإن رئتيه حيث كانا في كم من الأنسجة المتراكمة المضغوطة، تتورم كالنفاخة مع أوّل استنشاق وتتموضع في محلها أسفل القفص الصدري لتمتلئ الحفرات الرئوية الكثيرة بالهواء، فتخف وتغدو في حالة إسفنجية.

مع ذلك لم تبلغ حدّ التكامل بعد وسرعان ما تحدث في الرئتين، حفرات وخزانات جديدة وإنّما تعمل حُفرات ما قبل الولادة جيداً لعدة أيام.

حجم قلب الوليد يعادل قبضته المضمومة، يهدأ تدريجياً تسلسل نبضه، حتى يصل الحد المتعارف، قليلاً بعد الولادة، يتم دفع فضلاته التي تجمعت خلال ستة أشهر ومن مميزات الوليد ان مدفوعه معقم تماماً؛ أي دون ميكروب.

بعد الولادة حيث لم تنشّط غدد دموعه وبزاقه، فإنه يبكي، لكن دون دموع، إنّما يتمكن ماء فمه من حلّ المواد النشوية المأخوذة من الحليب، إضافة إلى ذلك انه لا يستطيع التحديق فترة في نقطة وينظر كالأحول.

هذا كان شرح حياة التسعة أشهر لضيف بطن الأم مما طالب القرآن الكريم والروايات الشريفة وبجد، الإنسان أن يدرس ويتفكر في شأنه، كي بالدراسة والفكر في صنع الله يتم الوصول إليه تعالى ويكون الاستغراق بعشق قدس وجوده حيث أولاه خلال تسعة أشهر كل هذا اللطف والفضل وحقاً فإن العرفان وكسب الحال لا قيمة له دون التعرف على الذات وهي سبيل معرفة البارئ المتعال.

خلقة الإنسان، في مرآة كلام سيد الشهداء عليه السلام:

لا تقولوا ان هذا الكتاب هو في العرفان الإسلامي دون فسلجة الحياة، ولماذا يُتعرض فيه إلى المسائل الطبيعية للحياة؟ سأقول في جوابكم:

إن أحد أكثر وأهم مصادر العرفان والحال دعاء عرفة لإمام العشاق، سيد الشهداء عليه السلام وقد أشير فيه إلى تفضلات وألطاف الله تعالى في خلق الإنسان وأرى لزاماً وفي توضيح كلام مولانا الصادق عليه السلام: «**وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله**» أرى لزاماً أن أشير إلى ذلك الموضع من دعاء عرفة الذي تجلّى من الصدر الصافي والقلب الطاهر لروح العرفاء وقبل ما يقارب الألف وأربعمائة سنة في صحراء عرفات ودون أن يكون في البين آنئذٍ شتى الأدوات الطبية والتجربية وأوقفكم على بحر معرفة جنابه وأبين لكم هذه المعجزة الإلهية كي تلاحظوا أن آخر تحقيقات اخصائيي العلوم تطابق كلام الإمام الحسين عليه السلام الذي ألقاه في هيئة الدعاء، وتطلّعوا بذلك على أن روح العرفان والحال تتجذر في معرفة صنع الحق تعالى وألطافه وتودّداته.

لو كان المرء أعزل بشأن معرفة خالقية الحبيب المقال وادعى العرفان، فليس ذلك عرفاناً بل دعوى باطلة، أفهل يمكن للمرء أن يحيى جاهلاً بتودّدات الحق تعالى ويكون عارفاً؟!

العارف الحقيقي هو المطلّع في حدّه على خلقة وجوده وما يتعلق بوجوده من نعم

ويعلم انّ الحق تعالى ماذا فعل تجاهه، في هذه الحالة سوف يتجلى عشق الحق المتعال في قلبه وينجذب بكل كيانه إلى عبادة وطاعة الله ولا يقبل بغفلة لحظة عن ذكر الحبيب الحق أو يفارقه آناما، أفهل يمكن الوقوف على كل هذه الألطاف، ثم الغفلة عنه تعالى؟

رَوَى بِشْرٌ وَ بَشِيرٌ الْأَسَدِيَّانِ أَنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام خَرَجَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ يَوْمَئِذٍ مِنْ فُسْطَاطِهِ مُتَذَلِّلًا خَاشِعاً فَجَعَلَ عليه السلام يَمْشِي هَوْناً هَوْناً حَتَّى وَقَفَ هُوَ وَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَ وُلْدِهِ وَ مَوَالِيهِ فِي مَيْسَرَةِ الْجَبَلِ مُسْتَقْبِلَ الْبَيْتِ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ كَاسْتِطْعَامِ الْمِسْكِينِ ثُمَّ قَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لِقَضَائِهِ دَافِعٌ، وَ لَا لِعَطَائِهِ مَانِعٌ، وَ لَا كَصُنْعِهِ صُنْعُ صَانِعٍ، وَ هُوَ الْجَوَادُ الْوَاسِعُ، فَطَرَ أَجْنَاسَ الْبَدَائِعِ، وَ أَتْقَنَ بِحِكْمَتِهِ الصَّنَائِعَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ الطَّلَائِعُ، وَ لَا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْوَدَائِعُ، أَتَى بِالْكِتَابِ الْجَامِعِ، وَ بِشَرْعِ الْإِسْلَامِ النُّورِ السَّاطِعِ، وَ هُوَ لِلْخَلِيقَةِ صَانِعٌ، وَ هُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى الْفَجَائِعِ، جَازِي كُلِّ صَانِعٍ، وَ رَائِشُ كُلِّ قَانِعٍ، وَ رَاحِمُ كُلِّ ضَارِعٍ، وَ مُنْزِلُ الْمَنَافِعِ، وَ الْكِتَابِ الْجَامِعِ بِالنُّورِ السَّاطِعِ، وَ هُوَ لِلدَّعَوَاتِ سَامِعٌ، وَ لِلدَّرَجَاتِ رَافِعٌ، وَ لِلْكُرُبَاتِ دَافِعٌ، وَ لِلْجَبَابِرَةِ قَامِعٌ، وَ رَاحِمُ عَبْرَةِ كُلِّ ضَارِعٍ، وَ دَافِعُ ضَرْعَةِ كُلِّ ضَارِعٍ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَ لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ، وَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ وَ أَشْهَدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَكَ، مُقِرّاً بِأَنَّكَ رَبِّي، وَ أَنَّ إِلَيْكَ مَرَدِّي، ابْتَدَأْتَنِي بِنِعْمَتِكَ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ شَيْئاً مَذْكُوراً، وَ خَلَقْتَنِي مِنَ التُّرَابِ، ثُمَّ أَسْكَنْتَنِي الْأَصْلَابَ آمِناً لِرَيْبِ الْمَنُونِ، وَ اخْتِلَافِ الدُّهُورِ، فَلَمْ أَزَلْ ظَاعِناً مِنْ صُلْبٍ إِلَى رَحِمٍ، فِي تَقَادُمِ الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ وَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، لَمْ تُخْرِجْنِي لِرَأْفَتِكَ بِي، وَ لُطْفِكَ لِي، وَ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ، فِي دَوْلَةِ أَيَّامِ الْكَفَرَةِ، الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ، وَ كَذَّبُوا رُسُلَكَ، لَكِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي رَأْفَةً مِنْكَ، وَ تَحَنُّناً عَلَيَّ، لِلَّذِي سَبَقَ لِي مِنَ الْهُدَى الَّذِي يَسَّرْتَنِي وَ فِيهِ أَنْشَأْتَنِي، وَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ رَؤُفْتَ بِي بِجَمِيلِ صُنْعِكَ، وَ سَوَابِغِ نِعْمَتِكَ، فَابْتَدَعْتَ خَلْقِي مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ أَسْكَنْتَنِي فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، بَيْنَ لَحْمٍ وَ جِلْدٍ وَ دَمٍ، لَمْ تُشْهِرْنِي بِخَلْقِي، وَ لَمْ تَجْعَلْ إِلَيَّ شَيْئاً مِنْ أَمْرِي، ثُمَّ أَخْرَجْتَنِي إِلَى الدُّنْيَا تَامّاً سَوِيّاً، وَ حَفِظْتَنِي فِي الْمَهْدِ طِفْلًا صَبِيّاً، وَ رَزَقْتَنِي مِنَ الْغِذَاءِ لَبَناً مَرِيّاً، عَطَفْتَ عَلَى قُلُوبِ الْحَوَاضِنِ، وَ كَفَّلْتَنِي الْأُمَّهَاتِ الرَّحَائِمَ، وَ كَلَأْتَنِي مِنْ طَوَارِقِ الْجَانِّ، وَ سَلَّمْتَنِي مِنَ الزِّيَادَةِ وَ النُّقْصَانِ، فَتَعَالَيْتَ يَا رَحِيمُ يَا رَحْمَانُ، حَتَّى إِذَا اسْتَهْلَلْتُ نَاطِقاً بِالْكَلَامِ، أَتْمَمْتَ عَلَيَّ سَوَابِغَ الْإِنْعَامِ، فَرَبَّيْتَنِي زَائِداً فِي كُلِّ عَامٍ، حَتَّى إِذَا كَمُلَتْ فِطْرَتِي، وَ اعْتَدَلَتْ سَرِيرَتِي، أَوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ، وَ رَوَّعْتَنِي بِعَجَائِبِ فِطْرَتِكَ، وَ أَنْطَقْتَنِي لِمَا ذَرَأْتَ فِي سَمَائِكَ وَ أَرْضِكَ مِنْ بَدَائِعِ خَلْقِكَ، وَ نَبَّهْتَنِي لِذِكْرِكَ وَ شُكْرِكَ، وَ وَاجِبِ طَاعَتِكَ وَ عِبَادَتِكَ، وَ فَهَّمْتَنِي

مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُكَ، وَ يَسَّرْتَ لِي تَقَبُّلَ مَرْضَاتِكَ، وَ مَنَنْتَ عَلَيَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِعَوْنِكَ وَ لُطْفِكَ، ثُمَّ إِذْ خَلَقْتَنِي مِنْ حَرِّ الثَّرَى، لَمْ تَرْضَ لِي يَا إِلَهِي بِنِعْمَةٍ دُونَ أُخْرَى، وَ رَزَقْتَنِي مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَاشِ، وَ صُنُوفِ الرِّيَاشِ، بِمَنِّكَ الْعَظِيمِ عَلَيَّ، وَ إِحْسَانِكَ الْقَدِيمِ إِلَيَّ، حَتَّى إِذَا أَتْمَمْتَ عَلَيَّ جَمِيعَ النِّعَمِ، وَ صَرَفْتَ عَنِّي كُلَّ النِّقَمِ، لَمْ يَمْنَعْكَ جَهْلِي وَ جُرْأَتِي عَلَيْكَ، أَنْ دَلَلْتَنِي عَلَى مَا يُقَرِّبُنِي إِلَيْكَ، وَ وَفَّقْتَنِي لِمَا يُزْلِفُنِي لَدَيْكَ، فَإِنْ دَعَوْتُكَ أَجَبْتَنِي، وَ إِنْ سَأَلْتُكَ أَعْطَيْتَنِي، وَ إِنْ أَطَعْتُكَ شَكَرْتَنِي، وَ إِنْ شَكَرْتَنِي زِدْتَنِي، كُلُّ ذَلِكَ إِكْمَالًا لِأَنْعُمِكَ عَلَيَّ وَ إِحْسَاناً إِلَيَّ، فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ مِنْ مُبْدِئٍ مُعِيدٍ حَمِيدٍ مَجِيدٍ، وَ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ، وَ عَظُمَتْ آلَاؤُكَ، فَأَيُّ أَنْعُمِكَ يَا إِلَهِي أُحْصِي عَدَداً أَوْ ذِكْراً، أَمْ أَيُّ عَطَائِكَ أَقُومُ بِهَا شُكْراً، وَ هِيَ يَا رَبِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصِيَهَا الْعَادُّونَ، أَوْ يَبْلُغَ عِلْماً بِهَا الْحَافِظُونَ، ثُمَّ مَا صَرَفْتَ وَ دَرَأْتَ عَنِّي اللَّهُمَّ مِنَ الضُّرِّ وَ الضَّرَّاءِ، أَكْثَرُ مِمَّا ظَهَرَ لِي مِنَ الْعَافِيَةِ وَ السَّرَّاءِ، وَ أَنَا أُشْهِدُكَ يَا إِلَهِي بِحَقِيقَةِ إِيمَانِي، وَ عَقْدِ عَزَمَاتِ يَقِينِي، وَ خَالِصِ صَرِيحِ تَوْحِيدِي، وَ بَاطِنِ مَكْنُونِ ضَمِيرِي، وَ عَلَائِقِ مَجَارِي نُورِ بَصَرِي، وَ أَسَارِيرِ صَفْحَةِ جَبِينِي، وَ خُرْقِ مَسَارِبِ نَفْسِي، وَ خَذَارِيفِ مَارِنِ عِرْنِينِي، وَ مَسَارِبِ صِمَاخِ سَمْعِي، وَ مَا ضَمَّتْ وَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِ شَفَتَايَ، وَ حَرَكَاتِ لَفْظِ لِسَانِي، وَ مَغْرَزِ حَنَكِ فَمِي وَ فَكِّي، وَ مَنَابِتِ أَضْرَاسِي، وَ بُلُوغِ حَبَائِلِ بَارِعِ عُنُقِي، وَ مَسَاغِ مَطْعَمِي وَ

مَشْرَبِي، وَ حِمَالَةِ أُمِّ رَأْسِي، وَ جُمَلِ حَمَائِلِ حَبْلِ وَتِينِي، وَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ تَامُورُ صَدْرِي، وَ نِيَاطُ حِجَابِ قَلْبِي، وَ أَفْلَاذُ حَوَاشِي كَبِدِي، وَ مَا حَوَتْهُ شَرَاسِيفُ أَضْلَاعِي، وَ حِقَاقِ مَفَاصِلِي، وَ أَطْرَافِ أَنَامِلِي، وَ قَبْضِ عَوَامِلِي، وَ دَمِي، وَ شَعْرِي، وَ بَشَرِي، وَ عَصَبِي، وَ قَصَبِي، وَ عِظَامِي، وَ مُخِّي، وَ عُرُوقِي، وَ جَمِيعُ جَوَارِحِي، وَ مَا انْتَسَجَ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامُ رَضَاعِي، وَ مَا أَقَلَّتِ الْأَرْضُ مِنِّي، وَ نَوْمِي وَ يَقَظَتِي، وَ سُكُونِي وَ حَرَكَتِي، وَ حَرَكَاتِ رُكُوعِي وَ سُجُودِي، أَنْ لَوْ حَاوَلْتُ وَ اجْتَهَدْتُ مَدَى الْأَعْصَارِ وَ الْأَحْقَابِ لَوْ عُمِّرْتُهَا، أَنْ أُوَدِّيَ شُكْرَ وَاحِدَةٍ مِنْ أَنْعُمِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ذَلِكَ، إِلَّا بِمَنِّكَ الْمُوجِبِ عَلَيَّ شُكْراً آنِفاً جَدِيداً، وَ ثَنَاءً طَارِفاً عَتِيداً، أَجَلْ وَ لَوْ حَرَصْتُ وَ الْعَادُّونَ مِنْ أَنَامِكَ أَنْ نُحْصِيَ مَدَى إِنْعَامِكَ سَالِفَةً وَ آنِفَةً، لَمَا حَصَرْنَاهُ عَدَداً، وَ لَا أَحْصَيْنَاهُ أَبَداً، هَيْهَاتَ أَنَّى ذَلِكَ، وَ أَنْتَ الْمُخْبِرُ عَنْ نَفْسِكَ فِي كِتَابِكَ النَّاطِقِ، وَ النَّبَإِ الصَّادِقِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[1].

أشار مولانا الحسين عليه السلام إلى قسم من أعظم النعم مما في خلق الإنسان، ليكرر مرتين ضمن بيانه النعم عدم قدرته على أداء الشكر: «**فأي نعمك يا إلهي أحصي عدداً وذكراً أم أيّ عطاياك اقوم بها شكراً؟**»

إن أهم عمل يتحتم علينا انجازه وبتعبير الإمام الصادق عليه السلام هو أن نرى النعمة من الله وحده ولا نغفل من ذلك، إذ: «**أدنى الشكر رؤية النعمة من الله**».

١- إبراهيم ١٤: ٣٤.

مرة أُخرى أرى لزاماً تأدية للواجب والمعرفة بشأن الحق تعالى، أن أُشير إلى بعض مصانع البدن وشيء من النعم مما قُدِّم كرزق، لعلّنا نوفّق إلى تأدية ما نقدر عليه من شكر المولى تبارك وتعالى.

نعمة جهاز الدورة الدموية:

مسألة الدم ودورته في البدن وما يؤديه الدم من دور، من أجذر مسائل الحياة واعجب برامج الخلقة والجهاز الوحيد في كل العالم القادر على إنتاج الدم هو البدن لا غير:

جهاز الدورة الدموية، في البدن، من أكمل وأعجب خطوط النقل في العالم.

طول العروق والشرايين التي يمرّ الدم فيها بانتظام يفوق طول مجموع سكك الحديد في العالم!! هذا الجهاز صنع الله، يعمل تلقائياً خلال الليل والنهار بلا انقطاع وبنظم مدروس.

يوفر لنسيج البدن، ما يحتاجه من دم ويقدمه حسب تطلّب كل واحد من زبائنه أي خلايا الجسم التي يتجاوز عددها مئات المليارات.

يجبر خسائر الخلايا ويصنع كريات الدم البيضاء والحمراء وفي كل ثانية ينتج ويوفرّ مليون من كريات الدم الحمراء عوض هذا العدد من التالف.

حينما تصاب عروق أو شرايين الدم بعارض ينفرد بترميمها والقيام بتعميرها ولو ثقبت ابرة أصبعاً وأصابت مجاري الدم الشعيريّة المتناهية في الدقة يبادر فوراً إلى رتقها!!

حينما يحدث خرق صغير في سطح جلد البدن، يسارع إلى ابراز غشاوة ذات من مادة الفيبرين لتضم إليها كريات الدم الحمراء وتحدث حبة بحيث لولاها وما تسده لتأدّى أدنى جرح إلى نزف الذم وختاماً إلى الموت!!

جهاز الدورة الدموية توزّع كل دقيقة خمسة آلاف من الدم وخلال ليلة ونهارها

أكثر من سبعة آلاف لتراً.

ليست الشرايين مجرد أنابيب بسيطة، بل كائنات حيّة لها قابلية التمدد والارتجاع تتسبب في تنظيم ضربان القلب والنبض.

يرشح القلب الدم شيء فشيء ويرسله إلى الشرايين، وهي تنظم جريانه وتخفف جريان النبض كي تتصل ببعض في وسط طريق جريان الدم وتلج دقاق المجاري بشكل هادئ.

جهاز الدورة الدموية يؤدي عملين: الدم الذي ورد الشرايين وتحرك لايصال الغذاء إلى الخلايا، يأخذ معه حمله وهو عبارة عن حوامض أمينية مما يلزم لترميم أنسجة البدن، السكر وهو مصدر الطاقة والقوة ومواد معدنية أخرى مثل الفيتامينات، الهرمونات والأوكسجين!

الدم الذي يعود نحو القلب من خلال المجاري الوريدية، لدى العودة يحمل معه غاز ثاني أوكسيد الكاربون، الماء، ترسبات الخلايا المحترقة ونفايا تحولات وتبدلات البروتينات.

تعالوا لنرى أن لقمة لحم نتناولها، أي تحولات وتطورات تطرأ عليها، بالقدرة الإلهية.

في المعدة والأمعاء الدقيقة، تحوّل التخميرات المعدنية البروتينات إلى حوامض أمينية، في جدار الأمعاء، ثمة شعر غاية في الصغر ذو نتوءات يشبه منظره تحت المجهر، سجاد الحرير.

يبلغ عدد هذه النتوءات الخمسة ملايين وكل منها قائم بعرق دقيق ثمة في جدار العروق الدقاق منافذ وفرجات تصفي الذرات المتناهية صغراً للحوامض الأمينية وبذلك تدخل عصارة وجوهر اللحم إلى تيار الدم وتواجه أولاً الكبد الذي يعتبر مختبراً كيمياوياً ومنظماً للدم.

يراقب الكبد باستمرار ويشرف على سكر الدم، الضروري للعضلات وأيضاً الحمض الأميني الضروري لانتاج ومراعات أنسجة البدن.

إن كان الطعام الذي تناولناه كثير اللحم، في هذه الحالة سيكون الدم الذي يرد الكبد فيه نسبة الحوامض كبيرة، فيدّخر الكبد بعضها وينعدم بعضها الآخر، ثم يكون الدم مهيّأً لتغذية الخلايا وفي كل أنحاء البدن، يتم إيصال المقدار من الدم الذي تتطلب الخلية، مثلاً لتضيع عضلة أو ترميم إصبع أصابه حرق.

السكر الذي نتناوله مع الشاي وأيضاً نشويات الخبز والبطاطا تتخذ هذا المسار تقريباً وتتحول في الأمعاء الدقيقة، إلى غلوكوز، يجعلها الكبد غليكوجين ويدخرها على ذلك وحيثما احتاجت العضلات إلى الطاقة تحوّل ذلك الغليكوجين إلى غلوكوز مرة أخرى وخرج من الكبد تدريجياً.

حين ممارسة الحركات الرياضية، يستقطع الكبد من الغلوكوز المذخور دائمياً لديه، الذي يكفي لسد الحاجة مدّة اثنتي عشرة إلى أربع وعشرين ساعة.

الدهون أيضاً تعتبر من جملة مواد البدن الاحتراقية، حينما تمر بالأمعاء تتحول حوامض دهنية فترد العصارة الغذائية، إذا انتهى مذخور غليكوجين الكبد، فبإمكان الكبد أن يؤمّن لعدة أسابيع طاقة البدن الحرارية من مدّخراته.

كما قد قيل، فإن الدم يحرك معه حملاً أو مواد مختلفة، وخاصة فإن بروتيناته ملحوظة. أحد البروتينات، يصطحب «يود» وهو من مستلزمات غدد التيروئيد، آخر فيه فسفور مما يلزم للعظام وثالث كليسم وهو ضروري لاستحكام ودوام الأسنان.

ثمة في الدم لترٌ من الأوكسجين المحلول، غاز الحياة هذا يتركب في الدم مع الهموغلوبين ومن هنا حمرة لون الدم اللطيف، هذا الأمر وان كان يتم في الرئتين، بيد أن عكس ذلك يتم في الخلايا على امتداد نظام دورة الدم، الهيموغلوبين يورد

الأوكسجين للدم، آخذاً غاز ثاني أوكسيد الكاربون.

الجزء الملفت في جهاز الدورة الدموية، شبكة العروق الدقاق الممتدّة وهي أنابيب مجهرية دقيقة توصل رؤوس الشراين والأوردة ببعضها، هذه العروق دقيقة وقليلة السمك حدّ أن كريات الدم الحمراء لا بد لها لدى المرور خلال العروق، أن تترادف لممرّ واحدة تلو الأخرى، هنا حيث يؤدي الدم مهمته الأصلية موصلاً الغذاء إلى الخلايا آخذاً معه الخلايا التالفة.

تعيش الخلايا في سائل مالح في تجديد مستمر وذلك السائل المالح بمثابة مرضعة ومربية الخلايا، تسبح الخلايا خلاله.

الدم الوريدي له رسوبات مختلفة، مثل غاز ثاني أوكسيد الكاربون، الماء، مخلفات البروتينات المتحولة وجهاز الدورة الدموية، ينقل هذه الرسوبات أو الآلام إلى الكبد والكليتين.

الكليتين جهازا تقطير وتصفية، تتكون من أنابيب غاية في الدقة، يعادل طول الأنابيب مائة كيلو متراً تقريباً، شكلها يشبه اللوبياء وتصفي في ليلةٍ ونهارها ما يقارب مئتي لتراً من الدم، تبدّل مواد الدم الضارة غير النقية، خاصة اليوريا، الآمونياك، والفاضل النهائي للطعام إلى بول فتدفعه وتعيد مائة وثمانية وسبعين لتراً من السائل المصفى إلى الدم، الكبد يشرف على نسبة الحَمض الآميني وسكر الدم؛ الكليتان تعدّل مواد الدم المعدنية.

الدم الذي يرد الكليتين، من الممكن أن تكون أملاحه من الصوديوم، المنيزيم والفسفات، بنسبة اكبر، الكليتان تراقبان وتشرفان على ذلك فتحدد نسبة كل واحد، حينما يترك الدم الكليتين يأخذ مَعهُ وبدقة كل ما تحتاجه أعضاء البدن من أملاح معدنية، مما يلزم، موصلاً إياه إلى الخلايا.

السوائل العصبية التي تصدر عن المخ تأمر جدار عضلة الشرايين بالاسترخاء وتنفتح وتنغلق منافذ انتظام جريان الدم؛ مثلاً الذي قد تمدد إلى جانب حوض تحت ضوء الشمس، فإن جريان دمه هادئ تقريباً والعروق الدقاق خلوة؛ إذ الخلايا حينما الفرد مرتاح هادئ، لا تحتاج إلى طاقة كثيرة.

ما ان يلج الشخص الماء حتى ينشط مركز تحريك الاعصاب والعروق فتبتلع العضلات غلوكوزها جاهدة إلى الاسراع في دفع ترسبات غاز ثاني أوكسيد الكاربون.

للإشراف على جريان الدم، ثمة مراكز فرعية أخرى أيضاً منها ما في المقطع العلوي من البطن وهو الشبكة العصبية، لو صدمت هذه الناحية بضربة، تلاشت تلك الشبكة الرقيقة، نهائياً لتنبسط العروق الدقاق في البطن وتبقى تبتلع وتجتذب دماً حدّ أن يُحرم المخ من التوفّر على دم ويصاب المصدوم بإغماء.

الفرد البالغ، حجم دمه في حدود ستة إلى سبعة لترات وذلك ما يحتوي تقريباً ثلاثة آلاف مليار من كريات الدم الحمراء.

يتم انتاج هذه الكريات في مخ العظام وفي كل دقيقة تحدث اثنتان وسبعون من الكريات وينعدم ما يعادلها ومتوسط مدة حياة أقدمها ثلاثون يوماً.

حينما تمر الكريات الحمراء من الكبد، تهاجمها الذنابات المجهرية التي للخلايا وتنعدم، بيد أن أعضاء البدن تدّخر دائماً ٨٥٪ من هذه الكريات ويوصل الدم هذه الكريات إلى مخ العظام وهنالك يتم تصنيع الهموغلوبين مدة أخرى.

مقابل الكريات الحمراء هناك في الدم كريات بيضاء، مهمتها مكافحة التعفن وفساد الدم، بعض هذه الكريات تهاجم الميكروبات وتبتلعها.

ثمة في الدم، مادة لأجل الانعقاد لم يتوصل العلماء بعد إلى ماهيتها، إضافة إلى مادة أخرى هامة جداً وهي مادة تعيّن وتشخّص فصيلة دم الفرد.

كما قد مرّ مفصلاً، فإن بنية جهاز الدورة الدموية وشبكات العروق الدقاق و وسائل الدم كل ذلك عجيب ومدعاة للتحيّر ولا تقل من ذلك مكونات الدم، إذا نظرنا بعين الفراسة إلى بنية ومجريات العمل الدائم لتلك الماكنة، فلابد لنا من الخضوع بمحضر الحق المتعال فنحمد عن بصيرة ورؤية، عابدين إياه.

يقول «فيض» ذلك المدهوش الثمل:

من الحيف عبادة غير الله دون التعمّم له فالحياة حيف حيف
ماذا أفعل مع غمه بخلد العشرة البقاء من العبودية، حيف حيف
لا تطأطأ الرأس إلى لعبته الرفيعة التخضع للغير حيف حيف
لا تخل الرأس من العشق والقلب من الغم دون خياله الحياة حيف حيف
اصرف العمر والروح في ساعة الحق في الحياة غير العبودية حيف حيف
من الظلم تربية البدن على الظلم فما يعمله البدن غير العبادة حيف حيف
اسنعمل جسمك وروحك في عبادة الله فغير العبودية حيف حيف
استهل الدنيا يا ضعيف فالمواجهة مع الكبير حيف حيف
يا رب اعطني هياما من عشقك فالغم لفيض حيف حيف.[1]

نعمة الكبد:

إذا ما اسمينا الكبد بمفتاح السلامة، فإننا لم نكن لنبالغ، الكبد هو اكبر واوسع غدد الإنسان.

فلونه احمر وشكله مدور و وزنه واحد من اربعين لوزن الجسم، ومكانه اعلى بطن الانسان، تحت حجاب القلب في القفص الصدري.

١- فيض الكاشاني.

هذه الغدة ذات هي المخبر الكيميائي لجسم الإنسان، فكل ما تؤديه يكون باعثاً لضربان القلب، واتساع الاوردة الدموية، وسهولة هضم الطعام، وحسن اتمام الاعمال الفكرية وتقوية عضلات البدن.

نسيج الكبد متشكل من نوع خلية، وهذه الخلايا الصغيرة التي يبلغ عددها الملايين، تقع إلى جانب بعضها لتكون غدة ذات ضخامة تتشرب وتترطب أثر جريان الدم على الدوام.

الدماء التي تصب في الكبد تحتوي على مواد غذائية كثيرة بعضها يرد الكبد من خلال أنبوب جهاز الهضم وعبر عرق كبير وبعض آخر وهو الحاوي للاوكسجين يتطرق إليه من الشريان الكبدي وقبل الوصول إلى خلايا الكبد تمتزج الدماء ببعضها وتحرّك بدفع واحد جهاز الكبد الكيمياوي!!

ترشح خلايا الكبد مواداً تحتاج إليها كل أعضاء البدن، في حسن انجاز أعمالها، فمثلاً الكليتان، لا تقدر دون معونة الكبد على دفع النفايا النيتروجينية، فيحولها الكبد أوّلاً إلى يوريا كي نتمكن الكليتان من انجاز ما عليهما.

الكبد مخزن انتاج المواد الفيتامينية، وفي حال انعدام الفيتامين، فلن يتمكن مخ العظام من توفير واعداد مستلزمات ومتطلبات الدم.

النزوع الجنسي وان كان مصدر طاقته الغدد التناسلية، بيد أن نشاط الفرد منوط بحالة الكبد وتنظيم افرازات الهرمونات الجنسية.

الكبد هو من يصنع الآلبومين من الحوامض الأمينية ويغير مقدار الماء والملح، الصفراء الكبدية التي تنظم نشاط الأمعاء وترتب ذلك لتمنع التسمّم الغذائي، وفي حال حدوث نزيف دم، فإن المصاب يواجهه خطر الموت، إضافة لذلك، فالكبد يرشح مادة تمنع انعقاد الدم وفي حال انعدامها فثمة خطر انسداد شرايين الدم الذاهبة إلى المخ.

يكافح الكبد الميكروبات الضارة فيخرجها من البدن وينقذنا من سلبيات ومخاطر الحجم الكبير لما تناولناه من أدوية وتم اجتذابه وختاماً فإنه يصون ويحافظ على جلد البدن وقد تلوث بالسموم الصناعية.

حينما نرتقي مدرجاً أو مرتفعاً، تحتاج عضلات البدن لأجل التقوي إلى طاقة، يبادر الكبد فوراً إلى العمل ليحول مقداراً من مذخور الفليكوجين لديه إلى غلوكوز ثم يضخه في الدم.

كيان البدن العضوي، يتلف لا محالة في كل ثانية ملايين من كريات الدم الحمراء، يتسلمها الطحال فيعدمها، لكن الكبد يجتذب مواد تكوينية الكريات وخاصة الحديد فيستخدمها في انتاج خلايا دم جديدة.

إذا ما حدث في الأصبع خرق، بحيث سال الدم منه، فلولا معونة الكبد وتضيعه وافرازه مادة فيبرينوجين، التي تنفع في انعقاد الدم، وإلا فمع عدم انعقاد الدم، فسيستمر نزف دم البدن من ذلك الخرق حدّ موت الإنسان!!

تزاول الغدة السحرية هذه في كل ثانية أعمال غاية في الغرابة، كثيرة العدد جداً وقد تم التعرف حتى الآن على ما يقارب خمسمائة عمل مختلف للكبد ولم تكتمل القائمة بعد.

عمل الكبد هام جداً في تنظيم عمل هرمونات البدن، مثلاً فإن غدة التروئيد لو كثرت ترشحاتها جداً، ستنحل الشخص وتجعله هيكلاً متحركاً، لكن الكبد يعدم الزيادة في الترشحات وهي ما يشكل خطراً على البدن وتوفر للبدن مذخوراً في فيتامينات A B D المركبّة قوة وطاقة الكبد تنتج عن الغذاء والطعام الذي يتناوله الفرد، يصنّع الكبد من الهيدرات ثنائية الكابون، غليكوجيناً، ويدّخر ذلك، ثم يقوم بإرساله وفق حاجات خلايا البدن تدريجياً أو بسرعة، كذلك فهو يدخر المواد الدهنية

لحين تطلّب البدن، لدى كثرة النشاط.

من خواص الكبد الاخرى الهامة جداً، قابلية تجديد ونشوء ونمو الخلايا الكبدية؛ مثلاً في داء السرطان الذي تقدم كثيراً قد حذف الجراحون المهرة إلى ما يعادل ـ تسعين بالمائة من حجم الكبد ثم بعد عدة أشهر شرعت خلايا الكبد من جديد بالنمو فبلغت حجمها السابق.

أنا الفقير الخجل والأسير الكسير الجناح، بعد قليل معرفة بلطف وفضل الحبيب المتعال أنشدت بمحضر قدسه:

وضعت رأسي في تراب قدم عشقك ذهب مني القلب والدين في هواك
نار هجرك أحرقتني حتى الرأس لكن عايشت هذه النار واحتراقي هذا
مذ صرت معتكفاً بزقاقك يا شمس العالم أنرت روحي وقلبي بداية عشقك
تحررت بلطفك من سجن الهوى هممت فانسبت نحو زقاقك كريح الصبا
إني من يوم الازل يا نار القلوب المشتوية لم أعرف غيرك وحبك ولطفك
قسماً بوجهك ومديد شعرك ان في سَمَر الوجود كففت عن الجميع مشتغلاً بك
قال لك المسكين يا نور فضاء الصفاء وضعت رأسي في تراب قدم عشقك

نعمة الاعصاب:

حينما نقترب من أجهزة اتصال الهواتف العاملة، تدهشنا مشاهدة الجهاز والمعدات والأدوات الكثيرة المتراكبة التي فيه.

تذهلنا سرعة تناقل الاخبار وخلال ثواني ودقائق معدودة من أقصى بقاع العالم، والحال أنّ لنا في داخل البدن شبكة اتصال وتخابر دقيقة حسّاسة، أكمل وبحجم في

غاية الصغر ونغفل التفكر بشأنها.

ذلك الجهاز العجيب الخارق، سلسلة الأعصاب التي تبلّغ في الليلة والنهار ملايين الرسائل إلى المليارات من خلايا البدن، وتخبر المخ بضربان القلب، عمل الرئتين، ومجريات جميع أعضاء وأبعاض البدن.

لولا معدات الاتصال والتخابر هذه كان بدن الإنسان وخلاياه سيواجه فوضى عارمة.

اللسان الذي يشخص طعمَ الأغذية، له ثلاثة آلاف نتوء كل منها يتصل بالمخ عبر عصب خاص.

لم يُكتشف بعد بشكل صحيح نمط عمل هذه الأعصاب، يبدو أنّ شيءً من تلك المأكولات يحل في النتوءات وكمعدات الكهرباء التي تفصل، لتوصل تيار الكهرباء عن وإلى شئ وآخر، تتأثر فتطلع المخ كالبرق الخاطف، فيشخص المخ طعم الغذاء.

الأذن تحوي مائة ألف خلية سمع وفي الجزء الداخلي من الأذن، ثمة أعصاب متناهية في الدقة تتسلم ارتعاش الصوت بنحو خاص وكسيقان الحنطة التي تهتز وتتموج مع هبوب الريح فإن الاعصاب الآنفة أيضاً تهتز فيحصل فيها تيار الصوت، وهو ضعيف للغاية أوّلاً ويتقوى فوراً إلى آلاف الأضعاف وحينما تصل تلك الأصوات إلى مركز المخ، فهي منتظمة جلية كضربات الموسيقى ومع أن الأصوات خليط من مسموعات أنية وفورية مع ذلك ندرك سريعاً أن الصوت لصديق أو من هو معروف لدينا أو صوت أجنبي وبذلك نسمع الأصوات من داخل المخ عبر آذاننا بمعونة الأعصاب تلك.

العين، كل عين لها مائة وثلاثون مليون عصباً يستلم النور، ينقل إلى المخ تأثير وانفعالات النور؛ بالعين نشخص أوراق وأغصان الأشجار، والورود والنبات، بيدَ أن

جمال ذلك مما يعرضه المخ.

أحياناً تتظاهر أعصاب البصر بنحو آخر، حينما في الظلام يصطدم رأسنا بمانع دفعة يشرق في عيننا ضوء ملفت يعادل ضياء ستة وثلاثين شمعة والسبب أن أثر تلك الضربة يتم تحريك أعصاب البصر فترسل إلى الدماغ أمواجاً كهربية وتتظاهر المجريات في هيئة اطلاق ناري ونوراني.

ينبغي دراسة التشكيلة العينية بنحو دقيق، هذه التشكيلة عبارة عن: الجمجمة، كرة العين، العضلات الخارجية للعين، الجفون، الملتحمة، وجهاز الدمع. وعاء العين، حفرة مخروطية يكون جدرانها عظام الجمجمة والوجه، العظام المكونة لجدار وعاء العين هي: عظم الجبهة، الفك الفوقي، الوجنة، والدمعي والفمي.

كرة العين تشغل الخُمس الامامي لوعاء العين، باقي هذه الحفرة، يمتلئ بالدهن، الأغلفة، الأعصاب، مجاري الدم، العضلات والغدة الدمعية، تبتدئ العضلات الخارجية لكرة العين من رأس وعاء العين وتلتصق على كرّة العين. قد غطيت هذه العضلات بأغلفة تمتد فيها استطالات إلى جدران وعاء العين، العضلات اليمينية الاربع تدعى اليمنى الفوقانية، التحتانية، الداخلية والخارجية، وثمة عضلتان مائلتان يقال لهما المائلة الفوقانية والمائلة التحتانية.

الجفون ستارة متحركة ويقعان امام العين، الفضاء بينهما يدعى الشق الجفني، يتصل الجفن الفوقاني والتحتاني في الزاوية الخارجية والداخلية للعين بغضروف الجفن وهو صفيحة ليفية نسيجها من نوع متراكم، تدعم وتعطي الشكل كافة الجفن.

الرموش شعر يقع على حافة الجفون غدد ميبوميوس تقترن بالرموش؟ و توجد غدد التعرق في الجلد بين الرموش.

الملتحمة غشاء مخاطي يفترش سطح الجفون معطوفاً أيضاً إلى قسم من كرة العين.

الجهاز الدمعي يشمل الغدد الدمعية ومجاريها، جدار كرة العين يتكون من ثلاث ستارات هي الصلبية، المشيمة والشبكية.

الصلبية واسمها الآخر بياض العين، الغشاء الخارجي وحفاظ العين.

المشيمة الستارة الوسطى؛ ستارة عروقية جداً وتؤدي مهمة في مجال التغذية.

العنبية الجزء الملون من العين والثقب في وسطها يدعى بؤبؤة وعملها تنظيم مقدار النور المعطى إلى العين.

لا يمكن بهذه المسائل معرفة العين، هذه الكرة الصغيرة جدا هي عالم كبير جداً، ليس يعرفها إلا خالقها، مهمتنا تجاه هذه النعمة الكبيرة جداً، شكرها ومعطيها والشكر بشأنها، أن لا نرتكب بها ذنباً.

الجلد، له شبكة عظمى من العصب بعضها أداة استلام والبعض محرار وبعضها الآخر هو كثير أعصاب اللمس الحساسة.

يبلغ عدد الاعصاب المحرارية نحو ثلاثين ألفاً، إذا ما حلّ على البدن جسم حارّ، تبادر هذه الأعصاب إلى الانذار فوراً.

ثمة على جلد البدن، مئتان وخمسون ألف نقطة حساسة بشأن البرودة وخمسمائة ألفاً لحس اللمس حينما ينكب على البدن ماء بارد، يستشعر البدن برودة يتم اطلاع مركز الدماغ بها عبر الاعصاب المعنيّة فيبتدئ البدن بالارتجاف، تتفتح بسرعة الشرايين التي بجوار الجلد كي يصل دم أكثر إذ هو مصدر حرارة، حين البرد فالأمر معاكس، تخير الاعصاب المحرارية المخ وبأمر المخ تبدأ غدد التعرق الثلاثة ملايين بالترشح، فيتعرق البدن ويبرد الشخص.

المخ وكيفية عمله:

لبدن الإنسان جهازان عصبيان: أحدهما الجهاز المركزي أو المخي النخاعي وهو

مركز الذكاء والشعور والإرادة يصدر أوامره إلى العضلات أيضاً. الآخر جهاز عصبي تلقائي النشاط غير إرادي في الأحشاء والجهاز الثاني تابع للأول، بهذين الجهازين يستحصل بدننا ضرورة العمل في عالم الخارج.

الجهاز العصبي المركزي يشمل: المخ والمخيخ والنخاع الشوكي الذي يرسل سلاسل عصبية مباشرة إلى العضلات وبنحو غير مباشر إلى سائر الأعضاء.

يتكون المخ من جسم ليّن أبيض اللون غاية في الظرافة ويملأ محفظات الجمجمة والعمود الفقري.

أعصاب البدن الحسية تمتد من السطح والأعضاء الحسية إلى هناك، مخّنا على ارتباط دائم عبر هذه بعالم الخارج تزامناً وعبر سلاسل أعصاب الحركة، بجميع العضلات ومن خلال السلاسل الذاهبة منه إلى الجهاز العصبي التلقائي، يرتبط بالأحشاء والأعضاء الأخرى.

وهكذا فإن سلاسلنا العصبية تحيط بالبدن بأعدادها الكثيرة من كل جانب كشبكة.

التفرعات الصغرى بمنتهى الأعصاب، تدخل فيما بين الخلايا الجلدية وعلى جوانب البنى الغددية والمجاري الترشحية للغدد وفي الغلاف الشرياني والوريدي وفي الغشاء المعدي والمعوي، الانقباضي، في سطح السلاسل العضلانية وغير ذلك، هذه الأعصاب كلها تنبعث عن خلايا تتموضع في الجهاز العصبي المركزي ومن سلسلتي عُقد سُمباتويّتين وكتل صغار لعقد متناثرة في الأعضاء.

الخلايا العصبية، أشرف وأظرف خلايا البدن وجثتها كبيرة وبعض تلك الخلايا مما يقع في القشر الدماغي، هرمي الشكل ولم يتضح لعلماء العالم بعد، بنيتها وتعقيدات أعمالها! تنفصل عن بدن هذه الخلايا سلاسل دقيقة يجتاز بعضها سطح ما بين سطح المخ وناحية النخاع التحتانية دون أن تنقطع.

هذه الأسلاك الدقيقة اللطيفة، تقسّم دون [١] خلية يقال لها في المصطلح العلمي «نورون» ينقسم الـ «**نورون**» إلى فئتين: نورونات الإستلام والحركة التي تستلم التحريكات من دنيا الخارج أو الأعضاء وتتحكم في العضلات.

الفئة الأخرى، نورونات الارتباط والاتصال التي يتأدى عددها اللامحدود إلى كثرة اشتغال وتعقيد المراكز العصبية البشرية، كما يعجز فهمنا عن درك عظمة عالم الخلقة، كذلك هو عاجز بشأن معرفة سعة المخ.

سطح القشر الدماغي مفروش بالخلايا العصبية كالسراميك وكل ناحية منه لها ارتباط بمختلف نواحي البدن.

مثلاً جانب المخ، يدير حركات الأخذ، المشي والتكلّم، خلف هذه الناحية، يقع مركز البصر.

في القشر الدماغي تتم الحركات اللاإرادية والانعكاسية ولو قلعنا ذلك القشر تتعذر تلك الحركات.

للوقوف على علاقات الإرادة للنشاط العصبي والتفاعلات الروحية والدماغية، ليس في المتناول أي أداة.

نحن لا نعلم كيف انّ الوقائع والظواهر التي تؤثر في الخلايا الهرمية، تتأثر بحوادث الماضي والمستقبل وكيف تحتفظ بتأثير هذه التحريكات، كما لا نعلم كيف تتم في المخ الكيفيات اللامتوقعة ويتحصل عنها الفكر والتعقّل!!

يبدو أن العمل الفكري يسهّله إنقباض العضلات المنتظم وبعض الرياضات البدنية تثير الفكر.

لعل لأجل ذلك كان ارسطو وتلامذته يتحدثون وهم يتمشون حين بحث المسائل

١- وَرَد في الأصل «بدن الخلية» وهو خطأ مطبعي. المترجم.

الغامضة الفلسفية والعلمية، يبدو أن ليس من نواحي السلسلة المركزية للأعصاب، ما يعمل على حدة، مثلاً حين الأعمال العضلية لا تختص بالعمل نواحي واسعة في المخ والنخاع، بل ثمة نصيب أيضاً لأحشاء متعددة في هذا المجال، إذ انّ العضلات حينما تنقبض، تأخذ الأمر من المخ وقوتها من القلب والرئتين وغدد الترشح بالمحيط الداخلي وهي بحاجة في اتباع أمر المخ إلى مجموع البدن.

نعمة الغدد واللوزة:

الهرمونات السابحة في دمنا، وبسبب مالها من قوة عظمة فبالامكان تشبيهها بقنابل هيدروجينية مصغرة.

هذه المناتج الصغرى تتسبب في تعادل بدننا، لم يتم بعد اكتشاف الكثير من أسرارها وأعمالها الطبية. أثر الدراسات التي أنجزها أخصائيو علم الطب، بشأن غدد الإنسان ولوزاته، تم الوقوف على مجموعة هرمونات ذات فوائد عجيبة.

تعالج هذه الهرمونات بشكل ناجح أمراض العين والالتهابات التي كانت في السابق تسبب العمى، وأمراضاً أخرى كانت غير ذات علاج سابقاً كما الروماتيزم المفصلي المؤلم.

بعض هذه الهرمونات تنفع في تجديد قوى الشباب الذاهبة ووفق نظرية الأطباء ومع تطور الطب، سيتم تدريجياً اكتشاف ما لازال مجهولاً من فوائد الهرمونات والاستفادة منه في معالجة أمراض السرطان، تصلّب الشرايين وأمراض القلب والكلية.

بحكمة الحق تعالى البالغة، ثمة في بدن الإنسان غدد ترشحاتها الداخلية وانجازاتها مما يحيّر وترتبط بها جميع حركاتنا البدنية.

أقل حركات الرموش، تنشأ عن تدخل وافراز ترشحات الهرمونات، انقباض العضلات وما يلزم من نسبة سكر في الدم لعملية الانقباض، مما توّفره هذه الغدد. أدنى

خدش يصيب الأصبع، كي يلتئم جرحه تبادر الهرمونات فوراً لتحدث سدّاً يمنع من عفونة الجرح.

الغدد قسمان: قسم تدفع ترشحاتها إلى الخارج، مثل الغدد البزاقية التي تتسبب في هضم الغذاء وتجزئته أو غدد انتاج العرق التي تقلل من الحرارة والسخونة العالية وتبرد البدن.

القسم الآخر يصب افرازاته داخل جهاز الدورة الدموية وهي في المجموع ثمان غدد، لا يتجاوز وزن جميعها الخمسين غراماً!

تعتبر هذه الخلايا الصغيرة في مملكة البدن بمنزلة الوزراء وتقوم بتنظيم مختلف أعمال الجسم وهي في تناغم واتساق مع بعضها و هي لدى الضرورة توفّر مستلزمات الغدد الأخرى ونقائصها وتجبر ذلك.

من الغدد الثمان المشار إليها، أربع منها كالتالي:

الأولى: لوزة المعدة وقد تكشفت أعمالها جيداً وهي ملايين الخلايا التي كجزُر صغار في المعدة وتصنع سائلاً يدعى «الانسولين».

الثانية: غدد الباراتيروئيد وهي أربع غدد صغار معلقة بغدة التيروئيد وتستخدم لانتاج الكالسيوم، الفسفور وكترولیتات الدم، وتتسبها في الاختلال أمر نادر.

الثالثة: الغدة الصنوبرية تحت رأس المعدة ولم تتضح بعد، جيداً مهمتها ودورها (خاصيتها).

الرابعة: غدة تيموس وهي في أعلى الصدر أمام الرئتين وتؤدي مهمتها في نمو الجسم، اما الغدد الأربع الأُخرى، فهي اليهوفيز، سورنال، التيروئيد، ثم الغدد التناسلية. هذه الغدد بمنزلة أساتذة المختبر الكيمياوي البدني، وتنتج ترشحات غاية في الأهمية.

١ ـ **غدة الهيبوفيز** أو غدة النخاع وهي دون شك من أهم غدد البدن، تنظم هذه الغدة أعمال باقي غدد البدن وحجمها يعادل حمصة كبيرة.

وتقع في محفظة عظيمة في حدود مركز الرأس، وهذه الحبّة الصغرى، نقطة انتهاء خمسين ألف سلكاً عصبياً وحيث أن تحرك ودوران الدم ثمة أكثر فمن السهولة بمكان ان يحمل المعلومات والأوامر الكيمياوية إلى كل نقاط البدن.

من الخواص العجيبة لهذه الغدة النخاعية، ترشحات هورمون نمو الإنسان، قصار القامة محرومون منه، اما طويلو القامة فهم مستفيدين منه بكثرة.

٢ ـ **غدد السورنال**، ذات ثلاثة أوجه وحمصية الشكل وتقع فوق الكلية وكثيرة النشاط جداً، دوران الدم كثير في هذه الغدد وفي كل دقيقة يجتازها ما يعادل ستة أضعاف وزن الدم.

في مواقع الخطر وحالات الشدة وتفاقم الأمر لدى الإنسان، فإن لهذه الغدد تأثيرات مدهشة، فالطيار يقذف بنفسه و يهبط بمظلة الانقاذ عندما تتعرض طائرته لخطر السقوط هو بفعل افرازات تلك الغدد حصلت لديه القدرة على هكذا تهوّر، من يُلقي نفسه من أعلى المبنى فراراً من حريق فإن عمله نتيجة تأثير هرمون هذه الغدد.

غدد «سورنال» يمكنها وقت الضرورة مضاعفة افرازاتها عشر مرات وتسريع جريان الدم وتشديد التنفس وزيادة نسبة سكر الدم مما تتطلبه احتراقات البدن وهي تترصد على الدوام أن تبادر لدى تعرض البدن لجرح وانشقاق جلد البدن إلى عقد الدم ومنع النزيف بأقل وقت.

إذا ما ظهرت خدشة أو تشقق يسير في الغدد اللطيفة الضعيفة، فإن الفرد سيعتلّ ويتعرض للإصابة بشتى الأمراض وإذا ما ـ ولأي سبب ـ قلّت نسبة ترشحات الغدد، سيشهد الوضع الجسمي للفرد اختلات مما يجعل من شاب نشط، شيخاً مرتجفاً.

ينتج من قشرة غدد «سورنال» هرمونات متنوعة، تم حتى الآن التعرف على ثمانية وعشرين نوعاً منها.

أحدها يؤثر في تغيير الأملاح المعدنية في الدم وآخر في تنشيط مبيض النساء وآخر أيضاً مؤثر للداخل في المراحل التناسلية الرجولية.

٣ ـ **غدة التيروئيد**، بشكل فراشة وتقع على الحلقوم أسفل الرقبة، بإمكان هذه الغدة تقليل أو تشديد تحركنا البدني، الرخوة والكسل والقعود أو عكس؛ ذلك الفطانة والقوة والشهامة البدنية وهذه الكيفيات تتسبب عن ترشحات هذه الغدة، التي يترشح عنها يومياً عادة نصف سنتيغرام.

٤ ـ **النشاط محيّر للعقول للغدد التناسلية لدى الرجال والنساء قد جعلها الله تعالى** لأجل إبقاء النسل وليس بحاجة إلى شرح كثير.

نعمة جلد البدن:

جلد البدن بمنزلة سور البدن وحفاظه وله خاصية ملفتة بشأن الترميم والتجديد والنشوء والنمو.

أدنى خدش أو انشقاق يصيب الجلد، تبادر في سبيل ترميمه وتعويضه إلى انجاز هو أدق وأصعب بالمقارنة ببنية ناطحات السحاب، لكننا نرى العمل المشار إليه طبيعياً، غير منتبهين إلى أنه لولا خاصية الجلد بشأن الترميم والتحام قروح الجلد، لم تكن بالإمكان أي عملية جراحية تنجز التئام الخروق، وأدنى جراحة لكان لها عواقب وخيمة على الإنسان.

كلّما وقع خرق عميق أوتشقق في هذا الغلاف، تهدمت خلايا الجلد وتقطّعت الأسلاك العصبية ومجاري الدم الشعيرية وتتبعثر به الخيوط المنقطعة وهي مملوءة بالمواد الحياتية، وتشتبك أمورها ويتحتم ان تقر قرارها ويتم وصل التقطعات والتشققّات.

فيما إذا كان الخرق والشق هاماً وخطراً، فسيعلن الإنذار كالآتي:

١ ـ تهبط درجة ضغط الدم لمنع النزيف.

٢ ـ تقل فترة انعقاد الدم وينجز عقد الدم خلال لحظات.

٣ ـ يُدخل الطحال مذخوره الدموي إلى جهاز الدورة الدموية تعويضاً عما تلف.

٤ ـ تزداد كريات الدم البيضاء وتتصاعد نسبة انتاجها، عشرة أضعاف الحالة المتعارفة.

بما أن الخلايا سابحة خلال الترشحات النسوجية ومن مستلزمات كونها وحياتها الاستقرار في الموضع الرطب، فبمجرد حدوث جرح، ستواجه الهواء الجاف وهو ما لا تطيقه المجاري الشُعيرية وإذ تنفسخ يخرج الدم الذي تحتويه فيتلف وهو أثمن وأثرى سائل كيميائي عضوي في البدن.

كما ينفتح السبيل أمام هجوم الميكروبات نحو داخل البدن ولابدَّ من الاقدام فوراً لدفع الهجوم ورفع الخطر.

في المرحلة الأولى، تدخل مواد العصارة الغذائية والترشحات النسوجية والبلاسما، إلى الجرح، فتهبه الرطوبة اللازمة ثم يتجمد الدم المحيط بالجرح، وينسد سبيل انسيابه إلى الخارج.

حينما يجري الدم في العروق الدقاق فإنه لا ينعقد ولا يتكتل؛ إذ لو انعقد لانسد طريق اجتياز الدم ويصدّ وصول المواد الحياتية إلى الخلايا، لكن حيث تعادل مع سطح الجرح فعلى خلاف الحالة الأولى ينعقد سريعاً وهكذا تظهر قابلية وخاصية انعقاد الدم عادة أن في الدم، خلايا مجهرية بمجرد الطعن أو قطع أو حدوث جرح فستواجه تلك الخلايا الهواء الطلق، في هذه الحالة ستنفسخ ويترشح منها عدة سوائل كيمياوية ماهيتها مجهولة، ثم تحصل تفاعلات متقابلة في المواد الرطبة فتمتزج

بالفيبرينوجين لتصنع مادة بيضاء اللون ذات زغب تدعى فيبرين ولهذه المادة حلقة وشِباك لا تحصى، تضم بين جوانبها وفي شباكها كريات الدم الحمراء، وتغلق المقطع والعروق الدقاق والعروق اللنفاوية، إذ تتغلغل الميكروبات من هناك إلى البدن.

قسماً بحقيقة الحق المتعال، فكرّوا إن لم تكن نعمة هذه التفاعلات، في الجلد والدم، ماذا كان سيحدث أو بقدرة أي قادر كنّا سنمنع كل هذه الاخطار والأضرار؟! يا حسرة على أناس غارقون في كل هذه النعم، وهم غافلون عن منعمها أفـ لأولئك الذين يأكلون بحار ملح صاحب العالم ثم يكسرون مملحته! يا بائس ووضيع ومقعد وذليل! أولئك الجهلاء المتنعمون كل لحظة بملايين النعم، وهم غافلون عن شكر نعمة واحدة!

كم دون هوية أو قدر، وسفلاء أولئك الطاعمون الجالسون على مائدة معمل البدن العظيم ومصنع العالم بعظمته، لا يتفكرون في النعم أو يتأملون وغير متسائلين عن المنعم الرزاق، ان الحيوانات ترفع رأسها لشكر الخالق لدى الأكل والشرب، بيد أن هؤلاء الأوضع من الحيوانات، لا يهتمون بحقيقة وجذر وأصل العالم ولا يذكرون ذلك السيد المولى الذي أولاهم كل هذه النعم، أولاء هم الذين قال عنهم القرآن المجيد أن لهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

خلافاً لاخوان الشياطين هؤلاء الملوثين فإن الذين يذكرون ولي نعمتهم عند كل نعمة، فإنهم يتقدمون إلى بارئهم الحبيب: إن عبدناك سعة العالم، لم نوفق لأداء شكر نعمة واحدة!!

الذين يستفيدون من النعم وصولاً إلى ولي النعمة، أولئك الذين حرم قلبهم مليء عشقاً لله، أولئك الأجلّة الخاضعون الخاشعون تجاه العشيق المتعال ولازالوا يستشعرون الخجل والحياء، مخاطبين المولى بكل كيانهم:

أين يذهب عن زقاقك الشريد الخير على هذا الباب لمَ يترك الباب هذا
محروم كل قبيلة ومرفوض كل ديار فاقد الخير ذاك الذي يترك باب الخير
هذا القدح الذي لست ذوقه فليس مباحاً الفم الذي يبغي غير دربك مخطي سبيله
قرة عيننا عارضك المنير الليل يوم الظلام حيث يذهب عن أعيننا
ماذا يقل من سلطنة ذلك الملك الذي يتفقد بمراحمه حال المستعطي

بعد تلك التفاعلات التي تسببت ختاماً في صنع تلك المادة البيضاء، التي بجوار الجرح، تتمدد وتنفصل عن بعضها، تترقق جدرانها، ويخرج من خلال ذلك الجدار مجموعة «فاغوسيت» أي آكلة الخلية وكريات الدم البيضاء، وتبادر إلى ابتلاع الخلايا الميتة والبكتريا أو أي مادة أُخرى تتسبّب بتأخير انعقاد الدم!!

هذه الفاغوسيتات الصغيرة تفرز سمّاً يقتل الميكروبات، ثم تحتوي على تلك الميكروبات في تجاعيدها وحلقاتها كل آكلة خلية بإمكانها ابتلاع عشرين ميكروباً.

أدنى جرح يهدم آلاف الخلايا، آكلات الخلايا توصل تلك النفايات لطرحها خارجاً، إلى الكليتين جاهدة في ابتلاع أجسام الجرح التي تفوقها في الحجم آلاف المرات وإن لم تتمكن من البلغ، تفرز ترشحات لحل النسوج المجاورة للجرح وسيدفع المحلول كل الأجسام الخارجية إلى الامام موصلاً إياها إلى سطح الجلد. آكلات الخلايا، مبطانة أكولة ولأجل كثرة الأكل تتورم حدّ الانفجار فتتحول جثثها دَرَناً ودماً.

قد يتفق أحياناً أن تهاجم الميكروبات آكلات الخلايا كي تغلب عليها، في هكذا حالة ولأجل دعم آكلات الخلايا ولكي يحصل تقدم في الكفاح، يتحقق أمر آخر مذهل، وذلك بأن تنتج الميكروبات المهاجمة وقد تمت استثارتها مادة تسبب في فنائها هي.

مكافحة تيار المهاجمين ذاك، وهو ملفت ومحيّر، تتم عبر تدابير فورية، بيد أن الانجاز الأساس وهو تغطية الجرح لم يتم التفرّغ منه.

في هذا الحين تبادر خلايا حيّة تُدعى فيبروبلاست، فتتغلغل خلال حلقات وشباك الفيبرينات (تلك المادة البيضاء ذات الزوائد والنتوءات) وتجتمع على بعضها لملأ تقعّر الجرح بمرهم موقّت!!

كما قد ذكر سابقاً، فإن مليارات خلايا البدن تتغذى عبر جهاز الدورة الدموية، الآن حيث العروق الدقاق التي تجاوز الجرح قد تقطعت وانفسخت، فطبيعي ان الجروح لن تتغذى من خلال ذلك.

كسبيل حل فإن الفيبروبلاست وهي خلايا حية تتغذى على طريقة الحيوانات البحرية من سائل أليافها، تستفيد من دَرَن دم الجرح ولا تمضي غير عدة أيام حتى تتجذر في الجرح وتستغني عن أليافها وتنحل الألياف وتتحول إلى سائل هو غذاء مناسب للخلايا النامية، الجروح التي في سبيلها إلى الالتئام والالتحام، لا يذهب شيء من أجرامها وسوائلها هدراً، وهكذا تنمو العروق الدقاق الجرح، في كل نواحيه، حتى تتصل ببعضها وينحل، أما العروق بنحو يذكرنا بالألعاب السحرية، فتتصل ببعضها وتكون شبكة لدورة الدم، ثم تنمو الأوتار والسلاسل العصبية بنحو أعجب داخل النسج المستجدة تواً!!

تتم هذه المجريات في تقعّر الجرح ويحدث جلد جديد تحت قشر الجرح، وتقريباً بجنب الجرح، تمارس الخلايا عملياتها الأصلية وتتسع حتى مركز الجرح وهو عريان تعيد ترتيب الجلد وذلك يشبه تماماً إعادة ترتيب قشر الشجرة المحكوك!! بعد اسبوع تقريباً على حدوث الجرح، يلتئم أثرها لكن لأجل استسمان المحل، تحصل بلطف الله عمليات أُخرى.

خلال عدة أشهر، تكثر الأوتار تحت العضلات وتتقدم من حواشي الجرح إلى مركزه وتلتحق وتلتف على بعضها، تكدس الدهون على بعض وتتصل النسوج الملتحمة بالأنسجة المجاورة، وختاماً فخلال عام أو أقل يفرش محل الجرح بجلد جديد الحدوث وتنتهي أعمال اصلاح الجرح وإعادة بناء جلده!!

مادة تدعى«ليسوزيم» تقتل الميكروب وهذه المادة قوية حدّ لو صببنا قطرة دمع في قنينتي ماء، فبإمكانها إعدام ميكروباتهما.

في بزاق وماء الفم وترشحات خلايا بدننا، أيضاً نجد هذه المادة وبعض السموم الأخر، لجلد البدن أيضاً قدرة كبيرة على دفع الميكروب. لو ألقينا ميكروب الاسهال الدموي في قطرة ماء ووضعناها في أنبوب اختبار، فسيبقى حيّاً لعدة ساعات ووضعناها في كف اليد النقي النظيف فسينعدم خلال عشرين دقيقة.

الميكروبات التي ترد الفم تواجه أوّلاً بمادتها الخبيثة، ماء الفم، لو تمكّنت من دخول المعدة، فإن العصارة المعدية مهيّأة لدفعها ويندر ما يتمكن إلا القليل المعدود منها، من الوصول إلى الأمعاء.

الميكروبات التي تلج دهليز الأنف الكثير الالتواءات بها ستمسك بها الرطوبة اللاصقة التي على جدار الأنف، كما تلتصق رجل الذبابة في ورق قتل الذباب، مع أنّ جدار الأنف يستثار ويتم الدفع بالعطاس أو الزكام، ولو وصلت فرضاً إلى المجاري التنفسية فستعلق برطوبتها المخاطية فستلفظ خارجاً بالسعال أو أنّ الأوتار المجهرية التي في المجرى التنفسي، وهي دائمة في ارتعاش وارتجاف، توصل تلك الرطوبة اللزجة الملوّثة بالميكروب ومن ثم ينحدر في الانبوب الهضمي، ليتم دفعها.

لو اجتاز ميكروب الجلد المتضرر داخلاً البدن، فقد نظن حدوث مخاطر، بيد أن الأمر ليس كذلك.

فلو أن مسماراً ملوثاً ثقب ـ فرضاً ـ قدمنا، فإن أي ميكروب دخل نسوج البدن، سينشطر نصفين بعد عشرين دقيقة وثم كل نصف نصفين، لو استمر أمر التناصف هكذا فستبلغ خلال سبع ساعات، المليون وهي في اليوم التالي بالمليارات.

في هذه الحالة سيكون كياننا محاطاً مستوعباً بالميكروبات، لكن ولحسن الحظ فقبل التفاقم تُقبل قوة دفاعية للنجدة، ويتورم موضع ولوج المسمار، تنتشر الميكروبات هنالك وتبتدئ معركة الميكروبات مع خلايا البدن، يترشح عن الخلايا مواد كيمياوية لتنتشر هناك حتى تبلغ عروق الدم وبمجرد الوصول، تتمدّد العروق ويزداد جدارها انفتاحاً فتخرج من العروق، مادة البلاسما المزيجة بكريات الدم البيضاء ومواد كيمياوية أخرى، وتمنع نمو وتكاثر الميكروبات.

الكريات البيضاء وهي بمنزلة حارس البدن، وكالكائنات المجهرية التي في الماء، من جملة الحيوانات أحادية الخلية وبإمكانها التنقل آنياً وبسرعة، لأجل ميزتها المغناطيسية تهاجم الميكروبات فتجتذبها وتعدمها.

نمط مكافحة كريات الدم البيضاء، كما تشاهد مجهرياً ملفتة جداً وجديرة بالملاحظة.

تصل إحدى الكريات البيضاء إلى الميكروب، وبينما تتخير لنفسها مستنداً تحيط بالميكروب، تفرز ترشحاً [١] فتجتذب الميكروب وتبتلعه وثم بعد لحظة تتوجه نحو فريسة أُخرى.

الورم الموضعي أيضاً يساعد في ذلك ويشارك في تقدم واستيلاء الكريات، في تلك الأثناء يصنّع فيبرينوجين الدم مادة «البلاسما» لتجميد الدم، التي تصبح بسرعة في هيئة نسيج مشبك ثم تمتزج البلاسما والكريات فتكوّن جدارة وتبتدي خلفها مكافحة الميكروبات!!

١- في الأصل «من الدم» يبدو أنه خطأ مطبعي، سببه تبدّل «الدال» إلى «ن» المترجم.

الدخل والخراج نموذج هذه المكافحة البارز، إذ تصنع سداً منيعاً بوجه ميكروبات العفونة كي لا تتمكن الميكروبات من ولوج البدن.

لا يكتفي البدن أيضاً بهذه السيطرة على الميكروبات، بل يستخدم كذلك أدوات أُخر!

بعض المواد الكيمياوية التي تنتشر لدى المكافحة وتنفلت فترد الدم، فمع إعلان الانذار من مقر تجمّع الكريات البيضاء، ترد الدم خلال دقائق ملايين الكريات، لتدفع الميكروبات نحو نسيج الجلد، في هذه الأثناء ينشط مخ العظام لانتاج كريات الدم الحمراء وتوفير الذخيرة والاحتياطي.

بعض الميكروبات تتوفر على مادة تدفع الكريات وتفرز بعض المواد السامة التي تقتلها والكريات وهي تموت وتنعدم، ترشّح سوائل مخمرة ذات خاصية اعدام الميكروبات.

إن لم توفّق الكريات نفسها إلى دفع الميكروبات، أتت للنجدة خلايا أكبر مجهرية طبعاً تدعى ماكروفاج، أي آكلة الميكروب، هذه بامكانها ابتلاع الميكروبات والكريات العالقة في المعركة معاً!!

يتفق كثيراً أنّ وبتأثير الأدوية الآنتي بيوتيّة التي وصفها الطبيب، تبقى ميكروبات حيّة كونها بمنأى عن المعركة، في هذه الحالة فإن البدن يُعدّ نفسه لدفعها وترد الساحة الأنسجة المشبكة المنفاوية وهي أوتار دقاق وتتبنّى تنظيف نسوج البدن، الكريات البياء، الخلايا آكلة الميكروب وباقي الذرات العاطلة تدخل في تلك الأوتار الدقاق، فتتوجه نحو الغدد اللنفاوية.

هذه الغدد حيث أنها في طريق تجيشات البدن، تبادر إلى تصفية العصارة الغذائية وتلك الميكروبات والذرات التي في العصارة الغذائية التي ترسّبت فيها وتجتاز من غدة إلى لوزة أخرى حتى تصل غدد الرقبة وتدخل من هناك جهاز الدورة الدموية،

وهنا تنجر التصفية التامة للعصارة الغذائية من قذر الميكروبات وتنقى.

إذا تمكّنت بعض الميكروبات من دخول الدورة الدموية، أقيمت أمامها جبهة دفاعية من جديد. يبادر فوراً مخ العظام، الكبد، الطحال وعدة أعضاء صغار أُخرى، تحوي خلايا آكلة الميكروب، تشرع وبذات الطريقة التي تصفي وتنقّي بها الغدد العصارة الغذائية، بتطهير الدم من أولئك الغرباء المرفوضين.

الآن ينبغي تفهّم كيف ان الكريات البيضاء وآكلات الخلايا تميّز بين الميكروبات أعداء البدن وبين خلايا وجزئيات البدن؟

يتوفر البدن الإنساني على نظام تشخيص وإدراك التماثل. وبإمكانه وضع تأثيره على الخلايا الذرات المستجدة وحديثة النشاط وأن يلصق على المهاجمين علامة عدو البدن أو «آنتي كور»، الكريات وآكلات الخلايا تنزع بافراط إلى تناول المهاجمين الذين عليهم علامة «آنتي كور».

في بعض الأمراض العفونية، التعافي من المرض ناتج عن تظاهر هذه الـ «آنتي كور» التي تؤشر على الميكروبات المهاجمة، مثلاً لو أن شخصاً أو طفلاً أصيب بداء «الحمى الحصبية» فإن بدنه يفتقد إلى الـ «آنتي كور»، حينما يظهر في البدن الآنتي كور للتأشير على المهاجم، يبقى في ازدياد إلى عدة أيام، في تلك الحال يشتد الداء، وبعد ازدياد مقدار وعدد الآنتي كور، ينشط عندئذٍ متحركاً ليلصق نفسه على الاستربتوكوك والميكروبات الممرضة، ما إن تميّزت ميكروبات الداء حتى بادرت الكريات وآكلات الخلايا إلى مهاجمتها وابتلاعها واذن يعافي المريض، إضافة إلى انّ الدم أيضاً يتوفر على مادة مكّملة ذات تأثير في إزالة الميكروبات ذات تأشيرة الأجنبي.

في كثير من الأمراض، لأجل وجود هذه الآنتي كورات، يصبح المريض مصاناً عن عودة الداء.

بعد ظهور الحمى الحصبيّة يتأخر مصنع الآنتي كور في البدن لعدة أيام حتى يتمكن من توفير جزئيات مناسبة وتطابق نوع الميكروب الجديد، وبعد ان وقف على نوعية الميكروب يمارس نشاطه الانتاجي التكثيري، وبسرعة ويتوفر ويجهز بذلك مقدار كبير من الأنتي كور.

من اليقين أن كياننا العضوي وبنيتنا البدنية لو لم يكن مجهزاً بنظام دفاعي مدهش، شرحناه في ما مضى من صفحات، كان البشر سيهلكون سريعاً لدى مواجهة هجمات الميكروبات الضارة.

من الجيد أن ننظر بعين البصيرة وبتفكر إلى أسرار بنيتنا البدنية ونطاطئ مع الرأس تعظيما وتكريماً على عتبة خالق الكائنات مبدعها، فننشغل بقلب طاهر بعبادته وتمجيده تبارك وتعالى، غير مطيعين من سواه ولا عابدين إلا إياه [1].

القرآن الكريم والروايات الشريفة إضافة إلى الكشف عن مجمل خلقة إنسان وهي تحوي ملايين المسائل وكل جزء من البدن بماله من دور ونشاط ولا يمكن رؤيته حتى بأقوى المجاهر يعتبر ذلك نعمة من الله مطالباً الإنسان التنبه لذلك، كما يشير نعم لا تحصى تتطلبها ادامة حياة الإنسان، ويريد من بني آدم أن يتفكرّوا ويتأملوا في تلك النعم كي يدخلوا ساحة المعرفة القيّمة ويجعلوا كيانهم والنعم المرتبطة بها في مسار الحق المتعال خالق النعم وواهبها، أنا المستكين أرى هنا لزاماً أن أشير إلى بعض تلك النعم التي تتوقف عليها حياة الإنسان، ذلك أنّ القرآن الكريم كما الروايات الشريفة يصر على معرفتها وتأدية شكرها.

١- لأجل كسب معلومات أكثر، بشأن خلقة البدن وأسراره ورموزه، مما أشير في هذا القسم من الكتاب إلى جزء يسير جداً منه، راجعوا كتب فسلجة الإنسان، أسرار عالم الخلقة، المجلات الطبية، والصحية و«الإنسان الكائن المجهول».

نعمة الأرض:

طرح القرآن الكريم في كثير من الآيات مسألة الأرض، منافعها اللامحدودة للكائنات الحية وخاصة الإنسان معتبراً الأرض أحد أكبر نعمه تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾.[١]

لو أراد شخص التعمق في هذه الآية وحدها، وذلك بأن يفصل مسالة المطر ومن جميع الفواكه والخضار والأدوية مهما ينبت في الأرض، فسيتجاوز الكتاب الالف مجلداً.

يذكر القرآن المجيد مسائل كثيرة، التحقيق بشأن تلك المسائل واستكشاف أسرارها ورموزها على عاتق الإنسان نفسه.

حينما يراجع ا لإنسان الكتب التي تعني بالأرض والتربة والجبال والمعادن والمؤلّفات بشأن الفواكه والخضار والحبوب والأدوية النباتية، ستنفتح عليه عوالم مدهشة وسوف يرى نفسه لا محالة مكلّفاً مسؤولاً أن يعفّر خدّه للعبادة والتسليم، أمام الله تعالى.

ما هي أثمن وأنفع مادة أرضية؟ لعلكم تظنونها المذهب أو الفضة أو معدناً آخر من المعادن الكبرى المتوفرة، لاشك انّ هذه الفلزات عظيمة النفع وإننا سنواجه الضنك بدونها؛ لكن أكثر ثروتنا ومنفعتنا في التراب.

الكائنات الحية بحاجة في بقائها حية إلى التراب، تأخذ النباتات الماء والمواد المعدنية من التراب مباشرة، الإنسان وباقي الحيوانات يتغذون على النباتات، الأغذية التي يستفيد منها بدننا استحصلت من التراب.

١- البقرة ٢: ٢٢.

خلال ألف عام، كانت الزراعة إحدى صناعات الإنسان الأساسية، تزداد اليوم نفوس سكان الأرض بسرعة فائقة وتحتاج أكثر شيء إلى المحاصيل الزراعية وليس أننا نؤمن غذاءنا بالزراعة، بل وبعض المواد الضرورية لتوفير الألبسة والدواء والأبنية وكثير مما ينفع عدا ذلك، يتم استحصاله ايضاً من التراب.

تفسخ وتحطّم القوى الطبيعية الصخور، تحمل سواقي ومجاري المياه والمثالج الطبيعية هذه الذرات، ناقلة اياها إلى مكان آخر، كل هذه الأسباب تساعد في تكوين التراب ويغدو هذا التراب مصدر منافع لحياة أحياء الأرض.

يشتمل التراب على كائنات حية كثيرة، من الممكن أن تشمل قبضة من تراب على ملايين الكائنات المجهرية التي تدعى بكتريا، كثير من البكتريا نافعة لنمو النباتات الأرفع رتبة، ثمة في التراب اضافة إلى البكتريا، كثير من الفطريات والطحالب وشتى أنواع الحيوانات. كثير من هذه الكائنات الحية تتسبب في تخلخل التراب وتوفر بذلك لنمو أكثر للنباتات. كما تساعد في تغيير الذرات المعدنية والسماء، بحيث تجعلها تقبل الانحلال بالماء.

لو اخذتم مقداراً من تراب أرض خصبة، لن تشاهدوا فيه أمر غير مألوف، لكنه يحتوي على مجموعة من الكائنات الحية، قد تفوق عدداً مجموع سكان الأرض!!

يسعى بعض العلماء لكشف أدوية جديدة، أن يجعلوا مقداراً من التراب في انبوب اختبار، ويضيفوا إليه مقداراً من الماء المقطر ويحركوه ثم يدخلون مقداراً من الخليط في محفظة خاصة (صحن خاص يستخدم لانهاء الفطريات والبكتريا).

بعد أن نمت تكتلات الفطريات والبكتريا، يختبرون عليها المنتجات الكيمياوية الخاصة التي صنعوها لمنع أو إيقاف نمو الكائنات الضارة.

البحث عن دواء بهكذا طريقة من قبضته تراب، تماثل تماماً البحث عن إبرة في

كدس اعلاف جافة، وبيد أن هكذا طريقة تسببت في اكتشاف البنيسيلين، اورئومايسن، استربتومايسين من أدوية إعجازية تبيد مولّدات الأمراض الإنسانية!!

طالما سكن الإنسان الأرض، كانت متطلباته قليلة له ما يكفيه من غذاء ولباس ومسكن، تزداد اليوم احتياجاته يوماً بعد آخر وهو يبادر لأجل توفيرها إلى ابداع تلو اختراع فيؤمنها بمقادير أكبر وأكثر، اننا نحيى في عصر وفور النعمة ولدينا آلاف المكائن والمعدات الغنية بالكتاب بحاجة لانتاج ما نحتاجه إلى منابع أولية دائمة مثل: الفلزات، الفحم، النفط والحجر، كل هذه المواد يتم استحصالها من قشر الأرض.

الأرض كنز عظيم، تكمن في انحائها ثروة عظمى فائقة، في موضع تتوفر على حديد وفي موضع آخر تحوي فحماً ونفطاً وتضم في محل آخر الالومنيوم وسائر الفلزات، ثمة للبشر أدوات هي نتاج جهود المخترعين، يستخرج بها مختلف المواد من بطون المعادن، يخرج عمال المعدن والعلماء والمخترعون والصنّاع المواد الخام من الأرض ويجعلونه على ما يوافق حاجاتنا[1].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾.[2]

يشير القرآن الكريم في هذه الآيات الهامة جداً إلى النعمة العظمى الأرض، كما بعض النعم ذات الصلة بالأرض ونعم أخرى هامّة الدور في دوام حياة الإنسان، تبادر

١- «العلم والحياة»: ١٣٣.

٢ - النبأ ٧٨: ٦ ـ ١٦.

بالاستعانة ببعض التفاسير، خاصة التفسير الحديث إلى إيضاح مختصر لكل من لتلك الآيات.

كرر القرآن الكريم، ذكر الأرض، مبيناً في كل مرة وحسب مناسبة المقام، صفة وفائدة في مادة لفظ «**مهاد**» أوردت كتب اللغة ثلاثة معاني هي «**التسوية**»، «**التسهيل**» و«**الإصلاح**» إذن فإن اللفظ المذكور ينبهنا لوجه، أنّ الأرض مستوية والإفادة منها سهلة وهي صالحة للعيش.

لو كان عوض التسوية والتسطّح، ثمة في كل مكان جبل مرتفع وأدوية عميقة جداً، وبدل السهولة فرشت سطح الأرض صخور شديدة الصلابة، أو شملته مستنقعات، تبتلع كل كن يطأها ولا يتيسر فيها حفر الآبار... وبناء البيت وأمر الزراعة ولو أن بدل الصلاح، كان قشر الأرض ملتهباً ساخناً أو على العكس بارد جداً مملوء ثلجاً، هل كان ليوجد عليه نبات وحيوان؟

﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادا**﴾[1].

الأوتاد جمع وتد ويعني المسمار الكبير يقال أنّ مركز الأرض نار مشتعلة، تقذف أحياناً من فوهة الجبال البركانية حمم قليلة من المواد الساخنة إلى سطح الأرض فتفني مدينة عظمى مثل بمبي، على كرة النار هذه قشرة رقيقة، طبعاً مقارنة بحجم الأرض وهي مسكن الحيوانات، تقع الجبال على فواصل تقل أو تكبر كما تتصل بما كل قطعات قشر الأرض، إن لم تكن الجبال مستنداً لهذه القطع المختلفة فسيتحرك سطح الأرض باستمرار مضطرباً اثر ضغط المواد الانفجارية من داخل ويشهد زلازل محطمّة متتالية، إذن تهدئ خيمة سطح الأرض أوتاد الجبال المحكمة.

كما يعلم كل من له أدنى وقوف على علم الجو، ان شدة الرياح حين تصل سطح الأرض، يكسرها الجبال وإلا كانت الرياح شديدة العصف ستحدث على التوالي

١- النبأ ٧٨: ٦.

اعصارات عجيبة، عابثة باستقرار أهل الأرض، فتقتلع الأشجار العظام من الجذور، وترمي بالحيوانات معسرة بل معذرة الحياة على كل حيٍّ نباتي أو حيواني، إذن يمكننا أيضاً تسمية الجبال أوتاد الأرض بلحاظ تسكينها وتهدئتها سطح الأرض وقاطنيها !!

﴿وَالجِبَالَ أَوْتَادا﴾[1].

وخلقناكم أزواجاً، وهذه الخلقة الزوجية للإنسان وكل الكائنات من أعظم النعم الإلهية وإمكانكم بأقل تدبر التنبه إلى أنه لو لم يكن لكل شيء زوج، كم كانت الحياة عليه عسيرة ولا تطاق أحياناً.

يصرح القرآن المجيد في الآية السادسة من سورة الحج، السابعة من سورة الشعراء، الثامنة من سورة «ق» الرعد الآية ٤ والذاريات الآية ٥٠، بزوجية كل كائنات العالم.

ينبغي أن يقال لأولئك الذين يسندون كشف هذه الحقيقة العظمى إلى علماء القرون الأخيرة: أليست هذه المسألة من الاكتشافات الحديثة المستجدة قد أماط القرآن اللثام عنها في ألف وأربعمائة عاماً مضت.

اعتبر أحد كبار فلاسفة اوروبا ويدعى «مومنيه» زوجية كل الكائنات من أفضل الأدلة على حقيقة الحق تعالى، قائلاً:

لو افترضنا أن عالم الخلقة وبنحو فارق، مما لا يناله عقل البشر، قد خلقت دون خالق مختار مريد وتأدى توالي اتفاقات إلى حدوث رجل، فهل سيصدق العقل ان الصدفة والاتفاقات تسببت أيضاً في إيجاد شخص آخر يماثله في الصورة والظاهر ويقابله وبيانيه في التركيبات الداخلية، كي يستمر نسل البشر وتعمر الأرض؟

ألا يكفي هذا الدليل لوحده لكي نعلم ان للكون، خالقاً مختاراً أبدع الكائنات ونوّعها وأولاها مختلف القوى والغرائز والحواس والالهامات الفطرية والأدوات

---

١ - النبأ ٧٨: ٧.

والأعضاء المناسبة لكل نوع لكي يستمر في حياته وصولاً إلى كماله اللائق.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾.[١]

نعمة النوم:

النوم أيضاً من النعم الكبرى المجهول قدرها عموماً، لفظ «سبات» في الآية الشريفة يعني القطع؛ أي جعلنا النوم قطعاً لحواسكم عن الإدراك والإحساس وتعطيل عملكم ونشاطكم كي تجددوا بذلك القوى، لتعملوا بنشاط وارتياح.

حقاً انّ النوم من نعم الله العظمى، ولولاه لتأكلت وفسدت القوى والاعصاب عاجلاً، أسوأ تعذيب يمكن تصوّره لشخص، هو منعه عن النوم، كما انّ من فوائده المعنوية والأخلاقية، الانقطاع عن هذا العالم، مما يذكرّنا بانتظام وعلى استمرار بالنوم الأبدي والإنقطاع التام، فالنوم أخو الموت.

إضافة لذلك فإن الرؤى الصادقة وبعضها فائق الغرابة، تثبت جليّاً لأهل الإدراك والدقة وذوي الانصاف وجود العالم الآخر، كما قد دوّن كثير من العلماء تأثراً برؤى تعكس وقائع المستقبل بالتفصيل، المؤلّفات في إثبات الروح وما بعد الطبيعة.

كما انّ الاستيقاظ من النوم، يذكّر بالقيام من القبور يوم القيامة، وقد روى عن نبي الإسلام ﷺ بأن كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون!!

﴿وجعلنا نومكم سباتا﴾[٢].

في إدامة هذه الآية، تتم الإشارة إلى قضية «الليل» وهو حقاً من أعظم النعم الإلهية: «وجعلنا الليل لباساً».

---

١ - النبأ ٧٨: ٨

٢ - النبأ ٧٨: ٩.

كما انّ امّاً حنوناً أو اباً رؤوفاً لو أراد أن ينيم طفلاً حَركاً لأجل المحافظة على سلامته ونشاطه ولا يستهلك قواه في اللعب، أكثر مما ينبغي يغطيه بملحفة أو غشاء، فإن الربّ الأرأف من الوالدين، يغطّي البشر وكثيراً من الحيوانات بثوب سواد الليل، ممانعاً عن تجاوز لعب ولهو الحياة ومساعي المعاش، حدّ الكفاية.

لولا الليل، لكان هذا الكائن الحريص ولعل الكثير من الحيوانات أيضاً، سيتركون الاستراحة والنوم، فسرعان ما تتآكل قواهم ويعجزون كما انّ نعمة الليل لباس يحفظ النبات والحيوان من شدة حرارة النهار.

﴿وجعلنا الليل لباساً﴾[1].

عقيب قضية الليل، تشير الآيات إلى نعمة النهار،نعدٌّ منافع النهار والتفصيل فمما يتطلّب البسط والتفصيل، ولا يتسع هذا المختصر لبيان أمر النهار.

بعد ذكر نعمة النهار تتم الإشارة إلى النعمة العظمى السماوات السبع: وبنينا فوقكم سبعاً شداداً.

لأجل إدراك منافع السماء ينبغي ان تراجعوا كتب النجوم والمجلات العلمية القيّمة، كي يتضح لكم كيف أنّكم مستغرقون كالسمكة في نعم الله تعالى.

إن لم تكونوا في ورد مطالعة الكتب العلمية في هذا المجال، فراجعوا الكتاب المختصر الثمين «الله في الطبيعة» تأليف «فلاماريون» وحواشية القيمة كي تدركوا عبر الاكتشافات العلمية عظيم نعمة السماوات وراجعوا ايضاً الكتاب القيّم «**الهيئة في الإسلام**» الفيلسوف، العلامة الكبير المرحوم هبة الدين الشهرستاني كي تتضح لكم بتفصيل مسالة السماوات والأرض، من خلال الوحي!!

١- النبأ ٧٨: ١٠.

﴿وبنينا فوقكم سبعاً شدادا﴾[١].

نعمة الشمس:

بعد بيان خلقة السماوات يتم التعرض للنعمة الثمينة باعثة الحياة، مقدّماً إياها ﴿سراجاً وهاجاً﴾.

الوهج، التشعشع وبعبارة أخرى هبة النور والحرارة، تقول الآية الشريفة ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ بعد بيان تهيؤ السكن وسقفه، يجعل الحين سراجاً في السقف يهب حياة الجميع حرارة ونوراً.

حدثت آلاف العوامل كي نستفيد نحن من نور الشمس الجميل المفرِّح.

لو فرضنا زيادة أو قلة بعد الأرض عن الشمس عمّا هي عليه الآن ولو أصبحت حركة الأرض أسرع أو أبطأ ولو.. وختاماً فلو تموقعت في موضع الشمس نجوم أُخر كانت تستحيل حياة الحيوان والنبات والإنسان إذ من بين ملايين النجوم، ليست تناسب إيجاد الحياة إلا شمسنا.

﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾[٢].

نعمة المطر:

ثم أشار إلى نعمة المطر العظمى.

﴿وأنزلنا من ا لمعصرات ماءً ثجاجا﴾[٣].

١- النبأ ٧٨: ١٢.

٢- النبأ ٧٨: ١٣.

٣- النبأ ٧٨: ١٤.

العصر هو الضغط، كمن يضغط ثوباً فيخرج منه الماء، لذا أطلق على السحاب «**المعصرات**» ولفظ «**ثج**» يعني الصبَّ باستمرار وشدة.

بعد أن وفّر لنا المسكن والسقف والزوجة ودواعي الراحة كالليل وأدوات المعاش كالنهار والنور، يهيئُ لنا بنزول المطر طعاماً، أرسل الينا من السحاب ماءً منكباً بشدة، حاجة الأحياء إلى الماء قبل وأكثر من أي شيء؛ لكن المطر اضافة إلى تأمين ماء الشرب، يؤدي إلى توفير الغذاء، من قبيل ما سيُذكر في الآيتين اللاحقتين:

ما ينبت من الأرض أما ذو جذل أو ليس ذا جذل وما لا جذال إما يستُفاد من بذره وحبوبه أو منه هون الأول الأشجار والثاني الحبوبات والثالث البقول، كل ذلك مجموع في آيتين قصيرتين:

﴿**لنخرج به حباً ونباتاً * وجنّات ألفافا**﴾[1].

الجنة بمعنى البستان العامرة جداً واللف، اللَّوي واللف هذا صفة الأشجار؛ إي البساتين والآيات التي، قد التفّت أشجارها بسبب ا لكثرة!!

هذه هي الرحمة الواسعة الإلهية واللطف اللامحدود الذي يوليه الباري تعالى تجاه العباد كي يؤدوا الشكر قبال كل النعم تلك ومن ذا يكفر النعم ولا يشكر لكن وكما يقول القرآن الكريم، ثمة ما يقارب **الألف** آية بشأن المحاسبة وثواب وعقاب عموم أهل العالم ولا شك في قيام ذلك اليوم.

كيف يمكننا في الرسالة الصغيرة أن نشير إلى نعم قال عنها الحبيب المتعال، «**وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها**»؟ تعالوا نقضي قدراً من العمر في مزاولة كتب أُلفت بشان النعم الداخلية الخارجية، الظاهرية والباطنية، المادية والمعنوية، الدنيوية والآخروية، فتعالوا نتفكّر في النعم المعنوية وهي: وجود الأنبياء، الوحي، الكتب

١- النبأ ٧٨: ١٥ ـ ١٦.

السماوية وخاصة القرآن، الأئمة، العقل، الروح، الضمير، الفطرة، الإلهامات، ورضا الله، محاسن الأخلاق وختاماً الجنّة لنتذكر دائماً انّ هذه النعم من الله وعلينا الاستفادة من هذه النعم وفق أوامره.

إنّنا لم نبادر بعد إلى معرفة النعم ومنعمها، معرفتنا بشأن النعم وخالقها وواهبها قليلة جداً، لذا فإنّنا أصبنا في كثير من الأحيان لدى استعمال النعم، بالذنب والمعصية، تعالوا الآن وأنتم تطالعون هذه الصفحات فلنعتذر إلى جناب قدس المولى، مبدين التزامنا الأدب، وكما قد نظمت أنا الفقير الكبير الجناح، المذنب المتعب مناجين أنْ:

يا رب الحظ هذا المسكين ... لا تحرمْ المستكين

يا نور سواد قلب العاصي ... اغسل من كتابي المعاصي

ترحّم على هذا الغريب المتعب ... هذا النصب المتهاوي الكسير القلب

تجري من عيني الدموع ... رأس مالي الأمل والنحيب

يا ضياء عيني القلب ... يا مَن على قلبي غمَّك

يا مَن تراب بابك مأوى روحي ... إحتيا بذكرك ضميري

باللطف والكرم خذ بيدي ... من قدح العشق اسكرْني

يا من عشقك مدعاة القلب والروح ... من العشق أحرق الروح والقلب

آوني في رحمتك ... ترحّم على تحرّقي وتأوّهي

لو اشتعلت نار آهاتي ... أحرقت بالمرة وجودي

تلطّف على أسير زقاقك ... وجّه قلبي نحوك.

أنى يتوجّه محتاجك ... يحرم ذاهباً إلى اي اتجاه

قد تحمّلت الأذى في غمّك بمخزن القلب، غدا غمّك كنزاً
يا محور عشق قلب المسكين عشـــقك دينـــي ومـــذهبي

والرضا بما أعطى:

الرضا بفعل الحق تعالى

الرضا بما أولاه الله تعالى الإنسان من نعم، من أفضل الأحوال، الأنبياء والأئمة والشاكرون من عبّاد الحق المتعال قد أفاضوا في مديح حال رضا العبد بشأن عطية ا لمولى.

لا تصغروا ابداً نعمة المولى تعالى، اي نعمة تستحصلونها، فإنّها تبلغكم بمعونة مئات الأسباب وتوضع تلك النعمة في متناولكم لأجل هدف مقدس رفيع، إنّكم لو رايتم في النعمة تجلّي رحمانية ورحيمية وكرم ولطف الإله، فستستعظمونها.

إننا مع أنّا لسنا دائني الله ولا نستحق أي نعمة، بيد أنّ المولى الحبيب يغمرنا بنعمه آناً ولحظة بلحظة ولم يمنعنا أي برنامج إيجابي أو نفع.

لا تنظروا إطلاقاً إلى كمية النعمة فكرّوا في حقيقة النعمة، عاينوا صاحب النعمة وحبّه وتودّده.

لو لم يهبنا شيء كان ينبغي حقيقة أن نرضى، فما بلك ونحن الآن ملفوفون بكل نعمة!!

نعمة معرفة الله هذه ومعرفة الأنبياء والأئمة والأولياء ونعمة الإيمان.

والترخيص لنا في التلفّظ باسمه المقدس ونقف مصلّين له في خمسة أوقات ونصوم شهر رمضان و... أفهل ذاك شيء قليل؟

البرامج المعنوية التي توفّر خيرنا الدنيوي والأُخروي، برنامج الإيمان والعبادة الذي ينقذنا من عذاب الأبد، إلى أي مدى هام؟ مع هذه البرامج فهل يصح عدم الرضا

والتخرّج عنه تعالى؟ العبد غير الراضي عن مولاه، ما أبأسه من عبد وأشقاه من إنسان وأتعسه من آدمي!!

الراضي بنعم الحق تعالى، قلّت أو كثرت النعم، عبد قيِّم رفيع، إنسان جليل ذو كرامة.

على العبد أن يعلم أنّ قلة أو كثرة النعم المادية، وفق مصلحته وفوق هذا، هي لأجل اختباره وامتحانه.

من كان ضيق الأمر مادياً، فقد اقتضت مصلحته هو وعموم المجتمع أن يكون تحديد في أموره المادية وذلك لطف الله ذاته عليه، أما سمعتم أنّ موسى كان يذهب إلى المناجاة، رأى رجلاً قد دخل في التراب إلى مخرمه، سأل عن السبب، قال: من شدة الفقر وضيق ذات اليد، اسأل الله أن يرفع عني العسر المادي، دعا له موسى في الطور، حصل على بعض الدراهم، لكنه بادر إلى معاملة سيئة، إذ رجع موسى من الطور رأى جماعة في موضع سأل، ما الخبر؟ قالوا: سكر شخص ودرأ بطن برئ، لما تقدّم وجده ذلك الرجل الذي كان غائصاً في التراب غلى محزمه!!

إن كنت قليل ذات اليد، فاعتبر انّ ذلك من باب لطف الله بك، ليس ثمة سعة الحال واتساع النعمة أمراً عاماً، أولئك المصابون في هكذا حال بطغيان وعصيان، هم في نقمة لا نعمة ومنفورون بغيضون جداً لدى الاله تعالى، ليسوا محبوبين لديه ولا مشمولين!!

ضيق ذات اليد وسعة الحال بشأن العبد الذي مورد اهتمام الله تعالى، مقام الاختبار والعظمة الكبير النفع، ارض بما يعطيه الله لك في مرحلة الفقر لتحفظ ايمانك وصالح عملك، كذلك ارض بنعمة الله عند سعة الحال واستعمل النعمة في سبيل الحبيب المتعال ليحفظ إيمانك وحُسن سلوكك من الخطر.

على أي حال اعتبر نفسك جندياً إلهياً، ولتفترّش بالفقر وسعة الحال وكن صاغياً

لأوامر المولى في الحالتين، اصبر فقيراً ولا تلّوث بالذنب لتجبر فقرك، اِسعْ في سعة الحال في الانفاق وحل مشاكل الناس ولا تبذل الثروة في الرغبات والنزوعات والشهوات الشيطانية ارض بفضله وكفى؛ نظمت أنا المشتاق بهذا الشأن:

جعلت شراب عشقه في الفم ... جعلت ذاتي وروحي وقلبي دون اسم
قرّرتُ في راحة حضن العشيق ... نكّـــرت ذاتـــي مطلقـــاً.
مـــن مخمـــر عشـــقه وولائـــه ... أيّ جرعات حلوة المذاق جعلت ني الكأس
قلب أوحش من وحش الصحاري ... اصـــطدتُه بعشـــقه تعـــالى
مـــا إن ســـمعت نـــداء وصـــله ... هـــدّأت قلبـــي المتصـــابّ دموعـــاً
ضـــربت بصـــدر الأجنبـــي ... انفصـــلت عـــن الخـــاص والعـــام
قطعت القلب عمّن سواه في العالم ... أتممـــت هـــذا العمـــل فقـــط
سِرتُ في درب عشقه كالمسكين ... فعندئذٍ ودّعـت الرغبـة التعنـون

حقاً إنّ شر الناس، ذاك الذي يكون غير راضٍ عن الله، عاتباً عليه، لائماً.

لا ينبغي للإنسان أن يئنّ من تناقص أو شدة الأمور المادية، هذا الأنين أنين شيطاني لا محالة.

لا ينبغي العيش بعين مغمضة وأُذن مصمتة، اننا نعجز عن آداء شكر إحدى نعمه، فما بالك من كل هذه النعم التي غمرتنا، كنعمة الصحّة، السمع، البصر، الذوق، دوران الدم، انتظام دقات القلب، اليد والرجل وسلامة العقل؛ لا ينبغي للإنسان أن يحرّك لسانه لأجل لقمة خبز قد تصرف عن المرء أحياناً للاختبار وتنمية له، ناطقاً بالشكوى، وإن كانت له شكوى، فليحمل شكواه وعتابه إليه تعالى لا أن تشكوه تعالى إلى الآخرين.

اجتهدوا لترضوا حقاً عن الرفيق الأعلى، لكن رضاكم مجرد ادّعاء، فهو تعالى سيختبركم في هذه الدعوى، راقبوا أن لا ترسبوا في الإمتحان، المصائب والبلايا عطايا إلهية أحياناً، كالمصائب والبلايا التي واجهها أولئك الأجلاء في مقام الامتحان والإبتلاء، أولئك الأجلّة عانوا كل تلك المصائب والبليات لأجل الدين وبعث الثقافة الإلهية ونموهم هم وكمالهم إنّهم مع كل تلك المصائب وفي ذروة الابتلاء والشدة، لم يخاطبوا قدس الحبيب إلا بالقول:

إلهي رضاً بقضائك.

العبد الشاكر راضي بفعل الحق تعالى.

نقل أحد العارفين من تلامذة الإلهي القمشه اي: انه رحمه الله ذهب زائراً، ليتشرف بمشهد العبد الراضي مولانا الرضا عليه السلام وتقبيل منزل قدسه.

ترنّم ليلة مخاطباً إمامه الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ! إن لكم مقام الرضا التام، اسألوا الباري تعالى ان يتفضل بأقل قليل من هذا المقام على الفقير.

حينما خرج من الحرم، صدمته سيارة في الشارع، عندما فتح عينيه وجد نفسه على سرير المستشفى سأل: ماذا جرى؟ قالوا:

صدمتكم سيارة والسائق الذي ضربكم القي القبض عليه وهو هنا، قال: اعطوني ورقة وقلماً، كتب سماحاً ورضاً تاماً عنه، آمراً بإطلاق السائق؛ إذ أنّي طلبت قبل لحظات في حرم مولانا الرضا، مقام «الرضا» من الله العزيز وهذه المصيبة أول اشراقة هذا المقام اختباراً لأهليّتي ودعواي، إنْ أطلقت لسان وقلب الشكوى والعتاب في هذه المرحلة الأولى، سأُحرم من ذلك الفضل!!

على كل حال، فالعبد الشاكر ذلك الذي في اي مقام كان، فهو راضي عن قدس وجود الحبيب المتعال. ذهبت أحد الأعوام إلى اصفهان لزيارة العارف الكامل، آية

الله الحاج رحيم أرباب وكان من حسنات الدهر. التقيت بهذا الرجل العظيم حينما كان فقد البصر منذ سبع سنين تقريباً بسبب الكهولة، تشرف في ذات الوقت رجل بلقائه، فقال: سأل فلان من معارفكم عن حال عينكم، قال رحمه الله: حالي جيد جداً وعيني لا تعنيه، شاء حبيبي أن أبصر ثمانين عاماً واستصلح لأن أفقد البصر وأنا راضي مائة بالمائة باستصلاح عشيقي!!

قضى جميع عمر الإمام السجاد عليه السلام لسبعة وخمسين عاماً، بأشد المصائب والمحن، محن هي بحيث بتعبير مولانا الزهراء عليها السلام لو صُبّت على الأيام صرن لياليا؛ بيد أن وسط كل هذه الأمواج المتلاطمة من الحوادث والبلايا، كان الإمام عليه السلام يطلب من الحق المتعال، أمرين: أن يطيل عمره في عبادة، ويهبه قلبلا واعياً ولساناً ذاكراً.

أنتم يا أعزّة! بمحضر الله في كل آنات عمركم، اجتهدوا في التوجه إليه فقط متيقظين بشأنه، لذا ما أتبعتم كل شيء لعشقه ووحبِّه ولم تروا غير عظمته وغيبته وجلاله، فلن يكون مقامكم غير الشكر والرضا بعطيته، العلم وهي العلم والعدل والحكمة واللطف الإلهي ذاته.

جاء في كتاب «**فيه ما فيه**»:

قال أحدهم: نسيت هنا شيء، قال يقظ: ثمة شيء واحد في العالم وهو لا يُنسى، لو نسيت كل شيء ولم تنسى عنه هو، فلا ضير لكن لو قمت بكل شيء ولم تنسَ شيء لكنّك نسيته، لم تفعل شيء.

لو أرسلك أحد إلى محل لإنجاز شيء واتيت ثمة بمائة شيء ولم تفعل ذلك الشيء، فكأنك لم تفعل شيء، إنّه أحلّك الدنيا لأجل شيء وهو أن تحبّه هو وتقصد إياه، لو قصدت الآلاف وانجزت من الأعمال الألوف، ولم يكن هو، فكأنّك لم تفعل شيء إطلاقاً!!

التديّن والشكر والرضا سهل يسير في الادّعاء وبالإمكان تعليم أيّ حيوان ليدّعي ذلك، المهم المثمر هو الشكر والرضا الحقيقي بعطاء الله.

يورد صاحب تفسير المثنوي بشأن في تحشيته لأحد أبيات جلال الدين:

لو قلنا كل حياتنا ليلاً ونهاراً «الله»، «الله»، فما لم يكن لنا نزوع حقيقي أي لم نوصل الحياة بأوامره الأصيلة ولم نبادر إلى تهذيب أنفسنا، فلن يبلغ التلفظ بكلمة «الله»،«الله» بشخصيتنا إلى الكمال المطلوب.

لو نزعنا يوماً حقاً إلى الله ونلنا حقيقة الاتصال بالحق المتعال، فمن غير الممكن أن نكذب آنئذٍ من أجل مصالحنا أو نرتكب الفحشاء.

لو نزعنا حقيقة لله يوماً ما، فمن المستحيل ان نستخدم الآخرين ونستهدف أنفسنا ونحرق القيصرية من أجل قماش ونخاطر عابثين بأرواح الناس لأجل أهوائنا!!

لو نزعنا حقاً إلى الله يوماً ما، حقيقة، سنجد كلمات ابي ذر امام أعتى أهل عصره وهي كلمة حق أمام قادة منحرفين. أعظم ذكر الهي عندها لن نقنع بالذكر المتعارف ولا نفر من ذكر يخاطر بمصالحنا ونعد ذلك الذكر شكر اللسان، حتى لو ذهب في ذلك الذكر رأسنا وروحنا!! وسنرضى بتقديم الرأس والروح المسبّب عمق شكر الله وذكره، وبكل كياننا.

حينما ننزع إلى الحق والحقيقة، سنجد أن أشرق ذكر إلهي وشكر الوهي، ورضا عن الله، هو ما تتمتم به المتعبد الحقيقي سيد الشهداء عليه السلام وقدّم روحه في ذلك الذكر ذاك السبيل ليلج فناء الحبيب المتعال، انه واصحابه كانوا يريدون من الله تعالى، ليلة عاشوراء وهي في الظهرأشد ليالي العالم، بانين وبكاء:

﴿و اجعلنا من الشاكرين﴾!!

قد نظمت وأنا العبد الفاني الغريق ببحر المعاصي، في إبداء المودة للحبيب المتعال:

عشـــق وجهـــك مدرســـتي ومـــذهبي

العبوديـــــة بزقاقـــــك مطلبـــــي

في غم هجرك يا كوكب الروح المنير

ينقضي عامي وشهري واسبوعي ويومي

كـــي تنـــال وصـــالَك يـــدُ قلبـــي

كل ليلة تعلو سقف الفلك مني الـ «يارب»

ذكرك نور الليل تذكري إياك أنس نهاري

عاشق أنا، مـذهبي فـي العـالم عشـقك

فكّني من غم هجرك، اذ قسماً بروحك

إن روحي بلغت من ثقل غمك الحلقوم

الترسُّل والخضوع للخمرة والسكر تمامـاً

في درب عشقك يا حبيب، غدا مذاقي

وعـــد لقيـــاك وهبنـــي روحـــاً اخـــرى

ســـائر نحـــوك والعشـــق مركبـــي

بات المسكين في تحرّق والتهاب لهجرك

تـــرحّم علـــيَّ وعلـــى تلهّفـــي

تعـالوا نتوسّـل بالأنبيـاء والأئمـة عليهم السلام و الأوليـاء لأجـل كسـب الحقـائق والتحلّـي بالفضائل، عسى نور المعرفة أن يضيء قلبنا وروحنا ننجو من مستنقع عفونة المادية والأنانية واتخاذ الذات، فنصطف بجنب عباد الله الصالحين، وقد نلنا عُلُوَّ المقامات

الإلهية كالذكر والشكر والرضا، بالغين خير الدنيا والآخرة، ليست الدنيا سوى تكرّر الأكل واللبس والنوم، لا تبذلوا رأس مال العمر هذا الثمين الذي لا يعوّض بالعالم أجمع، في تكرار المكرّرات، تفكّروا في عاقبتكم وأخشوا الغرامات الثقيلة التي أُعدّت للمجرمين.

بتعبير الأب الدَّهش «بابا طاهر العريان» (الهمداني):

الويل من يوم قاضينا هو الله لنا حكاية لدى جسر الصراط
يعبرون بتناوب الشيوخ والشباب الويل حيث يحين دورنا

***

ان كنت ذهبي القبّعة فالعاقبة لا شيء ان كنت كملك فالعاقبة لا شيء
لو وهبوك ملك سليمان في الختام أنت تحت التراب والعاقبة لا شيء

***

مررت بالمقبرة في صباح سمعت أنيناً وتغوّثاً وتأوّهاً
سمعت جمجمة تخاطب التراب ان الدنيا هذه لا تعدل تبنةً

***

مررت أحياناً بالمقبرة رأيت حال المتمكّن والفقير
لا فقير بات بلا كفن لا غني أخذ أكثر من كفن

***

الدنيا مائدة والناس ضيوف اليوم شقائق النعمان وغداً خريف
مطبق يدعى الآن قبراً إبك فهذا حينئذٍ مسكنك

الويل إذ أوضع في القبر الضيق يوسّدوني الطين والصخر
لا رجل لي كي أفرّ لا يد أن أحارب النمل

***

يا قلب انك في غفلة عن السبحان فما الحصيلة مطيع النفس والشيطان فما الحاصل
قدرك أعلى من الملائكة ولست تعرف قدرك فما الحاصل

***

قلبي متهاوٍ حزين إذ لا أئن وجودي ملتهب إذ لا أئن
إذا قيل لي اين وكيف إذ ا لموت يترصّدني فكيف لا أبكي

«وَأَنْ لا يَعْصِيَهُ بِنِعْمَتِهِ أَوْ يُخَالِفَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ بِسَبَبِ نِعْمَتِهِ»

لا نعصِ بنعمة الله:

العبد الشاكر ذلك الإنسان الذي لا يعصي بنعمة الله ولا ينهض بوجه الرب ومخالفة له تعالى في أوامره التي اقيمت على مصالح الإنسان استناداً إلى النعم الإلهية.

حقاً كم جرم عظيم وثقيل أن يبذل المرءُ النعمة الإلهية أي جميع أعضاء وجوارح الإنسان كما الأرض والهواء والغذاء واللباس وكل المواد كل ذلك يستخدمه في الذنب ومخالفة الرب تعالى الذي قد أولى الإنسان بكرمه ولطفه وفضله، هذه النعم كلّها!!

لا أداة للمبادرة إلى الذنب إلا النعم الإلهية، الذي يقصد النظر إلى الأجنبية وأن يفتح على نفسه السبيل إلى خيانة ناموس إقليم بشري فذنب هكذا مبادرة أنّها تتطلّب الاستفادة من نعم العين، الرجل، المال والشهوة، توصّلاً إلى رغباته الشيطانية الجحيمية.

الذي يبغي التلذذ بالصوت الحرام والأغنية المحرمة واللهو واللعب والنغم الهادم للإيمان، فلابد أنه سيستخدم الأذن والمال وهما كلاهما، من نعم الله تعالى.

الذي يقصد الكذب، يتّهم، يستهزئ، يفتري ويتلاعب، يبث النفاق يفحش في القول، يتحدث بالباطل، يبطل الحق، يتهكّم، يشهد بالزور، فلابد له أن يستخدم نعمة اللسان.

الذي يقصد مخالفة الله فيما يعمل، أليس وإلا أنّ عليه استخدام كل كيانه السقوط في الحرام؟ ما المعنى الحقيقي للشكر؟ سأل داود النبي الله تعالى: مولاي! إذا اردت أن أؤدي شكرك حدّ أن ترضى، فماذا عليّ أن أفعل؟

أُجيب: ما أوليتك من نعم، أبذله فيما أمرتك، إذ بذل النعمة حيث قرّرتُ هو الشكر ذاته.

تعالوا في المرحلة الأولى لنعرف خالق النعم، ثم نتعرف على النعم وأنها جميعاً فضله وإحسانه ثم نبادر إلى شكر النعمة وهو بذلها في سبيله، وبذلك نثبت النعمة ونفتح علينا باب خير الدنيا والآخرة.

لا نبذل نعمة الله في الأهواء والتشهات ورغبات شياطين الداخل والخارج الخاطئة، لنستفد من النعم لاعمار الدنيا والآخرة، وإلا فسنواجه عذاباً لا يمكن أن ينقذنا منه منقذ.

لنراقب أن لا تتأدى النعمة إلى غفلتنا وشقائنا، قد جعل الله الرحيم النعم كلها لأجل سعادة الإنسان، اعرفوا قدر النعم، وتعلّموا طريق استخدام النعم عن الأنبياء والأئمة والقرآن.

استشعروا المسؤولية أكثر تجاه نعم الله المعنوية، بالاتصال بالنعم المعنوية والاستفادة الصحيحة منها اوصلوا أنفسكم إلى النضج والكمال وخير الدنيا والآخرة.

اللامبالاة تجاه القرآن، نبوة الأنبياء، إمامة الأئمة عليهم السلام فقه الفقهاء، عرفان العرفاء، هو كفران النعمة بذاته.

يوم القيامة، سيسأل فيه جميع الناس عن النعم التي وُفرت لهم. الرواية أدناه إحدى الروايات الهامة التي وردت في هذا المجال:

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «لا يَزُولُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتّى يَسْأَلَهُ عَنْ أَرْبَعَ خِصالٍ»:

عُمْرُكَ فِيما أَفْنَيْتَهُ وَجَسَدُكَ فيما أَبْلَيْتَهُ وَمَالُكَ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ وَأَيْنَ وَضَعْتَهُ وَعَنْ حُبِّنا أَهْلَ الْبَيْتِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ وَما عَلامَةُ حُبِّكُمْ يا رَسُولَ اللّهِ فَقالَ مَحَبَّةُ هذا وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى رَأْسِ عَلِي

بْنِ أَبى طالِبٍ»[١].

شكر نعمة العمر بأن يبذل هذا الجوهر الغالي في طاعة الله وشكر البدن، هو عبادة الله وخدمة الخلق وشكر المال، الاكتساب بالحلال والبذل في الحلال والخير، وشكر نعمة الامامة، الائتمار للإمام عليه السلام والعشق له.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن المجتبى عليه السلام:

«أُوصيكَ بِتَقْوَى اللّهِ وَإقامَ الصَّلاةِ لِوَقْتِها وَايتاءَ الزَّكاةِ عِنْدَ مَحَلِّها وَأُوصيكَ بِمَغْفِرَةِ الذَّنْبِ وكَظْمِ الْغَيْظِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَالْحِلْمِ عِنْد الجاهِلِ وَالتَّفَقُّهِ فِى الدّينِ وَالتَّثَبُّتِ فِى الأَمْرِ وَالتَّعَهُّدِ لِلْقُرآنِ وَحُسْنِ الْجَوارِ وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجْتِنابِ الْفَواحِشِ كُلِّها فى كُلِّ ما عُصِىَ اللّهُ فيهِ»[٢]

لو بذل العمر وفق هذه الروايات، فقد تمّت في الحقيقة تأدية شكر العمر ولم يستهلك الوقت والنعمة في معصية الله.

أصناف الناس تجاه النعم:

ينبغي هنا التنويه إلى أنّ الناس تجاه نعم المولى الحق تعالى، خاصة ألنعم المعنوية أربعة أصناف: الأول: فئة أعرضوا من البداية عن قبول نعمه تعالى ولم يقبلوا أساساً النعم المادية أو المعنوية، لم يبادروا إلى العمل اتخذوا الكسل وباتوا كلاً على الناس وتلطخوا بالفساد، و لم يقبلوا دين الله فاتخذوا سبيل الضلالة والمتاهة والاجرام والخيانة.

١- بحار الأنوار: ٢٧/ ١٠٣، الباب، الحديث ٧٠.

٢- تحف العقول: ٢٢٢، بحار الأنوار:٦٢/٧٥، الباب ١٦، الحديث ١٤٢.

الثاني: فئة قبلوا النعم المادية أو المعنوية لكنهم بخلوا ببذلها وعطّلوا نعمة الله ملكوا مالاً ولم ينفقوا، أصبحوا علماء وانزوا معتزلين طلباً للعافية وامتنعوا عن بذل نعمة العلم!

الثالث: فئة قبلوا النعمة، لكنهم بذلوها في غير سبيل الحبيب المتعال، كالأثرياء الطغاة ووعاظ السلاطين.

الرابع: فئة قبلوا النعم المادية والمعنوية واعتبروا أنفسهم أمناء الله، تجاه المال والعلم أو نعمة أخرى ووضعوا النعم حيث يرضى الله، هؤلاء هم الذين ذكرهم القرآن المجيد بوصف «عباد الله الشاكرين» على كل حال يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«وأن لا يعصيه بنعمته أو يخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته».

أنا العبد الخجل المطرود عتبة الحبيب، ولي كل الأمل برحمته تعالى للتوبة والعود إلى محل قدسه، قلت في هذا الشأن:

إني من الآن في سبيل خدمة الرفيق الأعلى — قلبي وروحي فداء الرفيق الأعلى

أغمض عين رؤية العالم — كي أرى جمال طلعة الرفيق الأعلى

أطهّر القلب من مودّة الغير — أجعله طوع إرادة الرفيق الأعلى

أفرغ اناء القلب من العالم — فأملأه تماماً بودّ الرفيق الأعلى

اطمع الحبيب الحق — أجنّب نفسي لعنة الرفيق الاعلى

أغسل يدي عن كل أجنبي — أجعل نفسي حيث مقام طاعة الرفيق الأعلى

أبتعد عن زقاق النفس والهوى — حتى أكون في مسار عبادة الرفيق الاعلى

لا يعرف احد في هذا العالم — أقل قليل عن مقام ورفعة الرفيق الأعلى

لا يستعصي أحد في العالمين كليهما على أُمور ومشية الرفيق الأعلى
كفّي يا نفس عن طاعة الشيطان إفْنِ في فضاء طاعة الرفيق الأعلى
لو طلبت النجاة يا مسكين فهيا تحرّك في صراط وخدمة الرفيق الأعلى

«وَكُنْ لِلّهِ عَبْدا شَاكِرا عَلى كُلِّ حالٍ تَجِدَ اللّهَ رَبّا كَريما عَلى كُلِّ حالٍ»

شكر العبد كرم الحق تعالى:

يشير الإمام الصادق عليه السلام في هذه الجملة إلى قاعدة متجذرة هامة جداً بيّنها القرآن الكريم مكرّراً وهي أن مسألة تعامل الحق المتعال مع العبد على صلة مباشرة بوضع العبد، إن كان يتبع في أموره المسائل الإلهية، فإن باب رحمة ولطف الحبيب الحق تعالى مفتوحة بوجه العبد في الدنيا والآخرة، ورد قرآنياً:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1].

اعتبرت الآية الشريفة، إيمان وتقوى الناس سبب انفتاح أبواب بركات السماء والأرض من قبل الله وهذه حقيقة دلّلها التاريخ.

ذكر القرآن الكريم ان قوم يونس قاربهم العذاب وهو عذاب سبّبه عصيانهم و طغيانهم، لكنهم تيقّظوا وتابوا حقيقة، رُفع عنهم العذاب واستبدل باللطف والرحمة.

تغيير النعمة نتاج عمل الإنسان:

لو تابع العبد في اموره، الأهواء والرغبات منقاداً لشياطين الباطن والخارج، فهو يعاني الاضطراب، اللاأمان، الخوف، الضنك، ضيق الصدر، المشاكل والعسر يقول القرآن الكريم في هذا الخصوص:

١- الأعراف ٧: ٩٦.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلى قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[١].

فالله تعالى لا يغيّر نعمة اعطاها العباد إلى أنب يجانب الناس والمحاسن والحسنات والإيمان والتقوى، مع تلوّث الناس، تتغيّر النعم التي وفّرت لهم، ليصبح الأمن خوفاً، الارتياح ضنكاً، الصحة سقماً، الصحة خطأ، السعادة شقاء!!

﴿إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾[٢].

يقول الإمام الصادق عليه السلام في الجملة مورد الشرح:

«وكن لله عبداً شاكراً على كل حال تجد الله ربّاً كريماً على كل حال».

فقد ورد:

أن النبي صلى الله عليه وآله حين استغنائه عن الأمور الدنيوية كان يقول: «**الحمد لله رب العالمين**» وحين شدة ضيق ذات اليد يقول: «**الحمد لله على كل حال**»[٣]

كان شاكراً في كل أحواله، وكان الله أيضاً ربّاً كريماً له في الأحوال جميعاً، وكرمه مع أي كان يقتضي سلامة ذلك الشخص دينياً وكونه مأموناً عليه من ان يذنب ويتلوّث وان لا ينسيه العسرو ضيق ذات اليد أو سائر المصاعب، عن ذكر الله!!

حقاً، هنيئاً لأولئك الذين في كل أحوالهم في ذكر وشكر الله، لا يُغفلون ذكره

١- الأنفال ٨: ٥٣.

٢- الرعد ١٣: ١١.

٣- الكافي: ٩٧/٢، باب الشكر، حديث ١٩؛ بحار الأنوار: ٣٣/٦٨، باب ٦١، حديث ١٤.

للحظة وهم لأجل توجههم له تعالى يديمون شكر أنعمه؛ إذ ليس يمكن ان يتذكر الإنسان الله وألطافه ولا يشكر نعمته، وقد نظمت أنا المسقط المضطرب الحال والفقير بباب الحبيب المتعال:

من اصبح مقيماً في هذا البيت، هو أنا
ما بات ثملاً من ذلك التجلي السكري، هو أنا
من احترق في غمّك ولم ينبس شفة بحرف
يأكل حرقة قلبي أيها القمر الدري، هو أنا
منذ الأزل آنس عشقك هذا القلب الحزين
اعرفك بمنأى من الأجانب، هو أنا
الكَدَس! احترق بنار عشقك، تماماً أيها الحبيب
بطواف وجهك كالفراشة
يقول الجميع أنّ قلبي اصيب بجنون
حق ذلك إذ أجنّني غمّ عشقك
تجلَّ فقد بلغ النفس الشفتين يا رفيق
فمستعطي قدسك وذلك التجلّي الروحي، هو أنا
لا خبر عني غير غمّك يا دواء الوجع
ذلك الملقى في بيت الشفاء هذا، هو أنا
يا من غمك سروري وجهك لي روح الحياة
سكرانك بلا خمر وقدح، هو أنا

قال المسكين انّ قلبي بات بيـت عشـقك

الذي بات مقيماً بهذا البيـت هـو أنـا

بالله عليكم لا تمرّوا على هذه المسائل مجتازين، تعالوا بشكر النعمـة عـاملوا ربّكـم الرحيم اكسبوا ربح هذه المعاملـة الهامّـة الجدّ مربحـة، ليسـت أن بعـض النـاس ممـن يحيون في غفلة عن هذه الحقائق، كانوا ليبـادروا ولـو للاختبـار، بمعاملـة مخلصـة مع ربهم، فيروا كم نتاجات هامة سيستحصلونها، يا للأسف، الكثيرين في جهل وغفلة!!

«وَلَوْ كانَ عِنْدَ اللّهِ عِبادَةٌ يَتَعَبَّدُ بها عِبادُهُ الْمُخْلِصُونَ أَفْضَلُ مِنَ الشُّكْرِ عَلى كُلِّ حَالٍ لَأَطْلَقَ لَفْظَهُ فيهِمْ مِنْ جَميعِ الْخَلْقِ بِها، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلُ مِنْها خَصَّها بَيْنَ الْعِباداتِ وَخَصَّ أَرْبابَها فَقَالَ تَعالى: ﴿وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾»[1]

الشكر أكبر العبادات:

١- سبأ ٣٤ : ١٣.

«وَتَمامُ الشُّكْرِ إِعْتِرافُ لِسانِ السِّرِّ خاضِعا لِلّهِ تَعالى بِالْعَجْزِ عَنْ بُلُوغِ أَدْنى شُكْرِهِ لِأَنَّ التَّوْفِيقَ لِلشُّكْرِ نِعْمَةٌ حادِثَةٌ يَجِبُ الشُّكْرَ عَلَيْها وَهِيَ أَعْظَمُ قَدْرا وَأَعَزُّ وُجُودا مِنَ النِّعْمَةِ الَّتى مِنْ أَجْلِها وُفِّقْتَ لَهُ فَيَلْزَمُكَ عَلى كُلِّ شُكْرٍ شُكْرٌ أَعْظَمُ مِنْهُ إِلى مَا لا نِهايَةَ لَهُ مُسْتَغْرِقا فى نِعَمِهِ قاصِرا عاجِزا عَنْ دَرْكِ غايَةِ شُكْرِهِ»

الشكر التام:

إذن فالشكر التام الكامل يستلزم، اعتراف ذات الوجود وسرِّ القلب حقيقة والتقدّم خاضعاً في المحضر الربوبي بالعجز عن شكره تعالى مطلقاً.

قد نظمت أنا العاجز عن الشكر، القاصر عن درك النعمة، العاصي المسكين، متقدماً في محضر الحبيب المتعال:

من غمِّك رفعت الليلة البارحة صرخة السكارى

شكرت إذ في تلك الليلة طرقت باب هذا البيت

حرارة لطفك يا سلطان بلاد قلبي

أفتى أني من عشقك احتسيت كأسين أو ثلاثة

إني إلى أي باب توجهت لم يدخلوني

أخذت الكأس وطرقت مباشرة وباستمرار باب بيت الشراب

حيث غدا قلبي بيت عشقك يا بدر الوجود

اخذت بمائة شكر طرب، مفرقة الشراب

قـــال: يـــا قلـــب مـــا الـــذي غمـــرك

قال المست يدي تلـك الضـفيرة الحبيبـة

خطـوت فـي طريـق عشـقك بروحـي

خطوي هذا بسبيل عشقك كان بفتـوة ورجولـة

احترق روحي وجسدي بنار الهجران إذ أني

بغـم عشـقك، بنفسـي أشـعلت البيـت

منـذ الازل توسّـلت بـك يـا حبيـب

إلى الأبد ضربت فـي صـدر أي أجنبـي

أنا المسكين ثمل ومخمور وهالكٌ وليس عجباً

إذ تناولت صبوحاً من صفاء الجرّة بل حب ومن بيت الحباب

حقاً أي انسان وُفق حتى الآن إلى أداء شكره، لكن عسى أنه بكرمه ولطفه وبرحمته وفضله، يعدّ إقرارنا بالعجز عن الشكر، شكراً.

«وَأَنَّى يَلْحَقُ شُكْرَ الْعَبْدِ نِعْمَةَ اللّهِ وَمَتى يَلْحَقُ صَنيعُهُ بِصَنيعِهِ وَالْعَبْدُ ضَعيفٌ لا قُوَّةَ لَهُ أَبَدا إلاّ بِاللّهِ»

«وَاللّهُ غَنِيٌّ عَنْ طاعَةِ الْعَبْدِ قَوِيٌّ عَلى مَزيدِ النِّعَمِ عَلَى الْأَبَدِ فَكُنْ لِلّهِ عَبْدا شَاكِرا
عَلى هـذا الْأَصْلِ تَرَى الْعَجَبَ»

المحتويات

الباب (٤) في بيان النية

النية: ٨

المالك الحقيقي هو الله تعالى: ١١

مرجع الأمور جميعاً إلى الله: ١٥

النية في القرآن الكريم: ٢٠

النية، لله فقط: ٢٠

نية العباد الحقيقيين الخالصة المخلصة: ٢١

الله تعالى عالم بالبينات جميعاً: ٢٢

النيات اللا طاهرة والملوّثة: ٢٣

النية في الروايات: ٢٦

كلام العلامة المجلسي رحمه الله في شرح حديث النية: ٣٠

منازل ودرجات النية: ٣٤

النية الطاهرة في مرآة فضل الحق: ٣٩

المواكبة مع أهل البيت عليهم السلام: ٤٤

حقيقة النية: ٤٦

حضور القلب: ٤٧

القلب السليم:.....٦٠
الإنسان أهم مجاميع الخلقة:.....٦٢
العناصر الأربع في وجود الإنسان:.....٦٤
المحكمة الإلهية للبتّ بشأن القلب:.....٦٥
أخطار مرض القلب:.....٦٦
أمراض القلب:.....٦٨
١ـ الكفر:.....٦٨
٢ـ النفاق:.....٦٩
٣ـ الشرك:.....٧٠
٤ـ الشك:.....٧١
٥ـ القساوة:.....٧٢
٦ـ الرياء:.....٧٣
٧ـ العجب:.....٧٥

الباب (٥) في بيان الذكر

الذكر الحقيقي:.....٩٢
توضيح الذكر من لسان العرفاء:.....٩٨
العبادة العرفانية:.....١٠٣
ذكر الله:.....١٠٧
الذكر أفضل العبادة:.....١١٥

مراتب الذكر: ١١٧
الهداية: ١٢٠
الملائكة والهداية: ١٢١
السماوات والهداية: ١٢٣
الحيوانات والهداية: ١٢٤
الإنسان والهداية: ١٣١
الهداية إتمام الحجة الإلهية: ١٣٣
الهداية، عامل السعادة الأوحد: ١٣٦
عوالم الإنسان الثلاث: ١٣٦
العشق والحُبُّ ثمرة الهداية: ١٤٥
الهداية أسمى النعم الإلهية: ١٤٧
قيمة ممارسة الهداية: ١٤٩
الضلالة: ١٥١
القرآن وموضوع الضلالة: ١٥٤
علامة الضلالة: ١٥٥
أوصاف أهل الضلالة: ١٥٦
الإضلال ذنب لا يُغفر: ١٥٧
الولاية صراط الهداية: ١٥٩
خطبة نبي الإسلام ﷺ بشأن المعاصي والذنوب: ١٦٣
عظمة الإنسان: ١٨٠
اللطف الإلهي في قصة أم موسى: ١٨٧

القلب قبلة اللسان: ١٩٢
الأذكار الباطلة من منتج الفرق الباطلة: ١٩٣
الذكر الحقيقي لذاكري الله: ١٩٤
عظمة الذكر ومجالس الذكر روائياً: ١٩٧
ثواب لاإله الله المحير: ٢٠٥
معنى «لا إله إلا الله»: ٢٠٦
قيمة التوحيد بالمعرفة: ٢٠٩
ارتباط المعرفة بالنواحي الأربعة للإنسان: ٢٠٩
١ ـ القلب: ٢١٠
٢ ـ الروح: ٢١٢
٣ ـ النفس: ٢١٣
٤ ـ العقل: ٢١٣
مدار المسالك الإلهية العرفاني: ٢١٤
طلاب الحق تعالى: ٢١٥
روايات أُخر في عظمة «لا إله إلا الله»: ٢١٧
الإخلاص في الذكر: ٢٢٠
الأذان تذكار الحقائق الإلهية ٢٢٣
ثواب الأذان ومقام المؤذن: ٢٢٥
حال الإنسان حين الذكر: ٢٣٠
غسل القلب بدموع الندم: ٢٣٢
ذاكر الله: ٢٣٤

استصغار الأعمال أمامه تعالى: ٢٣٧
الأعمال الناقصة بمحضر الرب الكامل: ٢٣٧
أقسام الذكر: ٢٤٢
الذكر قسمان: ٢٤٢

الباب (٦) في بيان الشكر

جهاز التنفس وعوامل النفس: ٢٥٠
طريقتان من التنفس: ٢٥١
نعمة الهواء: ٢٥٨
القرآن ومسألة الشكر: ٢٦٢
أدنى مراحل الشكر: ٢٦٦
قضية النعم وما فيها من عجب: ٢٦٨
نعمة ا لحياة: ٢٦٩
جانب آخر من نعمة الحياة: ٢٧٤
خلقةُ الإنسان: ٢٧٧
مراحل تكون ا لإنسان في رحم الأُم: ٢٧٧
خلقة الإنسان، في مرآة كلام سيد الشهداء عليه السلام: ٢٩٥
نعمة جهاز الدورة الدموية: ٣٠٠
نعمة الكبد: ٣٠٥
نعمة الاعصاب: ٣٠٨

نعمة الغدد واللوزة: ٣١٤
نعمة جلد البدن: ٣١٧
نعمة الأرض: ٣٢٧
نعمة النوم: ٣٣٢
نعمة الشمس: ٣٣٤
نعمة المطر: ٣٣٤
والرضا بما أعطى: ٣٣٧
الرضا بفعل الحق تعالى ٣٣٧
العبد الشاكر راضي بفعل الحق تعالى ٣٤٠
لا نعصِ بنعمة الله: ٣٤٦
أصناف الناس تجاه النعم: ٣٤٨
شكر العبد كرم الحق تعالى: ٣٥١
تغيير النعمة نتاج عمل الإنسان: ٣٥١
الشكر أكبر العبادات ٣٥٥
الشكر التام: ٣٥٦
المحتويات: ٣٥٥